

في ظلال القرآن

سورة الأعراف

(المص (1)

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بسورة الأعراف هذه سورة مكية - كسورة الأنعام - موضوعها الأساسي هو موضوع القرآن المكي . . العقيدة . . ولكن ما أشد اختلاف المجالين اللذين تتحرك فيهما السورتان في معالجة هذا الموضوع الواحد , وهذه القضية الكبيرة !

إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة , وذات ملامح متميزة , وذات منهج خاص , وذات أسلوب معين , وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد , وهذه القضية الكبيرة .

إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية , ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة , وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع , وتحقيق هذه الغاية .

إن الشأن في سور القرآن - من هذه الوجهة - كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة . . كلهم إنسان , وكلهم له خصائص الإنسانية , وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني . . ولكنهم بعد ذلك نماذج متنوعة أشد التنوع . نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح , وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة !

هكذا عدت أتصور سور القرآن . وهكذا عدت أحسها , وهكذا عدت أتعامل معها . بعد طول الصحبة , وطول الألفة , وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته , وملامحه وسماته !

وأنا أجد في سور القرآن - تبعاً لهذا - وفرة بسبب تنوع النماذج , وأنسا بسبب التعامل الشخصي الوثيق ; ومتاعاً بسبب اختلاف الملامح والطباع , والاتجاهات والمطالع !

إنها أصدقاء . . كلها صديق . . وكلها أليف . . وكلها حبيب . . وكلها ممتع . . وكلها يجد القلب عنده ألواناً من الاهتمامات طريفة , وألواناً من المتاع جديدة , وألواناً من الإيقاعات , وألواناً من المؤثرات , تجهل لها مذاقاً خاصاً , وجواً متفرداً .

ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة . . رحلة في عوالم ومشاهد , ورؤى وحقائق , وتقارير وموحيات , وغوص في أعماق النفوس , واستجلاء لمشاهد الوجود . . ولكنها كذلك رحلة متميزة المعالم في كل سورة ومع كل سورة .

إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة . وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة . . ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها ; وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها ; وتواجه الجاهلية العربية في حينها - وكل جاهلية أخرى كذلك - مواجهة صاحب الحق الذي يصدع بالحق ; وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة الموفورة التي تحدثنا عنها إجمالاً وتفصيلاً ونحن نقدم السورة ونستعرضها - في الجزء

السابع وفي هذا الجزء أيضاً - ووقفنا أمامها ما شاء الله أن نقف . . بينما سورة الأنعام تتخذ هذا المنهج , وتسلك ذلك الطريق . . نجد سورة الأعراف - وهي تعالج موضوع العقيدة كذلك - تأخذ طريقاً آخر , وتعرض موضوعها في مجال آخر . . إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري . . في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملا الأعلى , وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها . . وفي هذا المدى المتطاوّل تعرض "موكب الإيمان" من لدن آدم - عليه السلام - إلى محمد - [ص] - تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ . يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيل , وقيلاً بعد قبيل . . ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى ? كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته ? كيف وقف الملا منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله ? وكيف كانت عاقبة المكذّبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة . .

إنها رحلة طويلة طويلة . . ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة , وتقف منها عند معظم المعالم البارزة , في الطريق المرسوم . ملامحه واضحة , ومعالمه قائمة , ومبدؤه معلوم , ونهايته مرسومة . . والبشرية تخطو فيه بجموعها الحاشدة . ثم تقطعه راجعة . إلى حيث بدأت رحلتها في الملا الأعلى . .

لقد انطلقت هذه البشرية من نقطة البدء , ممثلة في شخصين اثنين . . آدم وزوجه . . أبوي البشر . . وانطلق معهما الشيطان . مأذونا من الله في غوايتهما وغواية ذراريهما وماخوذاً عليهما عهد الله وعلى ذراريهما كذلك . ومبتلي كلاهما وذراريهما معهما بقدر من الاختيار ; ليأخذوا عهد الله بقوة أو ليركنوا إلى الشيطان عدوهم وعدو أبويهم الذي أخرجهما من الجنة ; وليسمعوا الآيات التي يحملها إليهم ذلك الرهط الكريم من الرسل على مدار التاريخ , أو يسمعوا غواية الشيطان الذي لا يني يجلب عليهم بخيله ورجله , وبآتيهم عن إيمانهم وعن شمائلهم !

انطلقت البشرية من هناك . . من عند ربها سبحانه . . انطلقت إلى الأرض . تعمل وتتسع , وتكد وتشقى , وتصلح وتفسد , وتعمّر وتخرّب , وتتنافس وتتقاتل , وتكدح الكدح الذي لا ينجو منه شقي ولا سعيد . . ثم ها هي ذي تؤوب ! ها هي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال . . ها هي ذي تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة . . من ورد وشوك . ومن غال ورخيص , ومن ثمين وزهيد , ومن خير وشر , ومن حسنة وسيئات . ها هي ذي تعود في أصيل اليوم . . فقد انطلقت في مطلعها ! . . وها نحن أولاء نلمحها من خلال السياق في السورة موقورة الظهور بالأحمال - أيا كانت هذه الأحمال - ها هي ذي عائدة إلى ربها بما معها . تطلع في الطريق , وقد بلغ منها الجهد وأضناها المسير . حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حملة أمام الميزان , ووقف يرتقب في خشية ووجل . . إن كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً . . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ! وكل فرد على حدة يلاقي حسابه , ويلقى جزاءه . . وبظل سياق السورة يتابع أفواج البشرية , فوجاً فوجاً إلى جنة أو إلى نار . حتى تغلق الأبواب التي فتحت لاستقبال المغتربين العائدين . فقد كانوا هنالك في هذه الأرض مغتربين: (كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة , إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله , وبحسبون أنهم مهتدون) . .

وبين الغدو والرواح تعرض معارك الحق والباطل . معارك الهدى والضلال . معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين , مع الملا المستكبرين والأتباع المستخفين . ويعرض الصراع المتكرر ; والمصائر المتشابهة . وتتجلي صفائف الإيمان في إشراقها ووضاعتها ; وصفائف الضلال في انطاماسها وعتامتها . وتعرض مصارع

المكذبين بين الحين والحين . حيث يقف السياق عليها للتذكير والتحذير . . وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ في سياق السورة . فبعد كل مرحلة هامة يبدو كما لو كان السياق يتوقف عندها ليقول كلمة ! كلمة تعقيب . للإنذار والتذكير . . ثم يمضي .

إنها قصة البشرية بجمالها في رحلتها ذهاباً وإياباً . تتمثل فيها حركة هذه العقيدة في تاريخ البشرية , ونتائج هذه الحركة في مداها المتطاوّل . . حتى تنتهي إلى غايتها الأخيرة في نقطة المنطلق الأولى . . وهي وجهة أخرى في عرض موضوع العقيدة غير وجهة سورة الأنعام - وإن تلاقت السورتان أحياناً في عرض مشاهد المكذبين وعرض مشاهد القيامة ومشاهد الوجود - وهو مجال آخر للعرض غير مجال الأنعام , واضح التميز , مختلف الحدود .

ذلك إلى طبيعة التعبير في السورتين . فالتعبير في كل سورة يناسب منهجها في عرض الموضوع . وبينما يمضي السياق في الأنعام في موجات متدافعة ; وبينما تبلغ المشاهد دائماً درجة اللألاء والتوهج والالتماع , وتبلغ الإيقاعات درجة الرنين والسرعة القاصفة والاندفاع . . إذا السياق في الأعراف يمضي هادئ الخطو , سهل الإيقاع , تقريرى الأسلوب . وكأنما هو الوصف المصاحب للقافلة في سيرها المديد , خطوة خطوة , ومرحلة مرحلة , حتى تؤوب ! وقد يشتد الإيقاع أحياناً في مواقف التعقيب ; ولكنه سرعان ما يعود إلى الخطو الوئيد الرتيب !

. . وهما - بعد - سورتان مكيتان من القرآن . . !!!

ولعله يحسن هنا أن نستعرض منهج السورة في معالجة موضوع العقيدة في صورة حركة لهذه العقيدة في تيار التاريخ البشري . .

إن السورة لا تعرض قصة هذه العقيدة في التاريخ البشري , ولا تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها الأولى إلى عودتها الأخيرة . . مجرد عرض في أسلوب قصصي . . إنما هي تعرضها في صورة معركة مع الجاهلية . . ومن ثم فإنها تعرضها في مشاهد ومواقف ; وتواجه بهذه المشاهد والمواقف ناساً أحياء كانوا يواجهون هذا القرآن ; فيواجههم هذا القرآن بتلك القصة الطويلة ; ويخاطبهم بما فيها من عبر ; مذكراً ومنذراً ; ويخوض معهم معركة حقيقية حية . . ومن ثم تجيء التعقيبات في السياق عقب كل مرحلة أساسية ; موجهة لأولئك الأحياء الذين كان القرآن يخوض معهم المعركة ; وموجهة كذلك إلى أمثالهم ممن يتخذون موقفهم على مدار التاريخ .

إن القرآن لا يقص قصة إلا ليواجه بها حالة . ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلا . . إنه يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي . إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد , ولا يقص قصصه لمجرد المتاع الفني !

ويركز السياق على التذكير والإنذار في وقفاته للتعقيب . كما يركز على نقطة الانطلاق , وعلى نقطة المآب . وبينهما يمر بقصص قوم نوح , وقوم هود , وقوم صالح , وقوم لوط , وقوم شعيب . ثم يركز تركيزاً شديداً على قصة قوم موسى .

وفي هذه المقدمة للسورة لا نملك إلا أن نعرض نماذج مجملة لمواضع التركيز في السورة:

تبدأ السورة على هذا النحو:

آلمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به , وذكرى للمؤمنين .
اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ما تذكرون . .

فهي منذ اللحظة الأولى خطاب لرسول الله [ص] وخطاب لقومه الذين يجاهدكم بهذا القرآن . . وكل ما يجيء في السورة بعد ذلك من قصص , ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة , وعودتها من الرحلة المرسومة , وكل ما يعرض من مشاهد في صفحة الكون وفي يوم القيامة . . إنما هو خطاب غير مباشر , - وأحيانا مباشر - للنبي [ص] وقومه للإندار والتذكير , كما يشير هذا المطلع القصير .

وقول الله - سبحانه - لرسوله [ص]:

(كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه) . .

يصور حالة واقعية لا يمكن أن يدركها اليوم إلا الذي يعيش في جاهلية وهو يدعو إلى الإسلام ; ويعلم أنه إنما يستهدف أمراً هائلاً ثقيلًا , دونه صعاب حسام . . يستهدف إنشاء عقيدة وتصور , وقيم وموازن , وأوضاع وأحوال مغايرة تمام المغايرة لما هو كائن في دنيا الناس . ويجد من رواسب الجاهلية في النفوس , ومن تصورات الجاهلية في العقول , ومن قيم الجاهلية في الحياة , ومن ضغوطها في الأوضاع والأعصاب , ما يحس معه أن كلمة الحقيقة التي يحملها , غريبة على البيئة , ثقيلة على النفوس ; مستنكرة في القلوب . . كلمة ذات تكاليف بقدر ما تعنيه من الانقلاب الكامل لكل ما يعهده الناس في جاهليتهم من التصورات والأفكار , والقيم والموازن , والشرائع والقوانين , والعادات والتقاليد , والأوضاع والارتباطات . . ومن ثم يجد في صدره هذا الحرج من مواجهة الناس بذلك الحق الثقيل , الحرج الذي يدعو الله - سبحانه - نبيه [ص] ألا يكون في صدره من هذا الكتاب شيء منه ; وأن يمضي به ينذر ويذكر ; ولا يحفل ما تواجهه كلمة الحق من دهشة واستنكار , ومن مقاومة كذلك وحرب وعناء . .

ولأن الأمر كذلك من الثقل ومن الغرابة ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذي تستهدفه هذه العقيدة في حياة الناس وتصوراتهم , فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم , ويذكرهم بمصائر المكذبين , ويعرض عليهم مصارع الغابرين . . جملة قبل أن يأخذ في القصص المفصل عنهم في مواضعه من السياق:

وكم من قرية أهلكناها , فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم
بأسنا إلا أن قالوا:إنا كنا ظالمين . فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين .
فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق , فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا
يظلمون . .

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة . . تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض .
وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه
في الأرض . وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون ;
ومن قدرة على التعرف إلى نواميسه واستخدامها ; والانتفاع بطاقاته ومقدراته
ومدخراته وأقواته:

(ولقد مكناكم في الأرض , وجعلنا لكم فيها معاش . قليلا ما تشكرون) . .

وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولى , وتصوير نقطة الانطلاق التي بدأت منها البشرية رحلتها المرسومة . والسياق يركز في هذه السورة على هذه النقطة ; ويعرض قصة النشأة , ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير , المستمدين مما في مشاهدتها وأحداثها من عظات موحية , ومؤثرات عميقة:

ولقد خلقناكم ثم صورناكم , ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم , فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ? قال: أنا خير منه , خلقتني من نار وخلقته من طين . قال: فاهبط منها , فما يكون لك أن تتكبر فيها , فاخرج إنك من الصاغرين . قال: أنظرني إلى يوم يبعثون . قال: إنك من المنظرين . قال: فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم , ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال: اخرج منها مذؤوماً مدحوراً , لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . . . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة , فكلا من حيث شئتما , ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . . فوسوس لهما الشيطان ليبيد لهما ما ووري عنهما من سواتهما , وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما: إني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور , فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما , وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة , وناداهما ربهما: ألم أنهماكُم عن تلكما الشجرة , وأقل لكما: إن الشيطان لكما عدو مبين ? قال: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال: اهبطوا بعضكم لبعض عدو ; ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال: فيها تحيون , وفيها تموتون , ومنها تخرجون . . .

وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق يتحدد مصير الرحلة كلها , ومصائر المرتحلين جميعا . . وتلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة , بين هذا العدو الجاهر بالعداوة , وبني آدم جميعا . كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة , ومنافذ الشيطان إليه منها .

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل , بالإنذار والتحذير . . تحذير بني آدم مما جرى لأبويهم من هذا العدو العنيد . . وفي ظل هذا المشهد الذي يقف فيه الشيطان وجها لوجه مع آدم وزوجه أبوي البشر . وفي ظل النتيجة التي انتهى إليها الشوط الأول في المعركة يتوجه السياق بالخطاب إلى بني آدم , يذكرهم وينذرهم , ويحذرهم مصيراً كهذا المصير:

يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواتكم وريشاً , ولباس التقوى ذلك خير , ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . . يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة , ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما , إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم , إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . .

(يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . .

ولا بد أن نلاحظ أن مشهد العري بعد ارتكاب المحذور , والخصف من ورق الجنة ; ثم هذا التعقيب بتذكير بني آدم بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سواتهم والرياش الذي يتزينون به , وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزع عن أبويهم . . لا بد أن نلاحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على

هذا النحو إنما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك . حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا , ويحرمون أنواعاً من الثياب , وأنواعاً من الطعام في فترة الحج . ويزعمون أن هذا من شرع الله , وأن الله قد حرم عليهم هذا الذي يحرمونه على أنفسهم . . ومن ثم يجيء في استعراض قصة البشرية , وفي التعقيب عليها ما يناسب ويواجه هذه الحالة الواقعية في الجاهلية . . وفي كل جاهلية في الحقيقة . . أليست سمة كل جاهلية هي التعري والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوى ?

وهذا يدلنا على سمة من سمات المنهج القرآني جديدة بالتأمل . . إنه حتى القصص في القرآن لا يسرد إلا لمواجهة حالة واقعة بالفعل . ولأنه يواجه - في كل مرة - حالة معينة , فإن الحقيقة التي تذكر منه والحلقة التي تعرض في موضع من المواضع , تعرض بقدر الحالة الواقعة التي يواجهها النص حينذاك وفي جوها . .

وهذا بالإضافة إلى ما قلناه عن المنهج القرآني في التعريف بسورة الأنعام - في الجزء السابع - يكون قاعدة هامة . . هي أن المنهج القرآني لا يعرض شيئاً لا تستدعيه حالة واقعة . . إنه لا يعرف اختزان المعلومات والأحكام - ولا حتى القصص - إلى أن يجيء وقت الحاجة الواقعة إليها . .

والآن - وقبل أن تنطلق القافلة في طريقها , وقبل أن يواجهها الرسل بالهدى , وقبل أن يفصل السياق كيف تحركت العقيدة مع التاريخ البشري بعد آدم وزوجه وتجربتهما الأولى . . الآن يبادر بتصوير مشهد النهاية , نهاية المرحلة الكبرى , وذلك على طريقة القرآن الغالبة في عرض الرحلة بشطريها في دار الابتلاء وفي دار الجزاء , كأنما هي رحلة متصلة ممدودة .

وهنا نجد أطول مشهد من مشاهد القيامة , وأكثرها تفصيلاً , وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع . . وموقعه في السورة تعقياً على قصة آدم وخروجه من الجنة بإغواء إبليس له ولزوجته ; وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ; وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته . . موقعه كذلك يجعله مصداقاً لما ينبيء به أولئك الرسل . فإذا الذين أطاعوا الشيطان قد حرموا العودة إلى الجنة , وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ; وإذا الذين خالفوا الشيطان وأطاعوا الله قد ردوا إلى الجنة , ونودوا: (أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون). . فعاد المغتربون إلى دار النعيم !!!

والمشهد طويل لا نملك إثباته هنا في هذا التعريف المجمل وسنواجهه فيما بعد بالتفصيل .

والسياق يتخذ من هذا المشهد مناسبة للتعقيب بالإندار والتذكير , وتحذير الذين يواجهون القرآن بالكذب , ويطلبون الخوارق لتصديقه , من سوء المصير:

(ولقد جنّاهم بكتاب فصلناه على علم , هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ? يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسلنا بالحق . فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا , أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ? قد خسروا أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا يفترون). .

وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد , من المنشأ إلى المعاد , يقف السياق ليعقب عليها , مقررًا "حقيقة الألوهية " و"حقيقة الربوبية " في مشاهد كونية ; تشهد بهذه الحقيقة ; على طريقة القرآن في جعل هذا الكون كله مجالاً تتجلى فيه هذه الحقيقة بآثارها المبدعة , العميقة الإحياء للقلب البشري حين يستقبلها بالحسالمفتوح والبصيرة المستنيرة . وهدف هذه الرحلة الأساسي في مشاهد الكون وأسراره هو تجلية الحقيقة الاعتقادية الأساسية: وهي أن هذا الكون بجملمته يدين بالعبودية لله وحده , فالله هو ربه وحاكمه . فأولى بالإنسان أن لا يكون نشازاً في لحن الوجود المؤمن ; وألا يشذ عن العبودية لرب هذا الكون الذي له الخلق والأمر . . وهو رب العالمين . .

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً , والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر , تبارك الله رب العالمين . ادعوا ربكم تضرعاً وخفية . إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها , وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين . وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته , حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت , فأنزلنا به الماء ; فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه , والذي خبث لا يخرج إلا نكدا . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون .

والآن تمضي الرحلة , وتجري القصة , ويبرز الموكب الإيماني الجليل , يهتف بالبشرية الضالة , يذكرها وينذرنا , ويحذرنا سوء المصير . والبشرية الضالة تلوي وتعاند , وتواجه الدعوة الخيرة بالعناد والتمرد ; ثم بالطغيان والبطش . . ويتولى الله سبحانه المعركة بعد أن يؤدي الرسل واجهم من التذكير والإنذار , فيقابلوا من قومهم بالكذب والإعراض , ثم بالبطش والإيذاء . وبعد أن يفاصلوا قومهم على العقيدة , ويختاروا الله وحده ويدعوا له الأمر كله .

وبعرض السياق قصة نوح , وقصة هود , وقصة صالح وقصة لوط , وقصة شعيب . . مع أقوامهم , وهم يعرضون عليهم حقيقة واحدة لا تتبدل: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . . ويجادلهم قومهم في أفراد الله سبحانه بالألوهية , ويستنكرون أن تكون لله وحده الربوبية . كما يجادلونهم في إرسال الله بشراً من الناس بالرسالة ! ويجادل بعضهم في أن يتعرض الدين لشؤون الحياة الدنيا , ويتحكم في التعاملات المالية والتجارية ! - وذلك كما يحاول اليوم ناس من الجاهلية الحاضرة في هذه القضية بعينها بعد عشرات القرون , ويسمون هذا الجدل الجاهلي القديم تحريراً "وتقدمية " ! - ويعرض السياق مصارع المكذبين في نهاية كل قصة .

ويلحظ المتتبع لسياق القصص كله في السورة أن كل رسول يقول لقومه قولة واحدة: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . ويتقدم لهم بالحقيقة التي استحفظه عليها ربه تقدم الناصح المخلص , المشفق على قومه مما يراه من العاقبة التي تترى بهم وهم عنها غافلون . ولكنهم لا يقدرّون نصح رسولهم لهم ; ولا يتدبرون عاقبة أمرهم , ولا يستشعرون عمق الإخلاص الذي يحمله قلب الرسول , وعمق التجرد من كل مصلحة , وعمق الإحساس بضخامة التبعة . .

وبكفي أن نثبت هنا ما ورد عن قصة نوح - أول القصص - وما ورد عن قصة شعيب , آخر هذه الجملة من القصص , التي يقف السياق بعدها للتعقيب:

لقد أرسلنا نوحا إلى قومه , فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره , إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين . قال: يا قوم ليس بي ضلالة , ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي , وأنصح لكم , وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم , ولتتقوا , ولعلكم ترحمون ? فكذبوه , فأنجيناه والذين معه في الفلك , وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا , إنهم كانوا قوماً عَمِينَ) . . .

وإلى مدين أخاهم شعيبا قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم , فأوفوا الكيل والميزان , ولا تبخسوا الناس أشياءهم , ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها . ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من أمن به , وتبغونها عوجا , واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم , وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا , وهو خير الحاكمين , قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا . قال: أو لو كنا كارهين ? قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها , وما يكون لنا أن نعود فيها - إلا أن يشاء الله ربنا , وسع ربنا كل شيء علما - على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه: لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة , فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيباً كان لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي , ونصحت لكم , فكيف آسى على قوم كافرين . . ?

ويمثل هذان النموذجان بقية القصص بينهما . سواء في تصوير حقيقة العقيدة الواحدة التي أرسل الله بها رسله جميعاً لأبناء آدم - كل في قومه - أو في تلقي الملأ المستكبرين والأتباع المستضعفين لهذه الحقيقة . أو في وضوح هذه العقيدة وحسمها في نفوس الرسل وأتباعهم . أو في روح النصح والرغبة في هداية قومهم . . ثم في مفاصلتهم لأقوامهم عندما يتبين لهم عنادهم وإصرارهم الأخير ثم في إدارة الله - سبحانه للمعركة , وأخذ المكذبين بعد مفاصلة رسلهم لهم , والانتهاه من إنذارهم وتذكيرهم . وعتو المكذبين وإصرارهم على ما هم فيه .

وهنا يقف السياق وقفة للتعقيب . يبين فيها سنة الله في تعامل قدر الله مع الناس حين تجيئهم الرسالة فيكذبون . إذ يأخذهم أولا بالضراء والبأساء , لعل هذا يهز قلوبهم الغافية فتستيقظ وتستجيب . فإذا لم تهزهم يد البأس وكلهم إلى الرخاء - وهو أشد فتنة من البأس - حتى تلتبس عليهم سنة الله , ولا ينتبهوا لها . ثم يأخذهم بعد ذلك بغتة وهم لا يشعرون ! . .

وبعد بيان هذه السنة يهز قلوبهم بالخطر الذي يتهددهم في غفلاتهم . فمن يدر بهم أن قدر الله يتربص بهم , ليجري فيهم سنته تلك ? أفلا تهديهم مصارع الغابرين , وهم في ديارهم يسكنون ?

وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرّعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا , وقالوا: قد مس آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض , ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ? أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ? أفأمنوا مكر

الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم , ونطيع على قلوبهم فهم لا يسمعون . . تلك القرى نقص عليك من أنبائها , ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات , فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل , كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد , وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين . .

بعد ذلك يعرض السياق قصة موسى مع فرعون وملئه , ومع قومه بني إسرائيل: وتستغرق القصة أكبر مساحة استغرقتها في سورة قرآنية ; وتعرض منها حلقات شتى ; ويقف السياق عند بعض الحلقات للتعقيب ; كما يقف في نهايتها لتعقيب طويل حتى نهاية السورة .

ولقد وردت حلقات من قصة موسى - عليه السلام - قبل ذلك - حسب ترتيب النزول - في سور: المزمّل , والفجر , و ق , والقمر . . وكلها إشارات قصيرة . وهذه أول سورة بعد تلك السور تجيء فيها هذه الحلقات الطويلة , في هذه المساحة العريضة . .

وقد شملت حلقة مواجهة فرعون بحقيقة العقيدة . وحلقة التحدي والسحرة - وهما كثيرتا الورود في السور الأخرى - وحلقة أخذ آل فرعون بالسنين والآفات وإرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم - التي لم تفصل إلا في هذه السورة - وحلقة إغراق فرعون والملأ من قومه . . ثم استمر السياق مع بني إسرائيل . وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهاً - صنما - كالقوم الذين مروا عليهم بعد نجاتهم من فرعون وتجاوزهم للبحر ! وحلقة ميقاته مع ربه وطلبه رؤيته ودك الجبل وضعقه وتنزيل الألواح عليه . وحلقة اتخاذ قومه للعجل في غيبته . وحلقة الميقات الثاني مع السبعين من قوم موسى وأخذ الصاعقة لهم حين قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . وحلقة عصيانهم في دخول القرية وفي صيد السمك يوم السبت ! وحلقة تنق الجبل فوقهم كأنه ظلة . . وكلها معروضة بتفصيل واسع , مما جعل القصة تستغرق حزياً كاملاً من السورة .

وفي موقف من مواقف القصة يُدخل السياق الرسالة النبوية الأخيرة ويصف طبيعتها وحقيقتها . وذلك عندما دعا موسى - عليه السلام - ربه في شأن من صعقوا من قومه ; واستنزل رحمته - سبحانه - على هذا النحو الذي يتداخل فيه القصص لتأدية غرض المعركة التي يخوضها القرآن فعلاً:

(واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا , فلما أخذتهم الرجفة , قال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي , أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ? إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء , أنت ولينا , فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة , إنا هدنا إليك . قال: عذابي أصيب به من أشاء , ورحمتي وسعت كل شيء , فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة . والذين هم بآياتنا يؤمنون: الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل , يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث , ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه , ونصروه , واتبعوا النور الذي أنزل معه , أولئك هم المفلحون).

وفي ظل هذا النبأ الصادق من الله , والوعد السابق برسالة النبي الأمي , يأمر الله النبي أن يعلن طبيعة رسالته , وحقيقة دعوته , وحقيقة ربه الذي أرسله , والأصل الاعتقادي الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً من قبله:

(قل: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت , فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته , واتبعوه لعلكم تهتدون) . .

ثم تواصل القصة سيرها بعد هذه الوقفة , إلى موقف العهد ونتق الجبل وأخذ الميثاق . وفي ظل مشهد الميثاق والعهد على بني إسرائيل يذكر العهد المأخوذ على فطرة البشر أجمعين:

(وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم ? قالوا: بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا: إنما أشرك أبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم , أفتهلكنا بما فعل المبطلون ?) . .

ويمضي السياق بعد ذلك في تعقيبات متنوعة , يعرض في أحدها بعد مشهد العهد الفطري مباشرة , مشهد الذي أتاه الله آياته ثم انسلخ منها - كيني إسرائيل وككل من يؤتبه الله آياته ثم ينسلخ منها ! - وهو مشهد يذكرنا بصوره وحركته وإيقاعه والتعقيب عليه بمشاهد سورة الأنعام وجوها كذلك:

واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها , فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها , ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه , فمثله كمثل الكلب: إن تحمل عليه يلهث , أو تتركه يلهث ! ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ; فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون . من يهد الله فهو المهتدي , ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس , لهم قلوب لا يفقهون بها , ولهم أعين لا يبصرون بها , ولهم أذان لا يسمعون بها , أولئك كالأنعام بل هم أضل , أولئك هم الغافلون . .

ثم يمضي السياق يتحدث عن مسائل العقيدة حديثاً مباشراً . ويعرض مع الحديث بعض المؤثرات من المشاهد الكونية ومن التحذير من بأس الله وأخذه ; ومن لمس قلوبهم ليتفكروا ويتدبروا في شأن الرسول ورسالته . . .

ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها , وذروا الذين يلحدون في أسمائه , سيجزون ما كانوا يعملون . وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم , إن كيدي متين . أو لم يتفكروا ? ما بصاحبهم من جنة , إن هو إلا نذير مبين . أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض , وما خلق الله من شيء , وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ? فبأي حديث بعده يؤمنون ? من يضلل الله فلا هادي له , ويذرهم في طغيانهم يعمهون . .

ثم يأمر الله رسوله [ص] أن يعلمهم طبيعة الرسالة وحدود الرسول فيها . وذلك بمناسبة سؤالهم له عن تحديد موعد القيامة التي يخوفهم بها !

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها ?! قل: إنما علمها عند ربي , لا يجليها لوقتها إلا هو , ثقلت في السماوات والأرض , لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفي عنها ! قل: إنما علمها عند الله , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل: لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا - إلا ما شاء الله - ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) . .

ثم يصور لهم كيف تنحرف النفس - التي أخذ الله عليها العهد الذي أسلفنا - عن التوحيد الذي أقرت به فطرتها ; ويستنكر تصورات الشرك ومعبوداته ; ويوجه رسوله [ص] في نهاية هذه الفقرة إلى تحديهم وتحدي ألهتهم العاجزة:

(قل: ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا , وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) . .

ومن هنا إلى ختام السورة يتجه السياق إلى خطاب رسول الله [ص] كما كان افتتاحها خطاباً له - كيف يعامل الناس ? كيف يمضي بهذه الدعوة ? كيف يستعين على متاعب الطريق ? كيف يكظم غضبه وهو يعاني من نفوس الناس وكيدهم ? كيف يستمع هو والمؤمنون معه لهذا القرآن ? كيف يذكر ربه ويبقى موصولاً به ? كما يذكره من عنده في الملاء الأعلى - سبحانه :-

خذ العفو , وأمر بالعرف , وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغك من الشيطان نزع فاستعد بالله , إنه سميع عليم ; إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا: لولا اجتبيتها ! قل: إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي . هذا بصائر من ربكم , وهدي ورحمة لقوم يؤمنون . وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين . . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته , ويسبحونه , وله يسجدون . .

ولعل هذا التلخيص , وهذه المقتطفات الكثيرة من السورة , أن تصور ملامحها الخاصة ; وتميزها عن أختها سورة الأنعام في هذه الملامح . وفي منهج العرض . مع معالجة موضوع واحد . . موضوع العقيدة . .

وقد أرجأنا كل تفسير للنصوص , وكل تفصيل للموضوع الذي تحمله , إلى المواجهة التفصيلية .

. . فعلى بركة الله نمضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الوحدة الاولى 1 - 9 الدرس الأول: 1 - 2 عدم الحرج من الإنذار بالقرآن

(آلمص) . . ألف . لام . ميم . صاد . .

هذا المطلع من الحروف المقطعة سبق الكلام عن نظائره في أول سورة البقرة وفي أول سورة آل عمران . وقد اخترنا في تفسيرها الرأي القائل , بأنها حروف مقطعة يشير بها إلى أن هذا القرآن مؤلف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر , ثم يعجزهم أن يؤلفوا منها كلاماً كهذا القرآن . وأن هذا بذاته برهان أن هذا القرآن ليس من صنع البشر , فقد كانت أممهم الأحرف والكلمات التي صيغ منها , فلم يستطيعوا أن يصوغوا منها قرآناً مثله . فلا بد من سر آخر وراء الأحرف والكلمات . . وهو رأي نختاره على وجه الترجيح لا الجزم . والله أعلم بمراده .

وعلى ذلك يصح القول بأن (المص) مبتدأ خبره: (كتاب أنزل إليك). . بمعنى أن هذه الأحرف وما تألف منها هي الكتاب . . كما يصح القول بأن (المص) مجرد إشارة للتنبيه على ذلك المعنى الذي رجحناه . و(كتاب) خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو كتاب: أو هذا كتاب . .

(كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به , وذكرى للمؤمنين). .

كتاب أنزل إليك للإنذار به والتذكير . . كتاب للصدع بما فيه من الحق ولمواجهة الناس بما لا يحبون ; ولمجابهة عقائد وتقاليد وارتباطات ; ولمعارضة نظم وأوضاع ومجتمعات . فالحرج في طريقه كثير , والمشقة في الإنذار به قائمة . . لا يدرك ذلك - كما قلنا في التعريف بالسورة - إلا من يقف بهذا الكتاب هذا الموقف ;

كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَيُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (3)

وإلا من يعاني من الصدع به هذه المعاناة ; وإلا من يستهدف من التغيير الكامل الشامل في قواعد الحياة البشرية وجذورها , وفي مظاهرها وفروعها , ما كان يستهدفه حامل هذا الكتاب أول مرة [ص] ليواجه به الجاهلية الطاغية في الجزيرة العربية وفي الأرض كلها . .

وهذا الموقف ليس مقصوراً على ما كان في الجزيرة العربية يومذاك , وما كان في الأرض من حولها . . إن الإسلام ليس حادثاً تاريخياً , وقع مرة , ثم مضى التاريخ وخلفه وراءه ! . . إن الإسلام مواجهة دائمة لهذه البشرية إلى يوم القيامة . . وهو يواجهها كما واجهها أول مرة , كلما انحرفت هي وارتدت إلى مثل ما كانت فيه أول مرة ! . . إن البشرية تنتكس بين فترة وأخرى وترجع إلى جاهليتها - وهذه هي "الرجعية" البائسة المرذولة - وعندئذ يتقدم الإسلام مرة أخرى ليؤدي دوره في انتشالها من هذه "الرجعية" مرة أخرى كذلك ; والأخذ بيدها في طريق التقدم والحضارة ; ويتعرض حامل دعوته والمنذر بكتابه للحرج الذي تعرض له الداعية الأول [ص] وهو يواجه البشرية بغير ما استكانت إليه من الارتكاس في وحل الجاهلية ; والغيبوبة في ظلامها الطاغية ! ظلام التصورات . وظلام الشهوات . وظلام الطغيان والذل . وظلام العبودية للهوى الذاتي ولأهواء العبيد أيضاً ! ويتذوق من يتعرض لمثل هذا الحرج , وهو يتحرك لاستنقاذ البشرية من مستنقع الجاهلية , طعم هذا التوجيه الإلهي للنبي [ص]:

(كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به وذكرى للمؤمنين). .

وبعلم - من طبيعة الواقع - من هم المؤمنون الذين لهم الذكرى , ومن هم غير المؤمنين الذين لهم الإنذار . ويعود هذا القرآن عنده كتاباً حياً يتنزل اللحظة , في مواجهة واقع يجاهده هو بهذا القرآن جهاداً كبيراً . .

والبشرية اليوم في موقف كهذا الذي كانت فيه يوم جاءها محمد رسول الله [ص] بهذا الكتاب , مأموراً من ربه أن ينذر به ويذكر ; وألا يكون في صدره حرج منه , وهو يواجه الجاهلية , ويستهدف تغييرها من الجذور والأعماق . .

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاءها هذا الدين , وانتكست البشرية إلى جاهلية كاملة شاملة للأصول والفروع والبواطن والظواهر , والسطوح والأعماق !

انتكست البشرية في تصوراتها الاعتقادية ابتداء - حتى الذين كان آباؤهم وأجدادهم من المؤمنين بهذا الدين , المسلمين لله المخلصين له الدين - فإن صورة العقيدة قد مسخت في تصورهم ومفهومهم لها في الأعماق . .

لقد جاء هذا الدين ليغير وجه العالم , وليقيم عالماً آخر , يقر فيه سلطان الله وحده , ويبطل سلطان الطواغيت . عالماً يعبد فيه الله وحده - بمعنى "العبادة" الشامل - ولا يعبد معه أحد من العبيد . عالماً يخرج الله فيه - من شاء - من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . عالماً يولد فيه "الإنسان" الحر الكريم النظيف . . المتحرر من شهوته وهواه , تحرره من العبودية لغير الله .

جاء هذا الدين ليقيم قاعدة: "أشهد أن لا إله إلا الله" التي جاء بها كل نبي إلى قومه على مدار التاريخ البشري - كما تقرر هذه السورة وغيرها من سور القرآن الكريم - وشهادة أن لا إله إلا الله ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا لله في حياة البشر , كما أن له الحاكمية العليا في نظام الكون سواء . فهو المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره , وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته . . وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن لله شريكاً في خلق الكون وتدييره وتصريفه ; ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلا لله وحده . ولا يتلقى الشرائع والقوانين , والقيم والموازن , والعقائد والتصورات إلا من الله , ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعي حق الحاكمية في شيء من هذا كله مع الله .

هذه هي قاعدة هذا الدين من ناحية الاعتقاد . . فأين منها البشرية كلها اليوم ?

إن البشرية تنقسم شيعاً كلها جاهلية .

شعبة ملحدة تنكر وجود الله أصلاً وهم الملحدون . . فأمرهم ظاهر لا يحتاج إلى بيان !

وشعبة وثنية تعترف بوجود إله , ولكنها تشرك من دونه آلهة أخرى وأرباباً كثيرة . كما في الهند , وفي أواسط إفريقيا , وفي أجزاء متفرقة من العالم .

وشعبة "أهل كتاب" من اليهود والنصارى . وهؤلاء أشركوا قديماً بنسبة الولد إلى الله . كما أشركوا باتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله - لأنهم قبلوا منهم ادعاء حق الحاكمية وقبلوا منهم الشرائع . وإن كانوا لم يصلوا لهم ولم يسجدوا ولم يركعوا أصلاً ! . . ثم هم اليوم يقصون حاكمية الله بجملتها من حياتهم وقيمون لأنفسهم أنظمة يسمونها "الرأسمالية" و "الاشتراكية" . . وما إليها . وقيمون لأنفسهم أوضاعاً للحكم يسمونها "الديمقراطية" و "الديكتاتورية" . . وما إليها . ويخرجون بذلك عن قاعدة دين الله كله , إلى مثل جاهلية الإغريق والرومان وغيرهم , في اصطناع أنظمة وأوضاع للحياة من عند أنفسهم . وشعبة تسمى نفسها "مسلمة" ! وهي تتبع مناهج أهل الكتاب هذه - حذوك النعل بالنعل ! - خارجة من دين الله إلى دين العباد . فدين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذي يضعه للحياة وقانونه . ودين العباد هو منهجهم للحياة وشرعهم ونظامهم الذي يضعونه للحياة وقوانينهم !

لقد استدار الزمان كهَيْئتهِ يوم جاء هذا الدين للبشرية ; وانتكست البشرية بجملتها إلى الجاهلية . . شيعها جميعاً لا تتبع دين الله أصلاً . . وعاد هذا القرآن يواجه البشرية كما واجهها أول مرة , يستهدف منها نفس ما استهدفه في المرة الأولى من إدخالها في الإسلام ابتداء من ناحية العقيدة والتصور . ثم إدخالها في دين الله بعد ذلك من ناحية النظام والواقع . . وعاد حامل هذا الكتاب يواجه الحرج الذي كان يواجهه رسول الله [ص] وهو يواجه البشرية الغارقة في مستنقع الجاهلية , المستنقعة للمستنقع الآسن , الضالة في تيه الجاهلية , المستسلمة لاستهواء الشيطان في التيه ! . . وهو يستهدف ابتداء إنشاء عقيدة وتصور في قلوب الناس وعقولهم تقوم على قاعدة: أشهد أن لا إله إلا الله . وإنشاء واقع في الأرض آخر يعبد فيه الله وحده , ولا يعبد معه سواه . وتحقيق ميلاد للإنسان جديد , يتحرر فيه الإنسان من عبادة العبيد , ومن عبادة هواه !

إن الإسلام ليس حادثاً تاريخياً , وقع مرة , ثم مضى التاريخ وخلفه وراءه . . إنه اليوم مدعو لأداء دوره الذي أداه مرة ; في مثل الظروف والملابسات والأوضاع والأنظمة والتصورات والعقائد والقيم والموازن والتقاليد . . التي واجهها أول مرة .

إن الجاهلية حالة ووضع ; وليست فترة تاريخية زمنية . . والجاهلية اليوم ضاربة أطناها في كل أرجاء الأرض , وفي كل شيع المعتقدات والمذاهب والأنظمة والأوضاع . . إنها تقوم ابتداء على قاعدة: "حاكمة العباد للعباد" , ورفض حاكمية الله المطلقة للعباد . . تقوم على أساس أن يكون "هوى الإنسان" في أية صورة من صورته هو الإله المتحكم , ورفض أن تكون "شريعة الله" هي القانون المحكم . . ثم تختلف أشكالها ومظاهرها , وراياتها وشاراتها , وأسمائها وأوصافها , وشيعها ومذاهبها . . غير أنها كلها تعود إلى هذه القاعدة المميزة المحددة لطبيعتها وحقيقتها . .

وبهذا المقياس الأساسي يتضح أن وجه الأرض اليوم تغمره الجاهلية . وأن حياة البشرية اليوم تحكمها الجاهلية . وأن الإسلام اليوم متوقف عن "الوجود" مجرد الوجود ! وأن الدعاة إليه اليوم يستهدفون ما كان يستهدفه محمد رسول الله [ص] تماماً ; ويواجهون ما كان يواجهه [ص] تماماً , وأنهم مدعوون إلى التأسى به في قول الله - سبحانه - له:

(كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به وذكرى للمؤمنين) . .

ولتوكيد هذه الحقيقة وجلاتها نستطرد إلى شيء قليل من التفصيل:

إن المجتمعات البشرية اليوم - بجملتها - مجتمعات جاهلية . وهي من ثم مجتمعات "متخلفة" أو "رجعية" ! بمعنى أنها "رجعت" إلى الجاهلية , بعد أن أخذ الإسلام بيدها فاستنقذها منها . والإسلام اليوم مدعو لاستنقاذها من التخلف والرجعية الجاهلية , وقيادتها في طريق التقدم و"الحضارة" بقيمتها وموازناتها الربانية .

إنه حين تكون الحاكمية العليا لله وحده في مجتمع - متمثلة في سيادة شريعته الربانية - تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحراً حقيقياً كاملاً من العبودية للهوى البشري ومن العبودية للعبيد . وتكون هذه هي الصورة الوحيدة للإسلام أو للحضارة - كما هي في ميزان الله - لأن الحضارة التي يريد الله للناس تقوم على قاعدة أساسية من الكرامة والتحرر لكل فرد . ولا كرامة ولا تحرر مع العبودية لعبد . . لا كرامة ولا تحرر في مجتمع بعضه أرباب يشرعون ويزاولون حق الحاكمية العليا ; وبعضهم عبيد يخضعون ويتبعون هؤلاء الأرباب ! والتشريع لا ينحصر في الأحكام القانونية

. فالقيم والموازين والأخلاق والتقاليد . . كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه شاعرين أو غير شاعرين ! . . ومجتمع هذه صفته هو مجتمع رجعي متخلف . . أو بالاصطلاح الإسلامي: "مجتمع جاهلي مشرك" !

وحين تكون أصرة التجمع في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكر ومنهج الحياة . ويكون هذا كله صادراً من الله , لا من هوى فرد , ولا من إرادة عيد . فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً متحضرأً متقدماً . أو بالاصطلاح الإسلامي: مجتمعاً ربانياً مسلماً . . لأن التجمع حينئذ يكون ممثلاً لأعلى ما في "الإنسان" من خصائص - خصائص الروح والفكر - فأما حين تكون أصرة التجمع هي الجنس واللون والقوم والأرض . . . وما إلى ذلك من الروابط . . فإنه يكون مجتمعاً رجعياً متخلفاً . . أو بالاصطلاح الإسلامي: مجتمعاً جاهلياً مشركاً . . ذلك أن الجنس واللون والقوم والأرض . . . وما إلى ذلك من الروابط لا تمثل الحقيقة العليا في "الإنسان" . فالإنسان يبقى إنساناً بعد الجنس واللون والقوم والأرض . ولكنه لا يبقى إنساناً بعد الروح والفكر !

ثم هو يملك بإرادته الإنسانية الحرة - وهي أسمى ما أكرمه الله به - أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته من ضلال إلى هدى عن طريق الإدراك والفهم والافتتاح والاتجاه . ولكنه لا يملك أبداً أن يغير جنسه , ولا لونه , ولا قومه . لا يملك أن يحدد سلفاً مولده في جنس ولا لون ; كما لا يمكنه أن يحدد سلفاً مولده في قوم أو أرض . . فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة هو بدون شك أرقى وأمثل وأقوم من المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمور خارجة عن إرادتهم ولا يد لهم فيها !

وحين تكون "إنسانية الإنسان" هي القيمة العليا في مجتمع ; وتكون "الخصائص الإنسانية" فيه موضعاً للتكريم والرعاية , يكون هذا المجتمع متحضرأً متقدماً . . أو بالاصطلاح الإسلامي: ربانياً مسلماً . . فأما حين تكون "المادة" - في أية صورة من صورها - هي القيمة العليا . . سواء في صورة "النظرية" كما في الماركسية , أو في صورة "الإنتاج المادي" كما في أمريكا وأوروبا وسائر المجتمعات التي تعتبر الإنتاج المادي هو القيمة العليا , التي تهدر في سبيلها كل القيم والخصائص الإنسانية - وفي أولها القيم الأخلاقية - فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً رجعياً متخلفاً . . أو بالاصطلاح الإسلامي: مجتمعاً جاهلياً مشركاً . .

. . إن المجتمع الرباني المسلم لا يحتقر المادة ; لا في صورة "النظرية" باعتبار المادة هي التي تؤلف كيان هذا الكون الذي نعيش فيه ; ولا في صورة "الإنتاج المادي" والاستمتاع به . فالإنتاج المادي من مقومات خلافة الإنسان في الأرض بعهد الله وشرطه ; والاستمتاع بالطيبات منها حلال يدعو الإسلام إليه - كما سنرى في سياق هذه السورة - ولكنه لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص "الإنسان" ومقوماته ! كما تعتبرها المجتمعات الجاهلية . . الملحدة أو المشركة . .

وحين تكون القيم "الإنسانية" والأخلاق "الإنسانية" - كما هي في ميزان الله - هي السائدة في مجتمع , فإن هذا المجتمع يكون متحضرأً متقدماً . . أو بالاصطلاح الإسلامي . . ربانياً مسلماً . . والقيم "الإنسانية" والأخلاق "الإنسانية" ليست مسألة غامضة ولا مائعة ; وليست كذلك قيماً وأخلاقاً متغيرة لا تستقر على حال - كما يزعم الذين يريدون أن يشيعوا الفوضى في الموازين , فلا يبقى هنالك أصل ثابت يرجع إليه في وزن ولا تقييم . . إنها القيم والأخلاق التي تنمي في الإنسان "خصائص الإنسان" التي ينفرد بها دون الحيوان . وتُغلب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويجعل منه إنساناً . وليست هي القيم

والأخلاق التي تنمي فيه الجوانب المشتركة بينه وبين الحيوان . . . وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم وثابت , لا يقبل عملية التميع المستمرة التي يحاولها "التطوريون" ! عندئذ لا تكون هناك أخلاق زراعية وأخرى صناعية . ولا أخلاق رأسمالية وأخرى اشتراكية . ولا أخلاق صعلوكية وأخرى برجوازية ! لا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومن مستوى المعيشة , على اعتبار أن هذه العوامل مستقلة في صنع القيم والأخلاق والاصطلاح عليها , وحتمية في نشأتها وتقريرها . . إنما تكون هناك فقط "قيم وأخلاق إنسانية" يصطلح عليها المسلمون في المجتمع المتحضر . "وقيم وأخلاق حيوانية" - إذا صح هذا التعبير - يصطلح عليها الناس في المجتمع المتخلف . . أو بالاصطلاح الإسلامي تكون هناك قيم وأخلاق ربانية إسلامية ; وقيم وأخلاق رجعية جاهلية !

إن المجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية , لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة , مهما تبلغ من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي ! إن هذا المقياس لا يخطيء في قياس مدى التقدم في الإنسان ذاته .

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم الأخلاقي بحيث يتخلى عن كل ما له علاقة بالتمييز الإنساني عن الحيوان . ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية - ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة - رذيلة أخلاقية ! إن المفهوم "الأخلاقي" ينحصر في المعاملات الشخصية والاقتصادية والسياسية - أحياناً في حدود مصلحة الدولة ! - والكتاب والصحفيون والروائيون وكل أجهزة التوجيه والإعلام في هذه المجتمعات الجاهلية تقولها صريحة للفتيات والزوجات والفتيان والشبان: إن الاتصالات الجنسية الحرة ليست رذائل أخلاقية !

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة - من وجهة النظر "الإنسانية" . وبمقياس خط التقدم الإنساني . . وهي كذلك غير إسلامية . . لأن خط الإسلام هو خط تحرير الإنسان من شهواته , وتنمية خصائصه الإنسانية , وتغلبها على نزعاته الحيوانية . .

ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في وصف المجتمعات البشرية الحاضرة , وإغراقها في الجاهلية . . من العقيدة إلى الخلق . ومن التصور إلى أوضاع الحياة . . ونحسب أن هذه الإشارات المجملية تكفي لتقرير ملامح الجاهلية في المجتمعات البشرية الحاضرة . ولتقرير حقيقة ما تستهدفه الدعوة الإسلامية اليوم وما يستهدفه الدعاة إلى دين الله . . إنها دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام: عقيدة وخلقاً ونظاماً . . إنها ذات المحاولة التي كان يتصدى لها رسول الله [ص] وإنها ذات النقطة التي بدأ منها دعوته أول مرة . وإنه ذات الموقف الذي وقفه بهذا الكتاب الذي أنزل إليه ; وربّه - سبحانه - يخاطبه:

(كتاب أنزل إليك , فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به وذكرى للمؤمنين) . .

الدرس الثاني: 3 الأمر باتباع الحق

وفي الوقت الذي وجه إليه - سبحانه - هذا التكليف إلى رسوله , وجه إلى قومه المخاطبين بهذا القرآن أول مرة - وإلى كل قوم يواجههم الإسلام ليخرجهم من الجاهلية - الأمر باتباع ما أنزل في هذا الكتاب , والنهي عن اتباع الأولياء من دون الله . ذلك أن القضية في صميمها هي قضية "الاتباع" . . من يتبع البشر في حياتهم ? يتبعون أمر الله فهم مسلمون . أم يتبعون أمر غيره فهم مشركون ? إنهما موقفان مختلفان لا يجتمعان:

(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم , ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ما تذكرون).

هذه هي قضية هذا الدين الأساسية . . إنه إما اتباع لما أنزل الله فهو الإسلام لله , والاعتراف له بالربوبية , وإفراده بالحاكمية التي تامر فتطاع , واتباع أمرها ونهيها دون سواه . . وإما اتباع للأولياء من دونه فهو الشرك , وهو رفض الاعتراف لله بالربوبية الخالصة . . وكيف والحاكمية ليست خالصة له سبحانه !?

وفي الخطاب للرسول [ص] كان الكتاب منزلاً إليه بشخصه: (كتاب أنزل إليك) . . وفي الخطاب للبشر كان الكتاب كذلك منزلاً إليهم من ربهم: (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) . . فأما الرسول [ص] فالكتاب منزل إليه ليؤمن به ولينذر ويذكر . وأما البشر فالكتاب منزل إليهم من ربهم ليؤمنوا به ويتبعوه , ولا يتبعوا أمر أحد غيره . . والإسناد في كلتا الحالتين للاختصاص والتكريم والتخصيص والاستحاشة . فالذي ينزل له ربه كتاباً , ويختاره لهذا الأمر , ويتفضل عليه بهذا الخير , جدير بأن يتذكر وأن يشكر ; وأن يأخذ الأمر بقوة ولا يستحسر . .

الدرس الثالث: 4 - 9 مشاهد من مصارع الكفار في الدنيا وهلاكهم في الآخرة

ولأن المحاولة ضخمة . . وهي تعني التغيير الأساسي الكامل الشامل للجاهلية: تصوراتها وأفكارها , وقيمها وأخلاقها , وعاداتها وتقاليدها , ونظمها , وأوضاعها , واجتماعها واقتصادها , وروابطها بالله , وبالكون , وبالناس . .

لأن المحاولة ضخمة على هذا النحو ; يمضي السياق فيهب الضمائر هزاً عنيفاً ; ويوقظ الأعصاب إيقاظاً شديداً ; ويرج الجبلات السادة في الجاهلية , المستغرقة في تصوراتها وأوضاعها رجاً ويدفعها دفعا . . وذلك بأن يعرض عليها مصارع الغابرين من المكذبين في الدنيا , ومصائرهم كذلك في الآخرة:

وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأُسْتَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ
بِأُسْتَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5)

(وكم من قرية أهلكتناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا: إنا كنا ظالمين . . فلنسالن الذين أرسل إليهم , ولنسالن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم , وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق , فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) . .

إن مصارع الغابرين خير مذكر , وخير منذر . . والقرآن يستصحب هذه الحقائق , فيجعلها مؤثرات موحية , ومطارق موقظة , للقلوب البشرية الغافلة .

إنها كثيرة تلك القرى التي أهلكت بسبب تكذيبها . أهلكت وهي غارة غافلة . في الليل وفي ساعة القيلولة , حيث يسترخي الناس للنوم , ويستسلمون للأمن:

(وكم من قرية أهلكتناها , فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون).

وكلتاها . . البيات والقيولة . . ساعة غرّة واسترخاء وأمان ! والأخذ فيهما أشد ترويعاً
وأعنف وقعا . وأدعى كذلك إلى التذكر والحذر والتوقي والاحتياط !

ثم ما الذي حدث ؟ إنه لم يكن لهؤلاء المأخوذين في غرتهم إلا الاعتراف ! ولم يكن لهم
دعوى يدعونها إلا الإقرار !

(فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا: إنا كنا ظالمين). . .

والإنسان يدعي كل شيء إلا الاعتراف والإقرار ! ولكنهم في موقف لا يملكون أن يدعوا
إلا هذه الدعوى ! (إنا كنا ظالمين). . . فياله من موقف مذهل رعب مخيف , ذلك الذي
يكون أقصى المحاولة فيه هو الاعتراف بالذنب والإقرار بالشرك !

إن الظلم الذي يعنونه هنا هو الشرك . فهذا هو المدلول الغالب على هذا التعبير في
القرآن . . فالشرك هو الظلم . والظلم هو الشرك . وهل أظلم ممن يشرك بربه وهو
خلقه !?

وبينما المشهد معروض في الدنيا , وقد أخذ الله المكذبين بأسه , فاعترفوا وهم يعاينون
بأس الله أنهم كانوا ظالمين ; وتكشف لهم الحق فعرفوه , ولكن حيث لا تجدي معرفة
ولا اعتراف , ولا يكف بأس الله عنهم ندم ولا توبة . فإن الندم قد فات مواعده , والتوبة
قد انقطعت طريقها بحلول العذاب . .

بينما المشهد هكذا معروضاً في الدنيا إذا السياق ينتقل , وينقل معه السامعين من فوره
إلى ساحة الآخرة . بلا توقف ولا فاصل . فالشريط المعروض موصول المشاهد ,
والنقلة تتخطى الزمان والمكان , وتصل الدنيا بالآخرة , وتلحق عذاب الدنيا بعذاب
الآخرة ; وإذا الموقف هناك في لمحة خاطفة:

(فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم , وما كنا غائبين .
والوزن يومئذ الحق . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه
فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون). . .

إن التعبير على هذا النحو المصور الموحى , خاصة من خواص القرآن . . إن الرحلة في
الأرض كلها تطوى في لمحة . وفي سطر من كتاب . لتلتحم الدنيا بالآخرة ; ويتصل البدء
بالختم !

فإذا وقف هؤلاء الذين تعرضوا لبأس الله في هذه الأرض وفتهم هناك للسؤال
والحساب والجزاء , فإنه لا يكتفى باعترافهم ذاك حين واجهوا بأس الله الذي أخذهم
وهم غارون: (إنا كنا ظالمين). . .

فَلْتَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلْتَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلْتَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ
(7) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9)

ولكنه السؤال الجديد , والتشهير بهم على الملأ الحاشد في ذلك اليوم المشهود:

(فلنسألن الذين أرسل إليهم , ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم - وما كنا غائبين).

فهو السؤال الدقيق الوافي , يشمل المرسل إليهم ويشمل المرسلين . . . وتعرض فيه القصة كلها على الملأ الجاشد ; وتفصل فيه الخفايا والدقائق ! . . يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون . ويسأل الرسل فيجيبون . ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شيء أحصاه الله ونسبوه ! يقصه عليهم - سبحانه - بعلم فقد كان حاضراً كل شيء . وما كان - سبحانه - غائباً عن شيء . . وهي لمسة عميقة التأثير والتذكير والتحذير !

(والوزن يومئذ الحق) . .

إنه لا مجال هنا للمغالطة في الوزن ; ولا التلبس في الحكم ; ولا الجدل الذي يذهب بصحة الأحكام والموازن . .

(فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) . .

فقد ثقلت في ميزان الله الذي يزن بالحق . وجزاؤها إذن هو الفلاح . . وأي فلاح بعد النجاة من النار , والعودة إلى الجنة , في نهاية الرحلة المديدة , وفي ختام المطاف الطويل ?

(ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) . .

فقد خفت في ميزان الله الذي لا يظلم ولا يخطئ . وقد خسروا أنفسهم . فماذا يكسبون بعد ? إن المرء ليحاول أن يجمع لنفسه . فإذا خسر ذات نفسه فما الذي يبقى له ?

لقد خسروا أنفسهم بكفرهم بآيات الله: (بما كانوا بآياتنا يظلمون) والظلم - كما أسلفنا - يطلق في التعبير القرآني ويراد به الشرك أو الكفر: (إن الشرك لظلم عظيم).

ولا ندخل هنا في طبيعة الوزن وحقيقة الميزان - كما دخل فيه المتجادلون بعقلية غير إسلامية في تاريخ الفكر "الإسلامي" ! . . . فكيفيات أفعال الله كلها خارجة عن الشبية والمثيل . مذ كان الله سبحانه ليس كمثل شيء . . وحسبنا تقرير الحقيقة التي يقصد إليها السياق . . من أن الحساب يومئذ بالحق , وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة , وأن عملاً لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع .

الوحدة الثانية: 10 - 25 لقطات من قصة آدم

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (10)
الدرس الأول: 10 تجهيز الأرض لحياة الإنسان

من هنا تبدأ الرحلة الكبرى . . تبدأ يتمهيد عن تمكين الله للجنس البشري في الأرض , كحقيقة مطلقة , وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً .

(ولقد مكناكم في الأرض , وجعلنا لكم فيها معاش , قليلاً ما تشكرون):

إن خالق الأرض وخالق الناس , هو الذي مكن لهذا الجنس البشري في الأرض . هو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة هذا الجنس وتقوته وتعوله , بما فيها من أسباب الرزق والمعاش . .

هو الذي جعلها مقرأً صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر , ودورتها حول الشمس , وميلها على محورها , وسرعة دورتها . . إلى آخر هذه الموافقات التي تسمح بحياة هذا الجنس عليها . وهو الذي أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته , وينمو هذه الحياة ورقيها مع . . وهو الذي جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض , قادراً على تطويعها واستخدامها ; بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها في حاجته . .

ولولا تمكين الله للإنسان في الأرض بهذا وذلك , ما استطاع هذا المخلوق الضعيف القوة أن "يقهر الطبيعة " كما يعبر أهل الجاهلية قديماً وحديثاً ! ولا كان بقوته الذاتية قادراً على مواجهة القوى الكونية الهائلة الساحقة !

إن التصورات الجاهلية الإغريقية والرومانية هي التي تطبع تصورات الجاهلية الحديثة . . هي التي تصور الكون عدواً للإنسان ; وتصور القوى الكونية مضادة لوجوده وحركته ; وتصور الإنسان في معركة مع هذه القوى - بجهده وحده - وتصور كل تعرف إلى النواميس الكونية , وكل تسخير لها " قهراً للطبيعة " في المعركة بينها وبين الجنس الإنساني !

إنها تصورات سخيفة , فوق أنها تصورات خبيثة !

لو كانت النواميس الكونية مضادة للإنسان , عدوة له , تتربص به , وتعاكس اتجاهه , وليس وراءها إرادة مدبرة - كما يزعمون - ما نشأ هذا الإنسان أصلاً ! وإلا فكيف كان ينشأ ? كيف ينشأ في كون معاد بلا إرادة وراءه ? ولما استطاع المضي في الحياة على فرض أنه وجد ! وإلا فكيف يمضي والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه ? وهي - بزعمهم - التي تصرف نفسها ولا سلطان وراء سلطانها ?

إن التصور الإسلامي وحده هو الذي يمضي وراء هذه الجزئيات ليربطها كلها بأصل شامل متناسق . . إن الله هو الذي خلق الكون , وهو الذي خلق الإنسان . وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان , وأودع الإنسان من الاستعدادات ما يسمح له بالتعرف إلى بعض نواميس الكون واستخدامها في حاجته . . وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه . ولم يجعل خلأقه متعاكسة متعادلة متدابرة !

وفي ظل هذا التصور يعيش "الإنسان" في كون مأنوس صديق ; وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة . . يعيش مطمئن القلب , مستروح النفس , ثابت الخطو , ينهض بالخلافة عن الله في الأرض في اطمئنان الواثق بأنه معانٍ على الخلافة ; ويتعامل مع الكون بروح المودة والصدقة ; ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود ; وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافته ; وتيسر له قدراً جديداً من الرقي والراحة والمتاع .

إن هذا التصور لا يكفه عن الحركة لاستطلاع أسرار الوجود والتعرف إلى نواميسه . . على العكس , هو يشجعه ويملاً قلبه ثقة وطمأنينة . . إنه يتحرك في مواجهة كون صديق لا يبخل عليه بأسراره , ولا يمنع عنه مدده وعونه . . وليس في مواجهة كون عدو يتربص به ويعاكس اتجاهاته ويسحق أحلامه وآماله !

إن مأساة "الوجودية" الكبرى هي هذا التصور النكد الخبيث . . تصور الوجود الكوني - بل الوجود الجماعي للبشرية ذاتها - معاكساً في طبيعته للوجود الفردي الإنساني , متجهاً بثقله الساحق إلى سحق هذا الوجود الإنساني ! إنه تصور بائس لا بد أن ينشئ حالة من الانزواء والانكماش والعدمية ! أو ينشئ حالة من الاستهتار والتمرد والفردية ! وفي كلتا الحالتين لا يكون إلا القلق المضمي ! والبؤس النفسي والعقلي , والشروء في التيه: تيه التمرد , أو تيه العدم . . وهما سواء . .

وهي ليست مأساة "الوجودية" وحدها من مذاهب الفكر الأوربي . إنها مأساة الفكر الأوربي كله - بكل مذاهبه واتجاهاته - بل مأساة الجاهلية كلها في جميع أزمانها وبيئاتها . المأساة التي يضع الإسلام حداً لها بعقيده الشاملة , التي تنشئ في الإدراك البشري تصوراً صحيحاً لهذا الوجود , وما وراءه من قوة مدبرة .

إن "الإنسان" هو ابن هذه الأرض ; وهو ابن هذا الكون . لقد أنشأه الله من هذه الأرض , ومكنه فيها , وجعل له فيها أرزاقاً ومعاش , ويسر له المعرفة التي تسلمه مفاتيحها ; وجعل نواميسها موافقة لوجود هذا الإنسان , تساعده - حين يتعرف إليها على بصيرة - وتيسر حياته . . ولكن الناس قليلاً ما يشكرون . . ذلك أنهم في جاهليتهم لا يعلمون . . وحتى الذين يعلمون لا يملكون أن يوفوا نعمة الله عليهم حقها من الشكر , وأنى لهم الوفاء ? لولا أن الله يقبل منهم ما يطيقون: وهؤلاء وهؤلاء ينطبق عليهم بهذين الاعتبارين قوله تعالى:

(قليلاً ما تشكرون).

الدرس الثاني: 11 - 18 رفض إبليس السجود والحكم عليه بالطرد

بعد ذلك تبدأ قصة البشرية بأحداثها المثيرة . . تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان في احتفال مهيب , في رحاب الملاء الأعلى . . يعلنه الملك العزيز الجليل العظيم ; زيادة في الحفاوة والتكريم . وتحتشد له الملائكة - وفي زمريتهم وإن لم يكن منهم إبليس - وتشهده السماوات والأرض ; وما خلق الله من شيء . . إنه أمر هائل وحدث عظيم في تاريخ هذا الوجود:

(ولقد خلقناكم , ثم صورناكم , ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ? قال: أنا خير منه , خلقتني من نار وخلقته من طين . قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها , فاخرج إنك من الصاغرين . قال: أنظرني إلى يوم يبعثون . قال: إنك من المنظرين . قال: فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم , وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذووماً مدحوراً , لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين). .

هذا هو المشهد الأول . . وهو مشهد مثير . . ومشهد خطير . . ونحن نؤثر استعراض مشاهد هذه القصة ابتداءً ; ونرجى التعليق عليها , واستلهاهم إحياءاتها إلى أن نفرغ من استعراضها . .

(ولقد خلقناكم , ثم صورناكم , ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) 2

إن الخلق قد يكون معناه: الإنشاء . والتصوير قد يكون معناه: إعطاء الصورة والخصائص . . وهما مرتبتان في النشأة لا مرحلتان . . فإن (ثم) قد لا تكون للترتيب الزمني , ولكن للترقي المعنوي . والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود . فالوجود يكون للمادة الخامة ; ولكن التصوير - بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص - يكون درجة أرقى من درجات الوجود . فكأنه قال: إننا لم نمحكم مجرد الوجود ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية . وذلك كقوله تعالى: (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

فإن كان شيء أعطي خصائصه ووظائفه وهُدِي إلى أدائها عند خلقه . ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق وإعطاء الخصائص والوظائف والهداية إلى أدائها . والمعنى لا يختلف إذا كان معنى (هدى): هداه إلى ربه . فإنه هُدي إلى ربه عند خلقه . وكذلك آدم صور وأعطي خصائصه الإنسانية عند خلقه . . (وتم) . . للترقي في الرتبة , لا للتراخي في الزمن . كما نرجح .

وعلى أية حال فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام , وفي نشأة الجنس البشري , ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة , كان مصاحباً لخلقه . وأن الترقى في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية . ولم يكن ترقياً في "وجود" الإنسان . من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان . كما تقول الداروينية .

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً - بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء - هو مجرد نظرية "ظنية" وليست "يقينية" لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (11)

إلا ظناً ! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها . وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها !

على أنه - على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور - ليس هناك ما يمنع من وجود "أنواع" من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض ; بفعل الظروف السائدة في الأرض , ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة حياتها , ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة . ولكن هذا لا "يحتم" أن يكون بعضها "متطوراً" من بعض . . وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا . . لا تستطيع أن تثبت - في يقين مقطوع به - أن هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية - وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها - ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعاً أرقى من النوع الذي قبله زمنياً . .

وهذا يمكن تعليقه كما قلنا . . بأن الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع . فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر فنشأ . ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشاً من قبل في الظروف الأخرى فانقرض .

وعندئذ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة , في الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع , وهذا ما ترجمه مجموعة النصوص القرآنية في نشأة البشرية .

وتفرد "الإنسان" من الناحية البيولوجية والفسولوجية والعقلية والروحية . هذا التفرد الذي اضطر الداروينيون المحدثون - وفيهم الملحدون بالله كلية - للاعتراف به , دليل مرجح على تفرد النشأة الإنسانية , وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي !

على أية حال لقد أعلن الله بذاته العلية الجليلة ميلاد هذا الكائن الإنساني ; في حفل حافل من الملائكة الأعلى:

(ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . فسجدوا . إلا إبليس لم يكن من الساجدين) . .

والملائكة خلق آخر من خلق الله لهم خصائصهم ووظائفهم ; لا نعلم عنهم إلا ما أنبأنا الله من أمرهم - وقد أجملنا ما علمنا الله من أمرهم في موضع سابق من هذه الظلال - وكذلك إبليس فهو خلق غير الملائكة . لقوله تعالى: إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . . والجن خلق غير الملائكة , لا نعلم عنه كذلك إلا ما أنبأنا الله من أمره - وقد أجملنا ما أنبأنا الله به من أمرهم في موضع من هذا الجزء أيضاً - وسيأتي في هذه السورة أن إبليس خلق من نار . فهو من غير الملائكة قطعاً . وإن كان قد أمر بالسجود لآدم في زمرة الملائكة . في ذلك الحفل العظيم الذي أعلن فيه الملك الجليل , ميلاد هذا الكائن الفريد . .

فأما الملائكة - وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - فقد سجدوا مطيعين منفيين لأمر الله , لا يترددون ولا يستكبرون ولا يفكرون في معصية لأي سبب ولأي تصور ولأي تفكير . . هذه طبيعتهم , وهذه خصائصهم: وهذه وظيفتهم . . وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنساني على الله , كما تتمثل الطاعة المطلقة في ذلك الخلق المسمى بالملائكة من عباد الله .

وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله - سبحانه - وعصاه . وسنعلم: ما الذي حاك في صدره , وما التصور

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (12)
قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي
إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (15)
الذي سيطر عليه فمنعه من طاعة ربه . وهو يعرف أنه ربه وخالقه , ومالك أمره وأمر
الوجود كله ; لا يشك في شيء من هذا كله !

وكذلك نجد في المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله: نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق . ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت . . وطبيعة ثالثة هي الطبيعة

قَالَ فِيمَا أَعْوَيْنِي لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَأَيْتَنَّهُمْ مِّن بَيْن أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لِّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)
وإنزالها به , بسبب معصيته وتبجحه ; بأن يغوي ذلك المخلوق الذي كرمه الله , والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده ! ويجسم هذا الإغواء بقوله الذي حكاه القرآن عنه :

(. . .) لأفعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لأيتنهم من بين أيديهم ومن خلفهم , وعن أيمانهم وعن شمائلهم) . .

إنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم , يصد عنه كل من يهم منهم باجتيازه - والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حساً , فالله سبحانه جل عن التحيز , فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدي إلى رضى الله - وإنه سيأتي البشر من كل جهة: (من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) . . للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة . . وهو مشهد حي شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدائبة لإغوائهم , فلا يعرفون الله ولا يشكرونه , اللهم إلا القليل الذي يفلت ويستجيب: (ولا تجد أكثرهم شاكرين) . .

وبجاء ذكر الشكر , تنسيقاً مع ما سبق في مطلع السورة: (قليلاً ما تشكرون) . . لبيان السبب في قلة الشكر ; وكشف الدافع الحقيقي الخفي , من حيلولة إبليس دونه , وعوده على الطريق إليه ! ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذي يدفعهم عن الهدى ; وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التي لا تجعل أكثرهم شاكرين !

لقد أجيب إبليس إلى ملتسمه . لأن مشيئة الله - سبحانه - اقتضت أن يترك الكائن البشري يشق طريقه ; بما ركب في فطرته من استعداد للخير والشر ; وبما وهبه من عقل مرجح ; وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدي الرسل ; ومن الضبط والتقويم بهذا الدين . كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية ; وأن يصطرع في كيانه الخير والشر ; وأن ينتهي إلى إحدى النهايتين , فتحق عليه سنة الله وتحقق مشيئته بالابتلاء , سواء اهتدى أو ضل , فعلى سنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة , تحقق الهدى أو الضلال .

ولكن السياق هنا لا يصرح بترخيص الله - سبحانه - لإبليس - عليه اللعنة - في إبعاده هذا الأخير , كما صرح بإجابته في إنظاره . إنما يسكت عنه , ويعلن طرد إبليس طرداً لا معقب عليه . طرده مذموماً مقهوراً , وإبعاده بملء جهنم منه وممن يتبعه من البشر وبضل معه:

(قال:أخرج منها مذؤوماً مدحوراً . لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) . .

ومن يتبعه من البشر قد يتبعه في معرفته بالله واعتقاده بألوهيته , ثم في رفض حاكمية الله وقضائه , وإدعاء أن له الحق في إعادة النظر في أوامر الله , وفي تحكيم منطقته هو في تنفيذها أو عدم تنفيذها . . كما أنه قد يتبعه ليضله عن الاهتداء إلى الله أصلاً . . وهذا وذلك كلاهما اتباع للشيطان ; جزاؤه جهنم مع الشيطان !

لقد جعل الله - سبحانه - لإبليس وقبيله فرصة الإغواء . وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقاً للابتلاء , الذي قضت مشيئته أن تأخذ به هذا الكائن ; وتجعله به خلقاً متفرداً في خصائصه , لا هو ملك ولا هو شيطان . لأن له دوراً آخر في هذا الكون , ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان .

الدرس الثالث: 19 - 25 نجاح الشيطان في إغواء آدم وحواء والهبوط على الأرض

وبنتهي هذا المشهد , ليتلوه مشهد آخر في السياق:

ينظر الله - سبحانه - بعد طرد إبليس من الجنة هذه الطردة - إلى آدم وزوجه . . وهنا فقط نعرف أن له زوجاً من جنسه , لاندرى كيف جاءت . فالنص الذي معنا وأمثاله في القرآن الكريم لا يتحدث عن هذا

وَبَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) الغيب بشيء . وكل الروايات التي جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات لا نملك أن نعتمد عليها , والذي يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجاً من جنسه , فصارا زوجين اثنين ; والسنة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الزوجية:(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون). . فهي سنة جارية وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة . وإذا سرنا مع هذه السنة فإن لنا أن نرجح أن خلق حواء لم يمكث طويلاً بعد خلق آدم , وأنه تم على نفس الطريقة التي تم بها خلق آدم . .

على أية حال يتجه الخطاب إلى آدم وزوجه , ليعهد إليهما ربهما بأمره في حياتهما ; ولتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسي , الذي خلق الله له هذا الكائن . وهو دور الخلافة في الأرض - كما صرح بذلك في آية البقرة: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة). .

(وبا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة , فكلا من حيث شئتما , ولا تقربا هذه الشجرة , فتكونا من الظالمين). .

ويسكت القرآن عن تحديد (هذه الشجرة). لأن تحديد جنسها لا يريد شيئاً في حكمة حظرها . مما يرجح أن الحظر في ذاته هو المقصود . . لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال , ووصاهما بالامتناع عن المحظور . ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد ; وأن يدرّب المركز في طبعه من الإرادة التي يضبط بها رغباته وشهواته ; وبستعلي بها على هذه الرغبات والشهوات , فيظل حاكماً لها لا محكوماً بها كالحيوان , فهذه هي خاصية "الانسان" التي يفترق بها عن الحيوان , ويتحقق بها فيه معنى "الإنسان" .

والآن يبدأ إبليس يؤدي دوره الذي تمحض له . .

إن هذا الكائن المتفرد ; الذي كرمه الله كل هذا التكريم ; والذي أعلن ميلاده في الملاء الأعلى في ذلك الحفل المهيب ; والذي أسجد له الملائكة فسجدوا ; والذي أخرج بسببه

إبليس من الجنة وطرده من الملاء الأعلى . . إن هذا الكائن مزدوج الطبيعة ; مستعد للاتجاهين على السواء . وفيه نقط ضعف معينة يقاد منها - ما لم يلتزم بأمر الله فيها - ومن هذه النقط تمكن إصابته , ويمكن الدخول إليه . . إن له شهوات معينة . . ومن شهواته يمكن أن يقاد !

وراح إبليس يداعب هذه الشهوات:

(فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما ; وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين , أو تكونا من الخالدين , وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين). .

ووسوسة الشيطان لا ندري نحن كيف تتم ; لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله , وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه . ولكننا نعلم - بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب - أن إغواء على الشر يقع في صورة من الصور ; وإيحاء بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات . وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية في الإنسان . وأن هذا الضعف يمكن إتقاؤه بالإيمان والذكر ; حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر ; وما يكون لكيد الضعيف حينئذ من تأثير . . وهكذا وسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما . . فهذا كان هدفه . . لقد كانت لهما سوات , ولكنها كانت مواراة عنهما لا يريانها - وسنعلم من السياق أنها سوات حسية جسدية تحتاج إلى تغطية مادية , فكأنها عوراتهما - ولكنه لم يكشف لهما هدفه بطبيعة الحال ! إنما جاءهما من ناحية رغائبهما العميقة:

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَاهُمَا بِعُرْوٍ فَلَمَّا دَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَتَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23)

(وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين). .

بذلك داعب رغائب "الإنسان" الكامنة . . إنه يحب أن يكون خالداً لا يموت أو معمراً أجلاً طويلاً كالخلود ! ويحب أن يكون له ملك غير محدد بالعمر القصير المحدد . .

وفي قراءة: (ملكين) بكسر اللام . وهذه القراءة يعضدها النص الآخر في سورة طه: هل أدلكم على شجرة الخلد وملك لا يبلى . . وعلى هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد وهما أقوى شهوتين في الإنسان بحيث يمكن أن يقال: إن الشهوة الجنسية ذاتها إن هي إلا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد في النسل جيلاً بعد جيل - وعلى قراءة (ملكين) بفتح اللام يكون الإغراء بالخلد من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود . . ولكن القراءة الأولى - وإن لم تكن هي المشهورة - أكثر اتفاقاً مع النص القرآني الآخر , ومع اتجاه الكيد الشيطاني وفق شهوات الإنسان الأصلية .

ولما كان اللعين يعلم أن الله قد نهاهما عن هذه الشجرة ; وأن هذا النهي له ثقله في نفوسهما وقوته ; فقد استعان على زعزعته - إلى جانب مداعبة شهواتهما - بتأمينهما من هذه الناحية ; فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح , وفي نصحه صادق:

(وقاسمهما:إني لكما لمن الناصحين).. !

ونسي آدم وزوجه - تحت تأثير الشهوة الدافعة والقسم المخدر - أنه عدوهما الذي لا يمكن أن يدلّهما على خير ! وأن الله أمرهما أمراً عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفاها ! وأنه لا يكون شيء إلا بقدر من الله , فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذي لا يبلى فلن ينالاه !

نسيا هذا كله , واندفعا يستجيبان للإغراء !

(فدلاهما بغرور , فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما , وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ; وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة , وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين (?)..

لقد تمت الخدعة وآتت ثمرتها المرة . لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته , فأنزلهما إلى مرتبة دنيا:

(فدلاهما بغرور)!

ولقد شعرا الآن أن لهما سوات , تكشفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما . فراحا يجمعان من ورق الجنة ويشيكانه بعضه في بعض(يخصفان)ويضعان هذا الورق المشبك على سواتهما - مما يوحي بأنها العورات الجسدية التي يخجل الإنسان فطرة من تعريها , ولا يتعري ويتكشف إلا بفساد في هذه الفطرة من صنع الجاهلية !

(وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة , وأقل لكما:إن الشيطان لكما عدو مبين (?)..

وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وعلى إغفال النصيحة . . أما كيف كان النداء وكيف سمعاه , فهو كما خاطبهما أول مرة . وكما خاطب الملائكة . وكما خاطب إبليس . كلها غيب لا ندري عنه إلا أنه وقع . وأن الله يفعل ما يشاء .

وأمام النداء العلوي يتكشف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد . . إنه ينسى ويخطئ . إن فيه ضعفاً يدخل منه الشيطان . إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً . . ولكنه يدرك خطأه ; ويعرف زلته ; ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة . . إنه يتوب ويتوب ; ولا يلج كالشيطان في المعصية , ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية !

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25)

(قالا:ربنا ظلمنا أنفسنا , وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين).. .

إنها خصيصة "الإنسان" التي تصله بربه , وتفتح له الأبواب إليه . . الاعتراف , والندم , والاستغفار , والشعور بالضعف , والاستعانة به , وطلب رحمته . مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته . . وإلا كان من الخاسرين . .

وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت . وتكشف خصائص الإنسان الكبرى . وعرفها هو وذاقها . واستعد - بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة - لمزاولة اختصاصه في الخلافة ; وللدخول في المعركة التي لا تهدأ أبداً مع عدوه . .

(قال: اهبطوا بعضكم لبعض عدو , ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال: فيها تحيون , وفيها تموتون , ومنها تخرجون) . .

وهبطوا جميعاً . . هبطوا إلى هذه الأرض . . ولكن أين كانوا ? أين هي الجنة ? . . هذا من الغيب الذي ليس عندنا من نبا عنه إلا ما أخبرنا به من عنده مفاتيح الغيب وحده . . وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحي هي محاولة فاشلة . وكل تكذيب كذلك يعتمد على مألوفات البشر اليوم و(علمهم)الظني هو تبجح . فهذا "العلم" يتجاوز مجاله حين يحاول الخوض في هذا الغيب بغير أداة عنده ولا وسيلة . ويتبجح حين ينفي الغيب كله , والغيب محيط به في كل جانب , والمجهول في "المادة" التي هي مجاله أكثر كثيراً من المعلومات !

لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض . . آدم وزوجه , وإبليس وقبيله . هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً , وليعادي بعضهم بعضاً ; ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين: إحداهما ممحضنة للشر , والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر ; وليتم الابتلاء ويجري قدر الله بما شاء .

وكتب على آدم وذريته أن يستقروا في الأرض ; ويمكنوا فيها , ويستمتعوا بما فيها إلى حين . وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا ; ثم يخرجوا منها فيبعثوا . . ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره , في نهاية الرحلة الكبرى . .

وانتهت الجولة الأولى لتتبعها جولات وجولات , ينتصر فيها الإنسان ما عاذ بربه . وينهزم فيها ما تولى عدوه .

تعقيب على الوحدة

وبعد فإنها ليست قصة ! إنما هو عرض لحقيقة الإنسان لتعريفه بحقيقة طبيعته ونشأته , والعوالم المحيطة به , والقدر الذي يصرف حياته , والمنهج الذي يرضاه الله له , والابتلاء الذي يصادفه , والمصير الذي ينتظره . . وكلها حقائق تشارك في تقرير "مقومات التصور الإسلامي" . .

وسنحاول أن نلم بها بقدر ما يسمح منهج الضلال , ونبقي تفصيلاتها للبحث المتخصص عن "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" . .

إن الحقيقة الأولى التي نستلهمها من قصة النشأة الإنسانية , هي - كما قلنا من قبل - التوافق بين طبيعة الكون ونشأة الكائن الإنساني ; والتقدير الإلهي المحيط بالكون والإنسان ; والذي يجعل هذه النشأة قدراً مرسوماً لا فلتة عارضة , كما يجعل التوافق بينهما هو القاعدة .

والذين لا يعرفون الله سبحانه , ولا يقدرونه حق قدره , يقيسون أقداره وأفعاله بمقاييسهم البشرية الصغيرة . فإذا نظروا فوجدوا الكائن الإنساني مخلوقاً من مخلوقات هذه الأرض . ووجدوا هذه الأرض ذرة صغيرة كالهباءة في خضم الكون . قالوا: إنه ليس من "المعقول" ! أن يكون وراء نشأة هذا الإنسان قصد ; فوق أن يكون لهذا الإنسان شأن في نظام الكون ! وزعم بعضهم أن وجوده كان فلتة , وأن الكون من حوله معاد لنشأته ونشأة الحياة جملة ! . . وإن هي إلا تخرصات منشؤها قياس أقدار الله وأفعاله بمقاييس البشر الصغيرة !

وحقاً لو كان الإنسان هو الذي له هذا الملك الهائل ما عني بهذه الأرض , ولا يمثل هذا الكائن يدب عليها ! لأن اهتمام الإنسان لا يتسع للعناية بكل شيء في مثل هذا الملك الهائل ; ولا بتقدير كل شيء فيه وتديبره , والتنسيق بين جميع الأشياء فيه . . غير أن الله - سبحانه - هو الله ! هو الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . هو صاحب هذا الملك الكبير الذي لا يقوم شيء منه إلا برعايته ; كما أنه لم يوجد منه شيء إلا بمشيئته . . إنما أفة هذا الإنسان , حين ينحرف عن هدى الله ويستقل بهواه - ولو كان يسميه علماً ! - أن ينسى أنه الله . ويتصوره - سبحانه - على هواه ! وقيس أقداره وأفعاله بمقاييس الإنسان الصغيرة ! ثم يتبجح فيملي هواه هذا على الحقيقة !

يقول سير جيمس جينز - كمثل على التصورات البشرية الضالة الكثيرة - في كتاب: "الكون الغامض":

"ونحن إذ نقف على أرضنا - تلك الحبيبة الرملية المتناهية في الصغر - نحاول أن نكشف عن طبيعة الكون الذي يحيط بموطننا في الفضاء والزمن , وعن الغرض من وجوده , نحس في أول الأمر بما يشبه الذعر والهلع . وكيف لا يكون الكون مخيفاً مرعباً , وهذه أبعاده هائلة لا تستطيع عقولنا إدراك مداها ? وقد مرت عليه أحقاب طويلة لا يمكن تصورها ? ويتضاءل إلى جانبها تاريخ الإنسان حتى يبدو وكأنه لمح البصر ? . . وهو مخيف مرعب لما نشعر به من وحدة مرهوبة , وما نعلمه من ضالة موطننا في الفضاء . ذلك الموطن الذي لا يزيد على جزء من مليون جزء من إحدى حبيبات الرمال التي في بحر العالم ! . . ولكن أخوف ما يُخاف العالم من أجله: أنه لا يُعنى - كما يلوح - بحياة مثل حياتنا . وكأن عواطفنا ومطامعنا وأعمالنا وفنوننا وأدياننا كلها غريبة عن نظامه وخطته . وقد يكون من الحق أن نقول: إن بينه وبين حياة كحياتنا عداً قوياً . ذلك بأن الفضاء في أكثر أجزائه بارد إلى حد تتجمد فيه كل أنواع الحياة . . كما أن أكثر المادة التي في الفضاء تبلغ من الحرارة حداً يجعل الحياة فيه مستحيلة ; وأن الفضاء تذرعه إشعاعات مختلفة الأنواع , لا تنفك تصدم ما فيه من أجرام فلكية ; وقد يكون كثير من هذه الإشعاعات معادياً للحياة أو مبيداً لها .

"هذا هو الكون الذي ألفت بنا فيه الظروف . وإذا لم يكن حقاً أن ظهورنا حدث بسبب غلطة وقعت فيه , فلا أقل من أن يكون نتيجة لما يصح أن يوصف بحق أنه مصادفة " .

وقد بينا من قبل أن افتراض عدا الكون لنشأة الحياة مع افتراض عدم وجود تقدير وتديبر من قوة مهيمنة . . ثم وجود الحياة بعد ذلك فعلاً . . أمور لا يتصورها عقل عاقل ! فضلا على أن يكون عقل عالم ! وإلا فكيف أمكن ظهور الحياة في الكون المعادي لها مع افتراض عدم وجود قوة مهيمنة مقدرة ! هل الحياة أقوى من الكون بحيث تظهر رغم أنفه ?! ورغم عداته لها بطبيعة تكوينه ?! هل هذا الكائن الإنساني مثلاً - قبل أن ينشأ - أقوى من هذا الكون الموجود فعلاً , ومن ثم طلع هكذا في الكون , وأنف الكون راغم ?!

إنها تصورات لا تستحق عناء النظر ! ولو أن هؤلاء "العلماء" يكتفون بأن يقولوا لنا فقط ما تصل إليه وسائلهم من وصف الموجودات , دون أن يدخلوا في أمثال هذه التخريصات "الميتافيزيقية" التي لا تستند على أساس , لأدوا دورهم - ولو ناقصاً - في تعريف الناس بالكون من حولهم ! ولكنهم يتجاوزون دائرة المعرفة المأمونة إلى تيه الفروض والظنون , بلا دليل إلا الهوى الإنساني الصغير !

ونحن - بحمد الله وبهداه - ننظر إلى هذا الكون الهائل فلا نشعر بالذعر والهلع الذي يقول عنه سير جيمس جينز ! إنما نشعر بالرهبة والإجلال لباريء هذا الكون ; ونشعر بالعظمة والجمال المتجليين في خلقه ; ونشعر بالطمأنينة والأنس , لهذا الكون الصديق , الذي أنشأه الله وأنشأنا فيه عن توافق وتنسيق . . وتروعنا ضخامته كما تروعنا دقته ; ولكننا لانفزع ولا نجزع , ولا نشعر بالضياع , ولا نتوقع الهلاك . . فإن ربنا ورب الله . . . ونتعامل معه في يسر ومودة وأنس وثقة ; ونتوقع أن نجد فيه أرزاقنا وأقواتنا ومعايشنا ومتاعنا . . ونرجو أن نكون من الشاكرين :

(ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش . قليلاً ما تشكرون) . .

والحقيقة الثانية المستلهمة من قصة النشأة الإنسانية: هي كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحية ; وضخامة دوره المنوط به ; وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها ; وتنوع العوالم التي يتعامل معها - في حدود عبوديته لله وحده - مما يتناقض تماماً مع المذاهب الحسية الوضعية المادية التي تهدر قيمته كعامل أساسي مؤثر في الكون , حيث تسند الأهمية كلها للمادة وتأثيراتها الحتمية . ومع مذهب النشوء والارتقاء الذي يلحقه بعالم الحيوان ولا يكاد يحفل خصائصه الإنسانية المتميزة ; أو مذهب التحليل النفسي الفرويد الذي يصوره غارقاً في وحل الجنس حتى ما يتسامى إلا عن طريق هذا الوحل نفسه ! . . إلا أن هذه الكرامة لهذا الكائن الفريد , لا تجعل من الإنسان (إلهاً) كما تحاول فلسفات عهد التنوير أن تقول . إنما هو الحق والاعتدال في التصور الإسلامي السليم .

لقد أعلن ميلاد هذا الكائن المتفرد , الذي نرجح من مجموعة النصوص القرآنية - ولا نجزم - أن نشأته كانت مستقلة - أعلن هذا الميلاد في حفل كوني كان شهوده الملائكة الأعلى . وأعلن ميلاده الجليل العظيم في هذا الملائ في الوجود كله . . وفي الآية الأخرى في سورة البقرة أنه أعلن كذلك خلافته في الأرض منذ خلقه ; وكان الابتلاء الأول له في الجنة تمهيداً وإعداداً لهذه الخلافة . كما تعلن الآيات القرآنية في سور متعددة , أن الله جعل هذا الكون - لا الأرض وحدها - عوناً له في هذه الخلافة . وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه . .

وكذلك تظهر ضخامة الدور الذي أعطاه بارئ له . فإن عمارة كوكب وسيادته بخلافة الله فيه - أيًا كان حجم هذا الكوكب - إنها لأمر عظيم !

والذي يتضح من القصة ومن مجموعة النصوص القرآنية أنه كذلك خلق متفرد لا في الأرض وحدها , ولكن في الكون كله . فالعوالم الأخرى من ملائكة وجن وما لا يعلمه إلا الله من الخلق ; لها ووظائف أخرى , كما أنها خلقت من طبائع أخرى تناسب هذه الوظائف . وتفرد الإنسان وحده بخصائصه هذه ووظائفه . يدل على ذلك قول الله تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها , وحملها الإنسان , إنه كان ظلوماً جهولاً) . . وإذن فهو متفرد في الكون كله بخصائص . . ومنها الظلم والجهل ! إلى جانب الاختيار النسبي والاستعداد للمعرفة

المترقية , والإرادة الذاتية . والمقدرة على العدل والعلم , بقدر المقدرة على الظلم والجهل ! . . فهذا الازدواج ذاته هو ميزته التي تفرده .

كل أولئك يلغي تلك النظرة للإنسان القائمة على صغر حجم الكوكب الذي يعيش عليه ; بالقياس إلى أحجام الكون الهائلة . فالحجم ليس هو كل شيء . وخصيصة العقل القابل للمعرفة , والإرادة القابلة للاستقلال - في حدود العبودية لله - والاختيار والترجيح الذاتي . . كل أولئك يفوق في قيمته , الحجم الذي يقيم عليه سير جيمس جينز وأمثاله نظرهم إلى قيمة الإنسان ودوره .

هذه الأهمية التي تخلعها القصة ومجموع النصوص القرآنية على هذا الكائن الإنساني لا تقتصر على دوره في خلافة الأرض , بهذه الخصائص المتفردة ; ولكن صورتها تكمل بتأمل الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها , والعوامل التي يتعامل معها .

إنه يتعامل تعاملًا مباشرًا مع ربه الجليل سبحانه ! هو الذي أنشأه بيده , وأعلن ميلاده في الملاء الأعلى وفي الوجود كله بنطقه , وخوله الجنة يأكل منها حيث يشاء - إلا الشجرة المحظورة - ثم خوله خلافة الأرض بعد ذلك بأمره ; وعلمه أساس المعرفة - كما في آية البقرة (وعلم آدم الأسماء كلها) - وهو ما نرجح أنه القدرة على الرمز باللفظ والاسم للمدلول والمسمى , وهو القاعدة التي يقوم عليها إمكان تبادل المعرفة وتعميمها في الجنس كله - كما قلنا في سورة البقرة - وأوصاه وصيته في الجنة وبعدها , وأودعه الاستعدادات الخاصة التي تفرّد جنسه بخصائصه , وأرسل له الرسل - منه - بهداه ; وكتب على نفسه الرحمة أن يقبل عثرته ويقبل توبته . . إلى آخر نعمة الله على هذا الكائن المتفرد في الكون كله .

ثم هو يتعامل مع الملاء الأعلى . . أسجد الله له الملائكة , وجعل منهم حفظة عليه , كما جعل منهم من يبلغ الرسل وحيه , وأنزلهم على الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا يثبتونهم ويبشرونهم , وعلى المجاهدين في سبيل الله ينصرونهم ويبشرونهم كذلك , وسلطهم على الذين كفروا يقتلونهم ويستلون أرواحهم منهم في تأنيب وتعذيب . . إلى آخر ما بين الملائكة والإنسان من تعامل . في الدنيا وفي الآخرة كذلك .

ويتعامل مع الجن: صالحهم وشياطينهم . . وقد شهدنا منذ لحظات تشخيص المعركة الأولى بينه وبين الشيطان . وهي معركة ممتدة إلى يوم الوقت المعلوم . كما أن تعامله مع صالح الجن المذكور في نصوص قرآنية أخرى . وتسخير الجن أحياناً له ثابت كما في قصة سليمان عليه السلام .

كذلك هو يتعامل مع هذا الكون المادي - وبخاصة الأرض والكواكب والنجوم القريبة منها - وهو الخليفة في هذه الأرض عن الله ; المسخرة له قواها وطاقاتها وأرزاقها ومدخراتها , وعنده الاستعداد اللدني لفتح بعض مغاليق أسرارها , والتعرف إلى بعض نواميسها التي تعينه معرفتها على أداء دوره العظيم . . ومن ثم يتعامل كذلك مع جميع الأحياء فيها . . وأخيراً فإنه بازدواج طبيعته واستعداداته يتحرك في مجال بعيد الأماد من نفسه ذاتها ! إنه يعرج إلى السماوات العليّ ويتجاوز مراتب الملائكة , حين يخلص عبوديته لله ويترقى فيها إلى منتهاها . كما أنه يهبط إلى ما دون مستوى البهيمة حين يتخذ إلهه هواه ويتخلى عن خصائص "إنسانيته" ويتمرغ في الوحل الحيواني . . وبين هذين المجالين أبعاد أضخم مما بين السماوات والأرض في عالم الحس وأبعد مدى !

وليس هذا كله لغير الإنسان كما تلهمه هذه القصة وبقية النصوص الأخرى . . والحقيقة الثالثة: أن هذا الكائن - على كل تفرده هذا أو بسبب تفرده هذا - ضعيف في بعض جوانب تكوينه , حتى يمكن قيادته إلى الشر والارتكاس إلى الدرك الأسفل , من خطام شهواته . . وفي أولها ضعفه تجاه حبّ البقاء , وضعفه تجاه حب الملك . . وهو يكون في أشد حالات ضعفه وأدناها حين يبعد عن هدى الله , ويستسلم لهواه , أو يستسلم لعدوه العنيد الذي أخذ على عاتقه إغواءه , في جهد ناصب , لا يكل ولا يدع وسيلة من الوسائل !

وقد اقتضت رحمة الله به - من ثم - ألا يتركه لفطرته وحدها , ولا لعقله وحده , وأن يرسل إليه الرسل للإنذار والتذكير - كما سيحييء في آية تالية في معرض التعقيب على القصة - وهذه هي صخرة النجاة بالنسبة له . . . النجاة من شهواته بالتخلص من هواه والفرار إلى الله . والنجاة من عدوه الذي يخنس ويتوارى عند ذكره لربه , وتذكر رحمته وغضبه , وثوابه وعقابه . .

وهذه كلها مقويات لإرادته , حتى يستعلي على ضعفه وشهواته . . وقد كان أول تدريب له في الجنة هو فرض "المحظور" عليه ; لتقوية هذه الإرادة وإبرازها في مواجهة الإغراء والضعف . وإذا كان قد فشل في التجربة الأولى , فقد كانت هذه التجربة رصيماً له فيما سيأتي !

ومن رحمة الله به كذلك أن جعل باب التوبة مفتوحاً له في كل لحظة . فإذا نسي ثم تذكر ; وإذا عثر ثم نهض ; وإذا غوى ثم تاب . . وجد الباب مفتوحاً له , وقبل الله توبته , وأقال عثرته . فإذا استقام على طريقه بدل الله سيئاته حسنات , وضاعف له ما شاء . ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته . فليست هنالك خطيئة أبدية . وليست هنالك خطيئة موروثه - ولا تزر وازرة وزر أخرى .

وهذه الحقيقة في التصور الإسلامي تنقذ كاهل البشرية من أسطورة الخطيئة الموروثة التي تقوم عليها التصورات الكنسية في المسيحية ; والتي يقوم عليها ركام هائل من الطقوس والتشكيلات فوق ما يقوم فوقها من الأساطير والخرافات . . خطيئة آدم التي تلازم البشرية كاللعنة المصلتة على الرقاب ! حتى يتمثل الإله في صورة ابن الإنسان [المسيح] ويصلب ويحتمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة الموروثة ; ومن ثم يكتب [الغفران] لمن يتحد بالمسيح الذي كفر بدمه عن خطيئة آدم التي ورثتها البشرية !

إن الأمر في التصور الإسلامي أيسر من هذا بكثير . . لقد نسي آدم وأخطأ . . ولقد تاب واستغفر . ولقد قبل الله توبته وغفر له . . وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى . ولم يبق منها إلا رصيد التجربة الذي يعين الجنس البشري في صراعه الطويل المدى . .

آية بساطة ! وأي وضوح ! وأي يسر في هذه العقيدة !

والحقيقة الرابعة: هي جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها , واستمرارها وضراوتها . .

لقد بدا من سياق القصة إصرار هذا العدو العنيد على ملاحقة الإنسان في كل حالة , وعلى إتيانه من كل صوب وجهة , وعلى اتباعه في كل ساعة ولحظة:

(قال: فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم , ولا تجد أكثرهم شاكرين) . .

لقد اختار اللعين أن يزاول هذا الكيد , وأن يُنظر لمزاولته على المدى الطويل . . اختار هذا على أن يضرع إلى الله أن يغفر له خطيئته في معصيته عيانا وقد سمع أمره مواجهة ! ثم بين أنه سيقعد لهم على طريق الله لا يمكنهم من سلوكه , وأنه سيأتيهم من كل جهة يصرفهم عن هداه .

وهو إنما يأتيهم من ناحية نقط الضعف فيهم ومداخل الشهوة . ولا عاصم لهم منه إلا بالتقوي بالإيمان والذكر والتقوي على إغوائه ووسوسته , والاستعلاء على الشهوات وإخضاع الهوى لهدي الله .

والمعركة مع الشيطان هي المعركة الرئيسية . إنها المعركة مع الهوى باتباع الهدى . والمعركة مع الشهوات باستعلاء الإرادة . والمعركة مع الشر والفساد في الأرض الذي يقود الشيطان أوليائه إليه باتباع شريعة الله المصلحة للأرض . . والمعركة في الضمير والمعركة في الحياة الواقعية متصلتان لا منفصلتان . فالشيطان وراءهما جميعاً !

والطواغيت التي تقوم في الأرض لتخضع الناس لحاكميتها وشرعها وقيمها وموازينها , وتستبعد حاكمية الله وشرعه والقيم والموازن المنبثقة من دينه . . إنما هي شياطين الإنس التي توحى لها شياطين الجن . والمعركة معها هي المعركة مع الشيطان نفسه . وليست بعيدة عنها .

وهكذا تتركز المعركة الكبرى الطويلة الضارية في المعركة مع الشيطان ذاته . ومع أوليائه . ويشعر المسلم وهو يخوض المعركة مع هواه وشهواته ; وهو يخوضها كذلك مع أولياء الشيطان من الطواغيت في الأرض وأتباعهم وأذنانهم ; وهو يخوضها مع الشر والفساد والانحلال الذي ينشئونه في الأرض من حولهم . . يشعر المسلم وهو يخوض هذه المعارك كلها , أنه إنما يخوض معركة واحدة جديّة صارمة ضارية , لأن عدوه فيها مصرٌّ ماض في طريقه . . وأن الجهاد - من ثم - ماض إلى يوم القيامة . في كل صورته ومجالاته .

وأخيراً فإن القصة والتعقيبات عليها - كما سيجيء - تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته . وهو الحياء من التعري وانكشاف سواته:

(فوسوس لهما الشيطان , ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما) . .

(فدلاهما بغرور , فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) . .

(يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سواتكم , وريشا , ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله) . .

(يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما) . .

وكلها توحى بأهمية هذه المسألة , وعمقها في الفطرة البشرية . فاللباس , وستر العورة , زينة للإنسان وستر لعوراتهِ الجسدية . كما أن التقوى لباس وستر لعوراتهِ النفسية .

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سواتها الجسدية والنفسية , وتحرص على سترها وموارئها . . والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس , وتعرية النفس من التقوى , ومن الحياء من الله ومن الناس ; والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة - في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة - هم الذين يريدون سلب "الإنسان" خصائص فطرته , وخصائص "إنسانيته" التي بها صار إنساناً . وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سواته ! وهم الذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة . وقد فقدت مقوماتها الإنسانية !

إن العري فطرة حيوانية . ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان . وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً . والمتخلفون في أواسط إفريقية عراة . والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة ! فأما في الجاهلية الحديثة "التقدمية" فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها , وينقلهم إلى مستوى "الحضارة" بمفهومها الإسلامي الذي يستهدف استنقاذ خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها .

والعري النفسي من الحياء والتقوى - وهو ما تجتهد فيه الأصوات والأقلام وجميع أجهزة التوجيه والإعلام - هو النكسة والردة إلى الجاهلية . وليس هو التقدم والتحضر كما تريد هذه الأجهزة الشيطانية المدربة الموجهة أن توسوس !

وقصة النشأة الإنسانية في القرآن توحى بهذه القيم والموازن الأصلية وتبينها خير بيان .

والحمد لله الذي هدانا إليه وأنقذنا من وسوسة الشيطان ووحل الجاهلية !!!

الوحدة الثالثة: 26 - 34 الموضوع: تحذير من عداوة الشيطان وأساليبه مقدمة الوحدة

هذه وقفة من وقفات التعقيب في سياق السورة . وهي وقفة طويلة بعد المشهد الأول في قصة البشرية الكبرى . وفي سياق السورة وقفات كهذه عند كل مرحلة . كأنما ليقال: قفوا هنا نتدبر ما في هذه المرحلة من عبرة قبل أن نمضي قدماً في الرحلة الكبرى !

وهي وقفة في مواجهة المعركة التي بانَّت طلائعها بين الشيطان والبشرية . وقفة للتحذير من أساليب الشيطان ومداخله ; ولكشف خطته ما كان منها وما يكون متمثلاً في صور وأشكال شتى . .

ولكن المنهج القرآني لا يعرض توجيهاً إلا لمواجهة حالة قائمة ; ولا يقص قصصاً إلا لأن له موقفاً في واقع الحركة الإسلامية . . إنه كما قلنا لا يعرض قصصاً لمجرد المتاع الفني ! ولا يقرر حقيقة لمجرد عرضها النظري . . إن واقعية الإسلام وجدبته تجعلان توجيحاته وتقريراته , لمواجهة حالات واقعة بالفعل في مواجهة الحركة الإسلامية .

وقد كان واقع الجاهلية العربية هو الذي يواجهه التعقيب هنا عقب المرحلة الأولى من قصة البشرية الكبرى . . كانت قريش قد ابتدعت لنفسها حقوقاً على بقية مشركي العرب الذين يفدون لحج بيت الله - الذي جعلوه بيتاً للأصنام وسدنتها ! - وأقامت هذه الحقوق على تصورات اعتقادية زعمت أنها من دين الله ; وصاعتها في شرائع , زعمت

أنها من شرع الله ! وذلك لتخضع لها أعناق المشركين ; كما يصنع السدنة والكهنة والرؤساء في كل جاهلية على وجه التقريب . . وكانت قريش سمت نفسها اسماً خاصاً وهو "الْحُمس" وجعلوا لأنفسهم حقوقاً ليست لسائر العرب . ومن هذه الحقوق - فيما يختص بالطواف بالبيت - أنهم هم وحدهم لهم حق الطواف في ثيابهم . فأما بقية العرب فلا تطوف في ثياب ليستها من قبل . فلا بد أن تستعير من ثياب الحمس للطواف أو تستجد ثياباً لم تلبسها من قبل وإلا طافوا عرايا وفيهم النساء !

قال ابن كثير في التفسير: [كانت العرب - ما عدا قريشاً - لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها , يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها ! وكانت قريش - وهم الحمس - يطوفون في ثيابهم . ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه ; ومن معه ثوب جديد طاف فيه . ثم يلقيه فلا يملكه أحد ! ومن لم يجد ثوباً جديداً , ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً ! وربما كانت امرأة فتطوف عريانة , فتجعل على فرجها شيئاً ليستتره بعض الستر . . وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل . وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم , واتبعوا فيه آباءهم , ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ; فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال: (وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) . . فقال تعالى رداً عليهم: (قل). أي يا محمد لمن ادعى ذلك . (إن الله لا يأمر بالفحشاء) أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة , والله لا يأمر بذلك . (أتقولون على الله ما لا تعلمون) . . أي أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته . وقوله تعالى: (قل:أمر ربي بالقسط) . . أي بالعدل . والاستقامة: (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد , وادعوه مخلصين له الدين) . . أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها , وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله , وما جاءوا به من الشرائع , وبالإخلاص له في عبادته . فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: [أي أن يكون صواباً موافقاً للشرعة , وأن يكون خالصاً من الشرك] .

ففي مواجهة هذا الواقع الجاهلي في شؤون التشريع للعبادة والطواف واللباس - مضافاً إليه ما يختص بتقاليد كهذه في الطعام يزعمون أنها من شرع الله وليست من شرع الله - في مواجهة هذا الواقع جاءت تلك التعقيبات على قصة البشرية الأولى . وجاء ذكر الأكل من ثمر الجنة - إلا ما حرم الله - وجاء ذكر اللباس خاصة , ونزع الشيطان له عن آدم وزوجه باغوائه لهما بتناول المحظور ; وجاء ذكر حياتهما الفطري من كشف السوات , وخصفهما على سواتهما من ورق الجنة . .

فما ذكر من أحداث القصة , وما جاء في التعقيب الأول عليها , هو مواجهة واقعية لواقع معين في الجاهلية . .

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ

مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26)

والقصة تذكر في مواضع أخرى من القرآن , في سور أخرى , لمواجهة حالات أخرى , فنذكر منها مواقف ومشاهد , وتذكر بعدها تقريرات وتعقيبات تواجه هذه الحالات الأخرى . . وكله حق . . ولكن تفصيل القرآن لمواجهة الواقع البشري هو الذي يقتضي هذا الاختيار والتناسق . بين حلقات القصص المعروض في كل معرض , وطبيعة الجو والموضوع في كل معرض .

الدرس الأول: 26 تحذير من الإستجابة للشيطان وتكذيب الكافرين

(يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا . ولباس التقوى , ذلك خير , ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) . .

هذا النداء يجيء في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة . . مشهد العري وتكشف السوآت والخصف من ورق الجنة . . لقد كان هذا ثمرة للخطيئة . . والخطيئة كانت في معصية أمر الله , وتناول المحظور الذي نهى عنه الله . . وليست هي الخطيئة التي تتحدث عنها أساطير [الكتاب المقدس !] والتي تعج بها التصورات الفنية الغربية المستقاة من تلك الأساطير ومن إحياءات " فرويد " المسمومة . . لم تكن هي الأكل من " شجرة المعرفة " - كما تقول أساطير العهد القديم . وغيره الله - سبحانه وتعالى - من " الإنسان " وخوفه - تعالى عن وصفهم علواً كبيراً - من أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً فيصبح كواحد من الآلهة ! كما تزعم تلك الأساطير . ولم تكن كذلك هي المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن الأوربي دائماً حول مستنقع الوحل الجنسي , لتفسر به كل نشاط الحياة كما علمهم فرويد اليهودي ! . .

وفي مواجهة مشهد العري الذي أعقب الخطيئة ومواجهة العري الذي كان يزاوله المشركون في الجاهلية يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله على البشر وقد علمهم وبسر لهم , وشرع لهم كذلك , اللباس الذي يستر العورات المكشوفة , ثم يكون زينة - بهذا الستر - وجمالاً , بدل قبح العري وشناعته - ولذلك يقول: (أنزلنا) أي: شرعنا لكم في التنزيل . واللباس قد يطلق على ما يواري السوأة وهو اللباس الداخلي , والرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به , وهو ظاهر الثياب . كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال . . وهي كلها معان متداخلة ومتلازمة:

(يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً) . .

كذلك يذكر هنا (لباس التقوى) ويصفه بأنه (خير):

(ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله .) . .

قال عبد الرحمن بن أسلم: [يتقي الله فيواري عورته , فذاك لباس التقوى] . .

فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة , وبين التقوى . . كلاهما لباس . هذا يستر عورات القلب ويزينه . وذاك يستر عورات الجسم ويزينه . وهما متلازمان . فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه . ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعري وأن يدعو إلى العري . . العري من الحياء والتقوى , والعري من اللباس وكشف السوأة !

إن ستر الجسد حياء ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي - كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم , وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون - إنما هي فطرة خلقها الله في الإنسان ; ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر ; وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق .

والله يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر , صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ! وفي تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل:

(لعلهم يذكرون) . .

ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم ; والدعوة السافرة لهم إلى العري الجسدي - باسم الزينة والحضارة والمودة ! - وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم , والتعجيل بانحلالهم , ليسهل تعبيدهم لملك صهيون ! ثم يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين في صورة عواطف غامضة في أعماق النفوس ! فحتى هذه توجه لها معاول السحق , بتلك الحملة الفاجرة الداعرة إلى العري النفسي والبدني الذي تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في كل مكان ! والزينة "الإنسانية" هي زينة الستر , بينما الزينة "الحيوانية" هي زينة العري . . ولكن "الآدميين" في هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة . فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها !!!

(يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة , ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما , إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم , إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء , أتقولون على الله ما لا تعلمون ? قل: أمر ربي بالقسط , وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد , وادعوه مخلصين له الدين , كما بدأكم تهودون . فريقاً هدي وفريقاً حق عليهم الضلالة , إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله , ويحسبون أنهم مهتدون) . .

إنه النداء الثاني لبني آدم , في وقفة التعقيب على قصة أبويهم , وما جرى لهما مع الشيطان ; وعلى مشهد العري الذي أوقفهما فيه عدوهما , بسبب نسيانهما أمر ربهما والاستماع إلى وسوسة عدوهما .

وهذا النداء يصبح مفهوماً بما قدمناه من الحديث عن تقاليد الجاهلية العربية في حكاية العري عند الطواف بالبيت ; وزعمهم أن ما وجدوا عليه آباءهم هو من أمر الله وشرعه !

لقد كان النداء الأول تذكيراً لبني آدم بذلك المشهد الذي عاناه أبواهم ; وبنعمة الله في إنزال اللباس الذي يستر العورة والرياش الذي يتجمل به . . أما هذا النداء الثاني فهو التحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة . أن يستسلموا للشيطان , فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد ; فيسلمهم إلى الفتنة - كما فعل مع أبويهم من قبل إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما - فالعري والتكشف الذي يزاولونه - والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً - هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية , وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم وبنيه ; وهوطرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه . فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم ; وأن ينتصر في هذه المعركة , وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف !

(يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما).

وزيادة في التحذير , واستثارة للحذر , ينبئهم ربهم أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم .

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْتَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28)

وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية ; وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط , وإلى مضاعفة اليقظة , وإلى دوام الحذر , كي لا يأخذهم على غرة:

(إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) . .

ثم الإيقاع المؤثر الموحى بالتوقي . . إن الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . . ويا ويل من كان عدوه وليه ! إنه إذن يسيطر عليه ويستهو به ويقوده حيث شاء , بلا عون ولا نصير , ولا ولاية من الله:

(إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) . .

وإنها لحقيقة . . أن الشيطان ولي الذين لا يؤمنون , كما أن الله هو ولي المؤمنين . . وهي حقيقة رهبة , ولها نتائجها الخطيرة . . وهي تذكر هكذا مطلقة ; ثم يواجه بها المشركون كحالة واقعة ; فنرى كيف تكون ولاية الشيطان ; وكيف تفعل في تصورات الناس وحياتهم . . وهذا نموذج منها:

(وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) . .

وذلك ما كان يفعله ويقول به مشركو العرب ; وهم يزاولون فاحشة التعري في الطواف ببيت الله الحرام - وفيهم النساء ! - ثم يزعمون أن الله أمرهم بها . فقد كان أمر آباءهم بها ففعلوها , ثم هم ورثوها عن آبائهم ففعلوها !

وهم - على شركهم - لم يكونوا يتبححون تبجح الجاهليات الحديثة التي تقول: ما للدين وشؤون الحياة ? وتزعم أنها هي صاحبة الحق في اتخاذ الأوضاع والشرائع والقيم والموازين والعادات والتقاليد من دون الله ! إنما كانوا يفترون الفرية , ويشرعون الشريعة , ثم يقولون: الله أمرنا بها ! وقد تكون هذه خطة الأم وأخبت , لأنها تخدع الذين في قلوبهم بقية من عاطفة دينية ; فتوهمهم أن هذه الشريعة من عند الله . . ولكنها على كل حال أقل تبجحاً ممن يزعم أن له الحق في التشريع للناس بما يراه أصلح لأحوالهم من دون الله !

والله - سبحانه - يأمر نبيه [ص] أن يواجههم بالتكذيب لهذا الافتراء على الله ; وبتقرير طبيعة شرع الله وكرهته للفاحشة , فليس من شأنه سبحانه أن يأمر بها:

(قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء . اتقولون على الله ما لا تعلمون ?):

إن الله لا يأمر بالفحشاء إطلاقاً - والفاحشة: كل ما يفحش أي يتجاوز الحد - والعري من هذه الفاحشة , فالله لا يأمر به . وكيف يأمر الله بالاعتداء على حدوده ? والمخالفة عن أمره بالستر والحياء والتقوى ? ومن الذي أعلمهم بأمر الله ذاك ? إن أوامر الله وشرائعها ليست بالادعاء . إن أوامره وشرائعها واردة في كتبه على رسله . وليس هناك مصدر آخر يعلم منه قول الله وشرعه . وليس لإنسان أن يزعم عن أمر أنه من شريعة الله , إلا أن يستند إلى كتاب الله وإلى تبليغ رسول الله . فالعلم المستيقن بكلام الله هو

الذي يستند إليه من يقول في دين الله . . وإلا فأى فوضى يمكن أن تكون إذا قدم كل إنسان هواه , وهو يزعم أنه دين الله !!

إن الجاهلية هي الجاهلية . وهي دائماً تحتفظ بخصائصها الأصيلة . وفي كل مرة يرتد الناس إلى الجاهلية يقولون كلاماً متشابهاً ; وتسود فيهم تصورات متشابهة , على تباعد الزمان والمكان . . وفي هذه الجاهلية التي نعيش فيها اليوم لا يفتأ يطلع علينا كاذب مفتر يقول ما يمليه عليه هواه ثم يقول: شريعة الله ! ولا يفتأ يطلع علينا متبجح وقح ينكر أوامر الدين ونواهيه المنصوص عليها , وهو يقول: إن الدين لا يمكن أن يكون كذلك ! إن الدين لا يمكن أن يأمر بهذا ! إن الدين لا يمكن أن ينهى عن ذلك , . . وحجته هي هواه !!!

أقولون على الله ما لا تعلمون ? . .

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (30)

وبعد أن ينكر عليهم دعواهم في أن الله أمرهم بهذه الفاحشة , يبين لهم أن أمر الله يجري في اتجاه مصاد . . لقد أمر الله بالعدل والاعتدال في الأمور كلها لا بالفحش والتجاوز . وأمر بالاستقامة على منهج الله في العبادة والشعائر , والاستمداد مما جاء في كتابه على رسوله [ص] ولم يجعل المسألة فوضى , يقول فيها كل إنسان بهواه , ثم يزعم أنه من الله . وأمر بأن تكون الدينونة خالصة له , والعبودية كاملة ; فلا يدين أحد لأحد لذاته ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته:

(قل أمر ربي بالقسط , وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد , وادعوه مخلصين له الدين). . .

هذا ما أمر الله به , وهو يصاد ما هم عليه . . يصاد اتباعهم لآبائهم وللشرائع التي وضعها لهم عباد مثلهم , مع دعواهم أن الله أمرهم بها . . ويصاد العري والتكشف وقد امتن الله على بني آدم بأنه أنزل عليهم لباساً يوارى سواتهم وريشاً يتجملون به كذلك . . ويصاد هذا الشرك الذي يزاولونه , بازدواج مصادر التشريع لحياتهم ولعبادتهم . .

وعند هذا المقطع من البيان يجيء التذكير والإنذار ; ويلوِّح لهم بالمعاد إلى الله بعد انتهاء ما هم فيه من أجل مرسوم للابتلاء ; وبمشهدهم في العودة وهم فريقان: الفريق الذي اتبع أمر الله , والفريق الذي اتبع أمر الشيطان:

كما بدأكم تعودون: فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة , إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله , ويحسبون أنهم مهتدون . .

إنها لقطة واحدة عجيبة تجمع نقطة البدء في الرحلة الكبرى ونقطة النهاية . نقطة الانطلاق في البدء ونقطة المآب في الانتهاء:

(كما بدأكم تعودون). . .

وقد بدأوا الرحلة فريقين: آدم وزوجه . والشيطان وقبيله . . وكذلك سيعودون . . .
الطائعون سيعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأمهم حواء المسلمين المؤمنين بالله المتبعين
لأمر الله . . والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله , يملأ الله منهم جهنم , بولائهم لإبليس
وولايته لهم . وهم يحسبون أنهم مهتدون .

لقد هدى الله من جعل ولايته لله . وأضل من جعل ولايته للشيطان . . وهاهم أولاء
عائدين فريقين:

(فريقاً هدي وفريقاً حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله
وبحسبون أنهم مهتدون). ها هم أولاء عائدين . في لمحة تضم طرفي الرحلة ! على
طريقة القرآن , التي يتعذر أن تتحقق في غير أسلوب القرآن !

الدرس الثالث: 31 - 34 الأمر بالزينة الحلال والنهي عن الفواحش

ثم يتكرر النداء إلى (بني آدم) في هذه الوقفة كذلك ; قبل أن يتابع السياق الرحلة
المديدة ; في الطريق المرسوم:

(يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد , وكلوا واشربوا ولا تسرفوا , إنه لا يحب
المسرفين . قل: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ? قل: هي
للذين آمنوا في الحياة الدنيا , خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون .
قل: إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ; والإثم والبغي بغير الحق , وأن
تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً , وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون).

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ (31)

إنه التوكيد بعد التوكيد على الحقائق الأساسية للعقيدة , في مواجهة ما عليه المشركون
العرب في الجاهلية ; وذلك في سياق النداء إلى بني آدم كافة , وفي مواجهة قصة
البشرية الكبرى . .

وأظهر هذه الحقائق هو الربط بين ما يحرمونه من الطيبات التي أخرجها الله لعباده دون
إذن منه ولا شرع ; وبين الشرك الذي هو الوصف المباشر لمن يزاول هذا التحريم ,
ويقول على الله ما لا يعلم , ويزعم من ذلك ما يزعم .

إنه يناديهم أن يأخذوا زينتهم من اللباس الذي أنزله الله عليهم . وهو الرياش . عند كل
عبادة ; ومنها الطواف الذي يزاولونه عرايا , ويحرمون اللباس الذي لم يحرمه الله , بل
أنعم به على العباد . فأولى أن يعبدوه بطاعته فيما أنزل لهم , لا بخلعه ولا بالفحش الذي
يزاولونه:

(يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد).

ويناديهم كذلك ليتمتعوا بالطيبات من الطعام والشراب دون إسراف:

(وكلوا واشربوا ولا تسرفوا . إنه لا يحب المسرفين).

وقد ورد أنه كان هناك تحريم في الطعام كالتحريم في الثياب . وكان هذا من مبتدعات قريش كذلك !

في صحيح مسلم عن هشام عن عروة عن أبيه قال: " كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس , والحمس قريش وما ولدت . كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيتهم الحمس ثياباً , فيعطي الرجال الرجال , والنساء النساء . وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة ; وكان الناس يبلغون عرفات . ويقولون: نحن أهل الحرم , فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا , ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا . فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً , ولا يسأله يستأجره به كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عرياناً وإما أن يطوف في ثيابه , فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يسمى اللقى " . .

وجاء في تفسير القرطبي المسمى " أحكام القرآن ": " وقيل إن العرب في الجاهلية كانوا لا يأكلون دسماً في أيام حجهم , ويكتفون باليسير من الطعام , ويطوفون عراة . فقيل لهم: (خذوا زينتكم عند كل مسجد , وكلوا واشربوا , ولا تسرفوا) أي لا تسرفوا في تحريم ما لم يحرم عليكم " . . والإسراف يكون بتجاوز الحد , كما قد يكون بتحريم الحلال . كلاهما تجاوز للحد . هذا باعتبار , وذاك باعتبار .

ولا يكتفي السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد , وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب . بل يستنكر تحريم هذه الزينة التي أخرجها الله لعباده , وتحريم الطيبات من الرزق . فمن المستنكر أن يحرم أحد - برأيه - ما أخرج الله للناس من الزينة أو من الطيبات . فتحريم شيء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله:

(قل: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)?

ويتبع الاستنكار بتقرير أن هذه الزينة من اللباس , وهذه الطيبات من الرزق , هي حق للذين آمنوا - بحكم إيمانهم بربهم الذي أخرجها لهم - ولئن كان سواهم يشاركون فيها في هذه الدنيا , فهي خاصة لهم يوم القيامة لا يشاركون فيها الذين كفروا:

(قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا , خالصة يوم القيامة) . .

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34)

ولن يكون الشأن كذلك , ثم تكون محرمة عليهم ; فما يخصهم الله في الآخرة بشيء هو حرام !

(كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون).

والذين (يعلمون) حقيقة هذا الدين هم الذين ينتفعون بهذا البيان .

فأما الذي حرمه الله حقاً , فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس , وليس هو الطيب من الطعام والشراب - في غير سرف ولا مخيلة - إنما الذي حرمه الله حقاً هو الذي يزاولونه فعلاً !

(قل:إنما حرم ربي الفواحش - ما ظهر منها وما بطن - والإثم والبغي بغير الحق , وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً , وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون). .

هذا هو الذي حرمه الله . الفواحش من الأعمال المتجاوزة لحدود الله . ظاهرة للناس أو خافية . والإثم . وهو كل معصية لله على وجه الإجمال . والبغي بغير الحق . وهو الظلم الذي يخالف الحق والعدل - كما بينهما الله أيضاً - وإشراك ما لم يجعل الله به قوة ولا سلطاناً مع الله - سبحانه - في خصائصه . ومنه هذا الذي كان واقعاً في الجاهلية , وهو الواقع في كل جاهلية . من إشراك غير الله ليشرع للناس ; ويزاول خصائص الألوهية . وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . كالذي كانوا يقولونه من التحليل والتحریم . ومن نسبتهم هذا إلى أمر الله بغير علم ولا يقين . .

ومن عجيب ما روي من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ; ووجه إليهم هذا الإستنكار الوارد في قوله تعالى: (قل:من حرم زينة الله التي أخرج لعباده . .) ما رواه الكلبي قال:

" لما لبس المسلمون الثياب , وطاقوا بالبيت غيرهم المشركون بها . . فنزلت الآية . . "

فانظر كيف تصنع الجاهلية بأهلها ! ناس يطوفون ببيت الله عرايا ; فسدت فطرتهم وانحرفت عن الفطرة السليمة التي يحكيها القرآن الكريم عن آدم وحواء في الجنة: (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفاً عليهما من ورق الجنة). . فإذا رأوا المسلمين يطوفون بالبيت مكسوين , في زينة الله التي أنعم بها على البشر ; لإرادته بهم الكرامة والستر , ولتنمو فيهم خصائص فطرتهم الإنسانية في سلامتها وجمالها الفطري , وليتميزوا عن العري الحيواني . . الجسمي والنفسي . . إذا رأوا المسلمين يطوفون ببيت الله في زينة الله وفق فطرة الله "عبروهم" !

إنه هكذا تصنع الجاهلية بالناس . . هكذا تمسخ فطرتهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ! وماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس في هذا الأمر غير الذي فعلته بالناس في جاهلية المشركين العرب ? وجاهلية المشركين الإغريق ? وجاهلية المشركين الرومان ? وجاهلية المشركين الفرس ? وجاهلية المشركين في كل زمان وكل مكان ?!

ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تعريهم من اللباس , وتعريهم من التقوى والحياء ? ثم تدعو هذا رقىاً وحضارة وتجديداً ; ثم تعير الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات , بأنهن "رجعيات" . "تقليديات" . "ريفيات" !

المسخ هوالمسخ . والانتكاس عن الفطرة هو الانتكاس . وانقلاب الموازين هو انقلاب الموازين . والتبجح بعد ذلك هو التبجح . (أتواصوا به ? بل هم قوم طاغون !).

وما الفرق كذلك في علاقة هذا العري , وهذا الانتكاس , وهذه البهيمية , وهذا التبجح , بالشرك , وبالآرباب التي تشرع للناس من دون الله ?

لئن كان مشركو العرب قد تلقوا في شأن ذلك التعري من الأرباب الأرضية التي كانت تستغل جهالتهم وتستخف بعقولهم , لضمان السيادة لها في الجزيرة . . ومثلهم بقية الجاهليات القديمة التي تلقت من الكهنة والسدنة والرؤساء . . فإن مشركي اليوم ومشركاته يتلقون في هذا عن الأرباب الأرضية كذلك . . ولا يملكون لأمرهم رداً . .

إن بيوت الأزياء ومصمميها , وأساتذة التجميل ودكاكينها , لهي الأرباب التي تكمن وراء هذا الخبل الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك ! إن هذه الأرباب تصدر أوامرها , فتطيعها القطعان والبهائم العارية في أرجاء الأرض طاعة مزرية ! وسواء كان الزي الجديد لهذا العام يناسب قوام أية امرأة أو لا يناسبه , وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح , فهي تطيع صاغرة . . تطيع تلك الأرباب . وإلا "عيرت" من بقية البهائم المغلوبة على أمرها !

ومن ذا الذي يقبع وراء بيوت الأزياء ? ووراء دكاكين التجميل ? ووراء سعار العري والتكشيف ? ووراء الأفلام والصور والروايات والقصص , والمجلات والصحف , التي تقود هذه الحملة المسعورة . . وبعضها يبلغ في هذا إلى حد أن تصبح المجلة أو القصة ماخوراً متنقلاً للدعارة !?

من الذي يقبع وراء هذا كله ?

الذي يقبع وراء هذه الأجهزة كلها , في العالم كله . . يهود . .

يهود يقومون بخصائص الربوبية على البهائم المغلوبة على أمرها ! ويبلغون أهدافهم كلها من إطلاق هذه الموجات المسعورة في كل مكان . . أهدافهم من تلهية العالم كله بهذا السعار ; وإشاعة الانحلال النفسي والخلقي من ورائه , وإفساد الفطرة البشرية , وجعلها العوبة في أيدي مصممي الأزياء والتجميل ! ثم تحقيق الأهداف الاقتصادية من وراء الإسراف في استهلاك الأقمشة وأدوات الزينة والتجميل وسائر الصناعات الكثيرة التي تقوم على هذا السعار وتغذيه !

إن قضية اللباس والأزياء ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة . . ومن ثم ذلك الربط بينها وبين قضية الإيمان والشرك في السياق .

أنها ترتبط بالعقيدة والشريعة بأسباب شتى:

إنها تتعلق قبل كل شيء بالربوبية , وتحديد الجهة التي تشرع للناس في هذه الأمور , ذات التأثير العميق في الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة .

كذلك تتعلق بإبراز خصائص "الإنسان" في الجنس البشري , وتغليب الطابع "الإنساني" في هذا الجنس على الطابع الحيواني .

والجاهلية تمسح التصورات والأذواق والقيم والأخلاق . وتجعل العري - الحيواني - تقدماً ورقياً . والستر - الإنساني - تأخراً ورجعية ! وليس بعد ذلك مسخ لفطرة الإنسان وخصائص الإنسان .

وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون: ما للدين والزي ? ما للدين وملابس النساء ? ما للدين والتجميل ? . . إنه المسخ الذي يصيب الناس في الجاهلية في كل زمان وفي كل مكان !!!

ولأن هذه القضية التي تبدو فرعية , لها كل هذه الأهمية في ميزان الله وفي حساب الإسلام , لارتباطها أولاً بقضية التوحيد والشرك ; ولارتباطها ثانياً بصلاح فطرة الإنسان وخلقته ومجتمعه وحياته , أو بفساد هذا كله . . فإن السياق يعقب عليها بإيقاع قوي مؤثر ; يوقع به عادة في مواقف العقيدة الكبيرة . . إنه يعقب بتنبية بني آدم , إلى أن بقاءهم في هذه الأرض محدود مرسوم ; وأنه إذا جاء الأجل فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون:

(ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون).

إنها حقيقة أساسية من حقائق هذه العقيدة , يوقع بها السياق على أوتار القلوب الغافلة - غير الذاكرة ولا الشاكرة - لتستيقظ , فلا يغرها امتداد الحياة !

والأجل المضروب إما أجل كل جيل من الناس بالموت المعروف الذي يقطع الحياة . وإما أجل كل أمة من الأمم بمعنى الأمد المقدر لقوتها في الأرض واستخلافها . . وسواء هذا الأجل أو ذاك فإنه مرسوم لا يتقدمون عنه ولا يستأخرون .

تعقيب على الوحدة: بين الأنعام والأعراف

وقبل أن نترك هذه الجولة نسجل ما لا حظناه من التشابه العجيب في مواجهة المنهج القرآني للجاهلية في شأن الذبائح والنذور والتحليل فيها والتحرير - في سورة الأنعام - ومواجهته للجاهلية - هنا في شأن اللباس والطعام . .

ففي شأن الذبائح والنذور في الأنعام والثمار , بدأ أولاً بالحديث عما تزاوله الجاهلية فعلاً من هذه التقاليد ; وعما تزعمه - افتراء على الله - من أن هذا الذي تزاوله هو من شرع الله . ثم طلب إليهم الدليل الذي يستندون إليه في أن الله حرم هذا الذي يحرمونه , وأحل هذا الذي يحلونه: (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا , فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ? إن الله لا يهدي القوم الظالمين). . ثم واجه هروبهم من هذه المواجهة بإحالة الأمر إلى قدر الله وإلى أمره لهم بهذا الشرك الممثل في مزاوله الحاكمية وهي من خصائص الألوهية: (سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ! كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ? إن تتبعون إلا الظن , وإن أنتم إلا تخرصون: قل: فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل: هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم , ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون). . حتى إذا انتهى من تنفيذ هذا الباطل الذي يدعونه ويفترونه , قال لهم: تعالوا لأبين لكم حقيقة ما حرم الله عليكم وحقيقة ما أمركم به: عن المصدر الصحيح الوحيد المعتمد في هذا الشأن ; والذي لا يجوز الأخذ عن غيره: قل: تعالوا أتله ما حرم ربكم عليكم , ألا تشركوا به شيئاً . . الخ . .

وهنا كذلك سار على نفس النسق , وعلى ذات الخطوات . . ذكر ما هم عليه من فاحشة العري ومن الشرك في مزاوله الحاكمية في التحريم والتحليل في اللباس والطعام . وحذرهم ما هم عليه من الفاحشة والشرك , وذكرهم مأساة العري التي واجهها أبواهما في الجنة بفعل الشيطان وكيده ; ونعمة الله عليهم في إنزال اللباس والرياش . . ثم استنكر دعواهم أن ما يزاولونه من التحريم والتحليل هو من شرع الله وأمره: (قل: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا . خالصة يوم القيامة . كذلك نفضل الآيات لقوم يعلمون). . مشيراً هنا إلى العلم اليقيني لا الظن والخرص الذي يبنون عليه دينهم وشعائرتهم وعباداتهم وشرائعهم . .

حتى إذا أبطل دعواهم فيما يزاولون عاد ليقرر لهم ما حرمه ربهم عليهم فعلاً: (قل إنما حرم ربي الفواحش - ما ظهر منها وما بطن - والإثم والبغي بغير الحق , وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً , وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون). . كما أنه قد بين لهم من قبل حقيقة ما أمر الله به في شأن اللباس والطعام - لا ما يدعونهم وينسبونهم (إلى الله - : يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا , إنه لا يحب المسرفين) . .

وفي كلتا المواجهتين علق القضية كلها بقضية الإيمان والشرك . لأنها في صميمها هي قضية الحاكمية , ومن الذي يزاولها في حياة البشر . وقضية عبودية الناس ولمن تكون !

ذات القضية , وذات المنهج في مواجهتها . وذات الخطوات وصدق الله العظيم: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وهذه الوحدة في المنهج تبدو أهميتها ويزداد بروزها حين نذكر طبيعة سورة الأنعام وطبيعة سورة الأعراف والمجالين المختلفين اللذين تعالجان فيهما قضية العقيدة . . فإن اختلاف المجال لم يمنع وحدة المنهج في مواجهة الجاهلية في القضايا الأساسية وسبحان منزل هذا القرآن ! . .

الوحدة الرابعة: 35 - 53 الموضوع: الإستجابة للرسول وعدمها والإفتراق يوم القيامة: وما يجري على الأعراف

مقدمة الوحدة

الآن بعد تلك الوقفة الطويلة للتعقيب على قصة النشأة الأولى ; ومواجهة واقع الجاهلية العربية - وواقع الجاهلية البشرية كلها من ورائها - في شأن ستر الجسم باللباس وستر الروح بالتقوى ; وعلاقة القضية كلها بقضية العقيدة الكبرى . . .

الآن يبدأ نداء جديد لبني آدم نداء بشأن القضية الكلية التي ربطت بها قضية اللباس في الوقفة السابقة . . . قضية التلقي والاتباع في شعائر الدين وفي شرائعه , وفي أمر الحياة كلها وأوضاعها . وذلك لتحديد الجهة التي يتلقون منها . . إنها جهة الرسل المبلغين عن ربهم . وعلى أساس الاستجابة أو عدم الاستجابة للرسول يكون الحساب والجزاء , في نهاية الرحلة التي يعرضها السياق في هذه الجولة:

يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَتَالَهَمُ تَصْيِبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (37) قَالِ ادْخُلُوا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هِيَ أَوْلَىٰ أَصْلَابَنَا فَآتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ قَدْ وَفَوْا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)

الدرس الأول: 35 - 36 دعوة الرسل واختلاف الناس فيها

أبويهم من الجنة , وتحذيرهم من اتباع عدوهم القديم فيما يوحي به إليهم ويوسوس , وتهديدهم بتولية الشيطان لهم إن هم اختاروا اتباعه على اتباع ما سيرسل به الرسل إليهم من الهدى والشريعة . . ثم يأخذ في عرض مشهد الاحتضار , ومشاهد القيامة - وكانها تالية له بلا فاصل من الزمان ! - فإذا الذي يقع فيها مصداق ما ينبيء به هؤلاء الرسل , وإذا الذين يطيعون الشيطان قد حرموا العودة إلى الجنة , وفتنوا عنها كما أخرج أبويهم منها . وإذا الذين خالفوا الشيطان فأطاعوا الله , قد ردوا إلى الجنة , ونودوا من الملائكة الأعلى: (أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون). . فكأنما هي أوبة المهاجرين , وعودة المغترين , إلى دار النعيم !

وفي هذا التناسق بين القصة السابقة والتعقيبات عليها , ومشاهد القيامة اللاحقة من مبدئها إلى منتهاها من الجمال ما فيه . فهي قصة تبدأ في الملائكة الأعلى , على مشهد من الملائكة - يوم أن خلق الله آدم وزوجه وأسكنهما الجنة , فدلاهما الشيطان عن مرتبة الطاعة والعبودية الكاملة الخالصة , وأخرجهما من الجنة - وتنتهي كذلك في الملائكة الأعلى على مشهد من الملائكة . . فيتصل البدء بالنهاية . وبضمان بينهما فترة الحياة الدنيا ومشهد الاحتضار في نهايتها . وهو يتسق في الوسط مع البدء والنهاية كل الاتساق .

والآن نأخذ في استعراض هذه المشاهد العجيبة:

الدرس الثاني: مشهد إحتضار الكفار

ها نحن أولاء أمام مشهد الاحتضار . احتضار الذين افتروا على الله الكذب , فزعموا أن ما ورثوه عن آبائهم من التصورات والشعائر , وما شرعوه هم لأنفسهم من التقاليد والأحكام , أمرهم به الله , والذين كذبوا بآيات الله التي جاءهم بها الرسل - وهي شرع الله المستيقن - وأثروا الظن والحرص على اليقين والعلم . وقد نالوا نصيبهم من متاع الدنيا الذي كتب لهم , ومن فترة الابتلاء التي قدرها الله , كما نالوا نصيبهم من آيات الله التي أرسل بها رسله وأبلغهم الرسل نصيبهم من الكتاب:

فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياتنا ? أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب , حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم , قالوا: أين ما كنتم تدعون من دون الله ? قالوا: ضلوا عنا , وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . .

ها نحن أولاء أمام مشهد هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً أو كذبوا بآياته ; وقد جاءتهم رسل ربهم من الملائكة يتوفونهم , ويقبضون أرواحهم . فدار بين هؤلاء وهؤلاء حوار:

(قالوا: أين ما كنتم تدعون من دون الله ?) . .

أين دعاويكم التي افترتكم على الله ? وأين آلهتكم التي توليتم في الدنيا , وفتنتم بها عما جاءكم من الله على لسان الرسل ? أين هي الآن في اللحظة الحاسمة التي تسلب منكم فيها الحياة ; فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يؤخركم ساعة عن الميقات الذي أجله الله ?

ويكون الجواب هو الجواب الوحيد , الذي لا معدى عنه , ولا مغالطة فيه:

(قالوا: ضلوا عنا)!

غابوا عنا وتاهوا ! فلا نحن نعرف لهم مقراً , ولا هم يسلكون إلينا طريقاً ! . . فما أضيع
عباداً لا تهتدي إليهم آلهتهم , ولا تسعفهم في مثل هذه اللحظة الحاسمة ! وما أخيب
آلهة لا تهتدي إلى عبادها . في مثل هذا الأوان !

(وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . .

وكذلك شهدناهم من قبل في سياق السورة عندما جاءهم بأس الله في الدنيا:(فما كان
دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا:إنا كنا ظالمين)!

الدرس الثالث:38 - 44 بين المؤمنين والكفار يوم القيامة

فإذا انتهى مشهد الاحتضار , فنحن أمام المشهد التالي , وهؤلاء المحتضرون في النار ! .
ويسكت السياق عما بينهما , ويسقط الفترة بين الموت والبعث والحشر . وكانما يؤخذ
هؤلاء المحتضرون من الدار إلى النار !

(قال:ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار , كلما دخلت أمة
لعنت أختها , حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أوراهاهم لأولاهاهم:ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم
عذاباً ضعفاً من النار . قال:لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأوراهاهم فما
كان لكم علينا من فضل , فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون).

(ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار).

انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن والإنس . . هنا في النار . . أليس إبليس هو
الذي عصى ربه ? وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه ? وهو الذي أغوى من أغوى من
أبنائه ? وهو الذي أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار ? . . فادخلوا إذن جميعاً
. . ادخلوا سابقين ولاحقين . . فكلكم أولياء . . وكلكم سواء !

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ;
ويملي متبوعها لتابعها . . فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها , وكيف يكون التناز
فيها:

(كلما دخلت أمة لعنت أختها)!

فما أبأسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه ; ويتنكر فيها الولي لمولاه !

(حتى إذا ادركوا فيها جميعاً) . .

وتلاحق آخرهم وأولهم , واجتمع قاصيهم بدانيهم , بدأ الخصام والجدال:

(قالت أوراهاهم لأولاهاهم , ربنا هؤلاء أضلونا , فآتهم عذاباً ضعفاً من النار) . .

وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم ! ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء , وهم
متناكرون أعداء ; يتهم بعضهم بعضاً , ويلعن بعضهم بعضاً , ويطلب له من(ربنا)شر
الجزاء . . من(ربنا)الذي كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته ; وهم اليوم ينيبون إليه وحده
ويتوجهون إليه بالدعاء ! فيكون الجواب استجابة للدعاء . ولكن أية استجابة ?!

(قال: لكل ضعف , ولكن لا تعلمون).

لكم ولهم جميعاً ما طلبتم من مضاعفة العذاب !

وكأنما شمت المدعو عليهم بالداعين , حينما سمعوا جواب الدعاء , فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة . . كلنا سواء . . في هذا الجزاء:

(وقالت أولاهم لأخراهم: فما كان لكم علينا من فضل . فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون)!

وبهذا ينتهي ذلك المشهد الساخر الأليم , ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذي لن يتبدل - وذلك قبل عرض المشهد المقابل للمؤمنين في دار النعيم :-

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42)

(إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء , ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط , وكذلك نجزي المجرمين . لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش , وكذلك نجزي الظالمين) . .

ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب . . مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة . فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير , فانتظر حينئذ - وحينئذ فقط - أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين , فتقبل دعاءهم أو توبتهم - وقد فات الأوان - وأن يدخلوا إلى جنات النعيم ! أما الآن , وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط , فهم هنا في النار , التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا ; وتلاوموا فيها وتلاعنوا , وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء , ونالوا جميعاً ما طلبه الأولياء للأولياء !

(وكذلك نجزي المجرمين) . .

ثم إليك هيئتهم في النار:

(لهم من جهنم مهاد , ومن فوقهم غواش) . .

فلهم من نار جهنم من تحتهم فراش , يدعوه - للسخرية - مهاداً , وما هو مهد ولا لين ولا مريح ! - ولهم من نار جهنم أغطية تغشاهم من فوقهم !

(وكذلك نجزي الظالمين) . .

والظالمون هم المجرمون . والظالمون هم المشركون المكذبون بآيات الله , المفترون الكذب على الله . . كلها أوصاف مترادفة في تعبير القرآن .

والآن فلننظر إلى المشهد المقابل:

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات - لا نكلف نفساً إلا وسعها - أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما في صدورهم من غل , تجري من تحتهم الأنهار , وقالوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا - وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله - لقد جاءت رسلنا بالحق . ونودوا: أن تلکم الجنة أو رثتموها بما كنتم تعملون) . .

هؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم , لا يكلفون إلا طاقتهم . . هؤلاء هم يعودون إلى جنتهم ! إنهم أصحابها - بإذن الله وفضله - ورثها لهم - برحمته - بعملهم الصالح مع الإيمان . . جزاء ما اتبعوا رسل الله وعصوا الشيطان . وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم , وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم ! ولولا رحمة الله ما كفى عملهم - في حدود طاقتهم - وقد قال رسول الله [ص] " لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله " . قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل " . وليس هنالك تناقض ولا اختلاف بين قول الله سبحانه في هذا الشأن , وقول رسوله [ص] وهو لا ينطق عن الهوى . . وكل ما ثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرق الإسلامية لم يقم على الفهم الصحيح لهذا الدين , إنما ثار عن الهوى ! فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفي أعمالهم بحق الجنة . ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا . فكتب على نفسه الرحمة ; وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف ; وكتب لهم به الجنة , فضلاً منه ورحمة , فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة . .

وبعد , فإذا كان أولئك المفترون المكذبون المجرمون الظالمون الكافرون المشركون يتلاعنون في النار

وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) وَتَأْتِي أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45)

وبتخاصمون , وتغلي صدورهم بالسخائم والأحقاد , بعد أن كانوا أصفياء أولياء . . فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إخوان متحابون متصافون متوادون , يرف عليهم السلام والولاء:

(ونزعنا ما في صدورهم من غل) . .

فهم بشر . وهم عاشوا بشراً . وقد يثور بينهم في الحياة الدنيا غيظ يكظمونه , وغل يغالبونه ويغلبونه . . ولكن تبقى في القلب منه آثار .

قال القرطبي في تفسيره المسمى أحكام القرآن: قال رسول الله - [ص]: " الغل على أبواب الجنة كمبارك الإبل قد نزع الله من قلوب المؤمنين " . . وروي عن علي - رضي الله عنه - أنه قال: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: (ونزعنا ما في صدورهم من غل) . .

وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم . فأهل الجنة تجري من تحتهم
الأنهار ; فترف على الجو كله أنسام:

(تجري من تحتهم الأنهار) . .

وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنازع والخصام , فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف:

(وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا , وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله , لقد جاءت رسل
ربنا بالحق) . . وإذا كان أولئك ينادون بالتحقير والتأنيب: (ادخلوا في أمم قد خلت من
قبلكم من الجن والإنس في النار) . . فإن هؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم:

(ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) . .

إنه التقابل التام بين أصحاب الجنة وأصحاب النار .

ثم يستمر العرض , فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق . . لقد اطمأن أصحاب
الجنة إلى دارهم ; واستيقن أصحاب النار من مصيرهم . وإذا الأولون ينادون الآخرين ,
يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم:

(ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار: أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً , فهل وجدتم ما وعد
ربكم حقاً ? قالوا: نعم ! فأذن مؤذن بينهم: أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون
عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون) . .

وفي هذا السؤال من السخرية المرة ما فيه . . إن المؤمنين على ثقة من تحقق وعيد
الله كنفقتهم من تحقق وعده . ولكنهم يسألون !

ويجيء الجواب في كلمة واحدة . . نعم . . !

وعندئذ ينتهي الجواب , ويقطع الحوار:

(فأذن مؤذن بينهم: أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها
عوجاً , وهم بالآخرة كافرون) . .

فيتحدد معنى (الظالمين) المقصود . وهو مرادف لمعنى (الكافرين) . فهم الذين يصدون
عن سبيل الله , ويريدون الطريق عوجاً لا استقامة فيه , وهم بالآخرة كافرون .

وفي هذا الوصف: (ويبغونها عوجاً) . . إحياء بحقيقة ما يريد الذين يصدون عن سبيل
الله . إنهم يريدون

وَيَبْتَغِيهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَتَادِيُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) وَتَادِي أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ
بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَعْنَى عِنْدَكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهْلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ
لَا يَتَّالَهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49)

الطريق العوجاء ; ولا يريدون الطريق المستقيم . يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة . فالاستقامة لها صورة واحدة: صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه . وكل ما عداه فهو أعوج ; وهو إرادة للعوج . وهذه الإرادة تلتقي مع الكفر بالآخرة . فما يؤمن بالآخرة أحد , ويستيقن أنه راجع إلى ربه ; ثم يصد عن سبيل الله , ويحيد عن نهجه وشرعه . . وهذا هو التصوير الحقيقي لطبيعة النفوس التي تتبع شرعاً غير شرع الله . التصوير الذي يجلو حقيقة هذه النفوس ويصفها الوصف الداخلي الصحيح .

الدرس الرابع: 46 - 49 كلام أصحاب الأعراف لأصحاب الجنة وأصحاب النار

ثم يتوجه النظر إلى المشهد من ظاهره . فإذا هنالك حاجز يفصل بين الجنة والنار ; عليه رجال يعرفون أصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم وعلاماتهم . . فلننظر من هؤلاء , وما شأنهم مع أصحاب الجنة وأصحاب النار ?

(وبينهما حجاب , وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم . ونادوا أصحاب الجنة: أن سلام عليكم . . لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم , قالوا: ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ? ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) . .

روي أن هؤلاء الرجال الذين يقفون على الأعراف - الحجاب الحاجز بين الجنة والنار - جماعة من البشر , تعادلت حسناتهم وسيئاتهم , فلم تصل بهم تلك إلى الجنة مع أصحاب الجنة , ولم تؤد بهم هذه إلى النار مع أصحاب النار . . وهم بين بين , ينتظرون فضل الله ويرجون رحمته . . وهم يعرفون أهل الجنة بسيماهم - ربما بياض الوجوه ونضرتها أو بالنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيامانهم - ويعرفون أهل النار بسيماهم - ربما بسواد الوجوه وقترتها , أو بالوسم الذي على أنوفهم التي كانوا يشمخون بها في الدنيا , كالذي جاء في سورة القلم: (سنسمه علي الخرطوم)! وها هم أولاء يتوجهون إلى أهل الجنة بالسلام . . يقولونها وهم يطمعون أن يدخلهم الله الجنة معهم ! . . فإذا وقعت أبصارهم على أصحاب النار - وكانما يصرفون إليهم صرفاً لا عن إرادة منهم - استعاذوا بالله أن يكون مصيرهم معهم !

(وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم . ونادوا أصحاب الجنة: أن سلام عليكم . . لم يدخلوها وهم يطمعون . . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) . .

ثم يبصرون برجال من كبار المجرمين معروفين لهم بسيماهم . فيتجهون إليهم بالتبكيك والتأنيب: (ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم , قالوا: ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون)!

فها أنتم هؤلاء في النار , لا جمعكم نفعكم , ولا استكباركم أغنى عنكم !

ثم يذكرونهم بما كانوا يقولونه عن المؤمنين في الدنيا من أنهم ضالون , لا ينالهم الله برحمة:

(هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة !)

انظروا الآن أين هم ? وماذا قيل لهم:

(ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون).. .

الدرس الخامس: 50 - 53 حرمان الكفار من النعيم وتسجيل جرائمهم

وأخيراً . ها نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من قبل النار , ملؤه الرجاء والاستجداء:

(ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله)!

وَيَادَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أ_Fِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا قَالِيَوْمَ تَنْسَاهُمْ كَمَا تَسُوبُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (51) وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53)

وها نحن أولاء نلتفت إلى الجانب الآخر نسمع الجواب ملؤه التذكير الأليم المرير:

(قالوا: إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرثهم الحياة الدنيا).. .

ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى , لينطق رب العزة والجلالة , وصاحب الملك والحكم:

(فالיום ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا . وما كانوا بآياتنا يجحدون . ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم , هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ? يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسلنا بالحق , فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا , أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل . قد خسروا أنفسهم , وصل عنهم ما كانوا يفترون).. .

وهكذا تتوالى صفحات المشهد جيئة وذهوباً . . لمحة في الآخرة ولمحة في الدنيا . لمحة مع المعذبين في النار , المنسيين كما نسوا لقاء يومهم هذا وكما جحدوا بآيات الله , وقد جاءهم بها كتاب مفصل مبين . فصله الله - سبحانه - على علم - فتركوه واتبعوا الأهواء والأوهام والظنون . . ولمحة معهم - وهم بعد في الدنيا - ينتظرون مال هذا الكتاب وعاقبة ما جاءهم فيه من النذير ; وهم يُحذِّرون أن يجيئهم هذا المال . فالمال هو ما يرون في هذا المشهد من واقع الحال !

إنها خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض ; لا يجليها هكذا إلا هذا الكتاب العجيب !

وهكذا ينتهي ذلك الاستعراض الكبير ; وبجيء التعقيب عليه متناسقاً مع الابتداء . تذكيراً بهذا اليوم ومشاهدته , وتحذيراً من التكذيب بآيات الله ورسوله , ومن انتظار تأويل هذا الكتاب فهذا هو تأويله , حيث لا فسحة لتوبة , ولا شفاعة في الشدة , ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

نعم . . هكذا ينتهي الاستعراض العجيب . فنفيق منه كما نفيق من مشهد أخذ كنا نراه .
ونعود منه إلى هذه الدنيا التي فيها نحن ! وقد قطعنا رحلة طويلة طويلة في الذهاب
والمجيء !

إنها رحلة الحياة كلها , ورحلة الحشر والحساب والجزاء بعدها . . ومن قبل كنا مع
البشرية في نشأتها الأولى , وفي هبوطها إلى الأرض وسيرها فيها !

وهكذا يرتاد القرآن الكريم بقلوب البشر هذه الآماد والأكوان والأزمان . يريها ما كان وما
هو كائن وما سيكون . . كله في لمحات . . لعلها تتذكر , ولعلها تسمع للندير:

(كتاب أنزل إليك , فلا يكن في صدرك حرج منه , لتتذرب به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما
أنزل إليكم من ربكم , ولا تتبعوا من دونه أولياء , قليلاً ما تذكرون) . .

الوحدة الخامسة: 54 - 58 الموضوع: عرض الآيات في الأنفس والآفاق على الربوبية
والألوهية مقدمة الوحدة

بعد تلك الرحلة الواسعة الآماد , من المنشأ إلى المعاد , يأخذ السياق بأيدي البشر إلى
رحلة أخرى في ضمير الكون , وفي صفحته المعروضة للأنظار . فيعرض قصة خلق
السماوات والأرض بعد قصة خلق الإنسان . ويوجه الأبصار والبصائر إلى مكونات هذا
الكون وأسواره , وإلى ظواهره وأحواله - إلى الليل الذي يطلب النهار في ذلك الفلك
الدوار . وإلى الشمس والقمر والنجوم وهن مسخرات بأمر الله . وإلى الرياح الدائرة
في الجواء , نقل السحاب إلى البلد الميت - بإذن الله - فإذا هو حي , وإذا الموات يؤتي
من كل الثمرات .

هذه السبحات في ملكوت الله , يرتادها السياق بعد قصة النشأة الإنسانية ; وبعد تصوير
طرفي الرحلة ; وبعد الحديث عن اتباع الشيطان والاستكبار عن اتباع رسل الله ; وبعد
عرض التصورات الجاهلية والتقاليد التي يشرعها البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا
شرع . . يرتاد السياق هذه السبحات ليرد البشر إلى ربهم , الذي خلق هذا الوجود
وسخره , والذي يحكمه بنواميسه ويصرفه بقدره , والذي له الخلق والأمر وحده . .

إنه الإيقاع القوي العميق بعبودية الوجود كلها لبارئه , والذي يبدو استكبار الإنسان فيه
عن هذه العبودية نشازاً في الوجود , يجعل الناشز غربياً شائهاً في الوجود .

وفي ظل تلك المشاهد ; وفي مواجهة هذا الإيقاع يدعوهم:

(ادعوا ربكم تضرعاً وخفية , إنه لا يحب المعتدين , ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ,
وادعوه خوفاً وطمعاً , إن رحمة الله قريب من المحسنين) . .

إن إخلاص الدين لله , وتقرير عبودية البشر له , إن هي إلا فرع من إسلام الوجود كله ,
وعبودية الوجود كله لسلطانه . . وهذا هو الإيحاء الذي يستهدف المنهج القرآني تقريره
وتعميقه في القلب البشري . . وأيما قلب أو عقل يتجه بوعي ويقظة إلى هذا الكون
ونواميسه المستسرة , وظواهره الناطقة بتلك النواميس المستسرة . . لا بد يستشعر
تأثيراً لا يرد سلطانه ; ولا بد يهتز من أعماقه بالشعور القاهر بوجود المدبر المقدر
صاحب الخلق والأمر . . وهذه هي الخطوة الأولى لدفع هذا القلب إلى الاستجابة لداعي
الله ; والاستسلام لسلطانه الذي يستسلم له هذا الوجود كله ولا يتخطاه .

ومن ثم يتخذ المنهج القرآني من هذا الوجود مجاله الأول لتجلية حقيقة الألوهية ; وتعبيد البشر لربهم وحده , وإشعار قلوبهم وكيانهم كله حقيقة العبودية , وتذوق طعمها الحقيقي في استسلام الواثق المطمئن ; الذي يستشعر أن كل ما حوله وكل من حوله من خلق الله , يتجاوب وإياه !

إنه ليس البرهان العقلي وحده هو الذي يستهدفه المنهج القرآني باستعراض عبودية الوجود لله , وتسخيره بأمره , واستسلام هذا الوجود في طواعية ويسر ودقة وعمق لأمره وحكمه . . إنما هو مذاق آخر - وراء

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)

البرهان العقلي ومع هذا البرهان العقلي - مذاق المشاركة مع الوجود والتجاوب . ومذاق الطمأنينة واليسر ; والانسياق مع موكب الايمان الشامل .

إنه مذاق العبودية الراضية , التي لا يسوقها القسر , ولا يحركها القهر . . إنما تحركها - قبل الأمر والتكليف - عاطفة الود والطمأنينة والتناسق مع الوجود كله . . فلا تفكر في التهرب من الأمر , ولا التفلت من القهر ; لأنها إنما تلبى حاجتها الفطرية في الاستسلام الجميل المريح . . الاستسلام لله الذي يرفع الجباه عن الدينونة لغيره أو العبودية لسواه . الاستسلام الرفيع الكريم لرب العالمين . .

هذا الاستسلام هو الذي يمثل معنى الإيمان , ويعطيه طعمه ومذاقه . . وهذه العبودية هي التي تحقق معنى الإسلام , وتعطيه حيويته وروحه . . وهي هي القاعدة التي لا بد أن تقام وتستقر , قبل التكليف والأمر ; وقبل الشعائر والشرائع . . ومن ثم هذه العناية الكبرى بإنشائها وتقريرها وتعميقها وتثبيتها في المنهج القرآني الحكيم . .

الدرس الأول: 54 الخلق والأمر بيد الله وحده

(إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً , والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . أله الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين) . .

إن عقيدة التوحيد الإسلامية , لا تدع مجالاً لأي تصور بشري عن ذات الله سبحانه ; ولا عن كيفية أفعاله . . فالله سبحانه ليس كمثل شيء . . ومن ثم لا مجال للتصور البشري لينشأ صورة عن ذات الله . فكل التصورات البشرية إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء . فإذا كان الله - سبحانه - ليس كمثل شيء , توقف التصور البشري إطلاقاً عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى . ومتى توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته العلية فإنه يتوقف تبعاً لذلك عن تصور كيفية أفعاله جميعاً . ولم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله . . وهذا هو مجاله . .

ومن ثم تصبح أسئلة كهذه: كيف خلق الله السماوات والأرض ? كيف استوى على العرش ? كيف هذا العرش الذي استوى عليه الله سبحانه ?! . . تصبح هذه الأسئلة

وأمثالها لغوا يخالف توجيهها قاعدة الاعتقاد الإسلامي . أما الإجابة عليها فهي اللغو الأشد الذي لا يزاوله من يدرك تلك القاعدة ابتداءً ! ولقد خاضت الطوائف - مع الأسف - في هذه المسائل خوفاً شديداً في تاريخ الفكر الإسلامي , بالعدوى الوافدة على هذا الفكر من الفلسفة الإغريقية !

فأما الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض , فهي كذلك غيب لم يشهده أحد من البشر ولا من خلق الله جميعاً: ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم . . وكل ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مستيقن .

إنها قد تكون ست مراحل . وقد تكون ستة أطوار . وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لاتقاس بمقاييس زماننا الناشئ من قياس حركة الأجرام - إذ لم تكن قبل الخلق هذه الأجرام التي نقيس نحن بحركتها الزمان ! . . وقد تكون شيئاً آخر . . فلا يجزم أحد ماذا يعني هذا العدد على وجه التحديد . . وكل حمل لهذا النص ومثله على "تخمينات" البشرية التي لا تتجاوز مرتبة الفرض والظن - باسم "العلم" ! - هو محاولة تحكيمية , منشؤها الهزيمة الروحية أمام "العلم" الذي لا يتجاوز في هذا المجال درجة الظنون والفروض !

ونخلص نحن من هذه المباحث التي لا تضيف شيئاً إلى هدف النص ووجهته . لنرتاد مع النصوص الجميلة تلك الرحلة الموحية في أقطار الكون المنظور , وفي أسراره المكنونة:

(إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً , والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين) . .

إن الله الذي خلق هذا الكون المشهود في ضخامته وفخامته . والذي استعلى على هذا الكون يدبره بأمره ويصرفه بقدره . يُغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً . . في هذه الدورة الدائبة: دورة الليل يطلب النهار في هذا الفلك الدوار . والذي جعل الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . . إن الله الخالق المهيمن المصرف المدبر , هو(ربكم) . . هو الذي يستحق أن يكون رباً لكم . يربيكم بمنهجه , ويجمعكم بنظامه , ويشرع لكم بإذنه , ويقضي بينكم بحكمه . . إنه هو صاحب الخلق والأمر . . وكما أنه لا خالق معه . فكذلك لا أمر معه . . هذه هي القضية التي يستهدفها هذا الاستعراض . . قضية الألوهية والربوبية والحاكمية , وإفراد الله سبحانه بها . . وهي قضية العبودية من البشر في شريعة حياتهم . فهذا هو الموضوع الذي يواجهه سياق السورة ممثلاً في مسائل اللباس والطعام . كما كان سياق سورة الأنعام يواجهه كذلك في مسائل الأنعام والزروع والشعائر والندور .

ولا ينسينا الهدف العظيم الذي يستهدفه السياق القرآني بهذا الاستعراض , أن نقف لحظات أمام روعة المشاهد وحيويتها وحركتها وإيحاءاتها العجيبة . فهي من هذه الوجهة كفاء للهدف العظيم الذي تتوخاه . .

إن دورة التصور والشعور مع دورة الليل والنهار في هذا الفلك الدوار , والليل يطلب النهار حثيثاً , ويريده مجتهداً ! لهي دورة لا يملك الوجدان ألا يتابعها ; وألا يدور معها ! وألا يرقب هذا السباق الجبار بين الليل والنهار , بقلب مرتعش ونفس لاهث ! وكله حركة وتوفز , وكله تطلع وانتظار !

إن جمال الحركة وحيويتها و "تشخيص" الليل والنهار في سميت الشخص الواعي ذي الإرادة والقصد . . إن هذا كله مستوى من جمال التصوير والتعبير لا يرقى إليه فن بشري على الإطلاق !

إن الألفة التي تقتل الكون ومشاهده في الحس ; وتطبع النظرة إليه بطابع البلادة والغفلة . . إن هذه الألفة لتتوارى , ليحل محلها وقع المشهد الجديد الرائع الذي يطالع الفطرة كأنما لأول وهلة ! . . إن الليل والنهار في هذا التعبير ليسا مجرد ظاهرتين طبيعيتين مكرورتين . وإنما هما حيان ذوا حس وروح وقصد واتجاه . يعاطفان البشر ويشاركانهم حركة الحياة ; وحركة الصراع والمنافسة والسباق التي تطبع الحياة !

كذلك هذه الشمس والقمر والنجوم . . إنها كائنات حية ذات روح ! إنها تتلقى أمر الله وتنفذه , وتخضع له وتسير وفقه . إنها مسخرة , تتلقى وتستجيب , وتمضي حيث أمرت كما يمضي الأحياء في طاعة الله !

ومن هنا يهتز الضمير البشري ; وينساق للإستجابة , في موكب الأحياء المستجيبة . ومن هنا هذا السلطان للقرآن الذي ليس لكلام البشر . . إنه يخاطب فطرة الإنسان بهذا السلطان المستمد من قائله - سبحانه - الخبير بمداخل القلوب وأسرار الفطر . .

الدرس الثاني: 55 - 56 دعاء الله والطمع في رحمته

وعندما يصل السياق إلى هذا المقطع , وقد ارتعش الوجدان البشري لمشاهد الكون الحية , التي كان يمر عليها في بلادة وغفلة . وقد تجلى له خضوع هذه الخلائق الهائلة وعبوديتها لسلطان الخالق وأمره . . عندئذ

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (56)
يوجه البشر إلى ربهم - الذي لا رب غيره - ليدعوه في إنابة وخشوع ; ويلتزموا بربوبيته لهم , فيلتزموا حدود عبوديتهم له ; لا يعتدون على سلطانه ; ولا يفسدون في الأرض بترك شرعه إلى هواهم , بعد أن أصلحها الله بمنهجه:

(ادعوا ربكم تضرعاً وخفية , إنه لا يحب المعتدين , ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها . وادعوه خوفاً وطمعاً , إن رحمة الله قريب من المحسنين).

إنه التوجيه في أنسب حالة نفسية صالحة , إلى الدعاء والإنابة . . تضرعاً وتذلاً ; وخفية لا صياحاً وتصديّة ! فالتضرع الخفي أنسب وأليق بجلال الله ويقرب الصلة بين العبد ومولاه .

أخرج مسلم - بإسناده عن أبي موسى - قال: كنا مع رسول الله [ص] في سفر - وفي رواية غزاة - فجعل الناس يجهرون بالتكبير , فقال رسول الله [ص]: "أيها الناس أربعوا [أي ارفقوا وهونوا] على أنفسكم . إنكم لستم تدعون أصم ولا غائباً . إنكم تدعون سميعاً قريباً . وهو معكم " . .

فهذا الحس الإيمانى بجلال الله وقربه معاً , هو الذى يؤكد المنهج القرآنى هنا ويقرره فى صورته الحركية الواقعية عند الدعاء . ذلك أن الذى يستشعر جلاله فعلاً يستحيى من الصياح فى دعائه ; والذى يستشعر قرب الله حقاً لا يجد ما يدعو إلى هذا الصياح !

وفى ظل مشهد التضرع فى الدعاء , وهيبة الخشوع والانكسار فيه لله , ينهى عن الاعتداء على سلطان الله , فيما يدعو له لأنفسهم - فى الجاهلية - من الحاكمية التى لا تكون إلا لله . كما ينهى عن الفساد فى الأرض بالهوى , وقد أصلحها الله بالشريعة والنفس التى تتضرع وتخشع خفية للقريب المجيب , لا تعتدى كذلك ولا تفسد فى الأرض بعد إصلاحها فبين الانفعالين اتصال داخلى وثيق فى تكوين النفس والمشاعر . والمنهج القرآنى يتبع خلجات القلوب وانفعالات النفوس . وهو منهج من خلق الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

(وادعوه خوفاً وطمعاً)

خوفاً من غضبه وعقابه . وطمعاً فى رضوانه وثوابه .

(إن رحمة الله قريب من المحسنين)

الذين يعبدون الله كأنهم يرونه , فإن لم يكونوا يرونه فهو يراهم كما جاء فى الوصف النبوي للإحسان .

الدرس الثالث: 57 فعل الله فى الرياح والأمطار والثمار

ومرة أخرى يفتح السياق للقلب البشرى صفحة من صفحات الكون المعروضة للأنظار ; ولكن القلوب تمر بها غافلة بليدة ; لا تسمع نطقها , ولا تستشعر إيقاعها إنها صفحة يفتحها على ذكر رحمة الله فى الآية السابقة ; نموذجاً لرحمة الله فى صورة الماء الهاطل , والزرع النامي , والحياة النابضة بعد الموت والخمود:

(وهو الذى يرسل الرياح , بشراً بين يدي رحمته , حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت , فأنزلنا به الماء , فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون)

إنها آثار الربوبية فى الكون . آثار الفاعلية والسلطان والتدبير والتقدير . وكلها من صنع الله ; الذى لا ينبغى أن يكون للناس رب سواه . وهو الخالق الرازق بهذه الأسباب التى ينشئها برحمته للعباد .

وفى كل لحظة تهب ريح . وفى كل وقت تحمل الريح سحاباً . وفى كل فترة ينزل من السحاب ماء .

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّتَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57)

ولكن ربط هذا كله بفعل الله - كما هو فى الحقيقة - هو الجديد الذى يعرضه القرآن هذا العرض المرتسم فى المشاهد المتحركة , كأن العين تراه .

إنه هو الذي يرسل الرياح مبشرات برحمته . والرياح تهب وفق النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون - فما كان الكون لينشئ نفسه , ثم يضع لنفسه هذه النواميس التي تحكمه ! - ولكن التصور الإسلامي يقوم على اعتقاد أن كل حدث يجري في الكون - ولو أنه يجري وفق الناموس الذي قدره الله - إنما يقع ويتحقق - وفق الناموس - بقدر خاص ينشئه ويبرزه في عالم الواقع . وأن الأمر القديم بجريان السنة , لا يتعارض مع تعلق قدر الله بكل حادث فردي من الأحداث التي تجري وفق هذه السنة . فإرسال الرياح - وفق النواميس الإلهية في الكون - حدث من الأحداث , يقع بمفرده وفق قدر خاص .

وحمل الرياح للسحاب يجري وفق نواميس الله في الكون أيضاً . ولكنه يقع بقدر خاص . ثم يسوق الله السحاب - بقدر خاص منه - إلى (بلد ميت) . صحراء أو جدباء . . فينزل منه الماء - بقدر كذلك خاص - فيخرج من كل الثمرات - بقدر منه خاص - يجري كل أولئك وفق النواميس التي أودعها طبيعة الكون وطبيعة الحياة .

إن التصور الإسلامي في هذا الجانب ينفي العفوية والمصادفة في كل ما يجري في الكون . ابتداء من نشأته وبروزه , إلى كل حركة فيه وكل تغيير وكل تعديل . كما ينفي الجبرية الآلية , التي تتصور الكون كأنه آلة , فرغ صانعها منها , وأودعها القوانين التي تتحرك بها , ثم تركها تتحرك حركة آلية جبرية حتمية وفق هذه القوانين التي تصبح بذلك عمياء !

إنه يثبت الخلق بمشيئة وقدر . ثم يثبت الناموس الثابت والسنة الجارية . ولكنه يجعل معها القدر المصاحب لكل حركة من حركات الناموس ولكل مرة تتحقق فيها السنة . القدر الذي ينشئ الحركة ويحقق السنة , وفق المشيئة الطليقة من وراء السنن والنواتيس الثابتة .

إنه تصور حي . ينفي عن القلب البلادة . بلادة الآلية والجبرية . ويدعها أبداً في يقظة وفي رقابة . . كلما حدث حدثٌ وفق سنة الله . وكلما تمت حركة وفق ناموس الله . انتفض هذا القلب , يرى قدر الله المنفذ , ويرى يد الله الفاعلة , ويسبح لله ويذكره ويراقبه , ولا يغفل عنه بالآلية الجبرية ولا ينساه !

هذا تصور يستحيي القلوب , ويستجيش العقول , ويعلقها جميعاً بفاعلية الخالق المتجددة ; ويتسبح الباريء الحاضر في كل لحظة وفي كل حركة وفي كل حدث آناء الليل وأطراف النهار .

كذلك يربط السياق القرآني بين حقيقة الحياة الناشئة بإرادة الله وقدره في هذه الأرض , وبين النشأة الآخرة , التي تتحقق كذلك بمشيئة الله وقدره ; على المنهج الذي يراه الأحياء في نشأة هذه الحياة:

(كذلك نخرج الموتى , لعلكم تذكرون) . .

إن معجزة الحياة ذات طبيعة واحدة , من وراء أشكالها وصورها وملابساتها . . هذا ما يوحي به هذا التعقيب . . وكما يخرج الله الحياة من الموات في هذه الأرض , فكذلك يخرج الحياة من الموتى في نهاية المطاف . . إن المشيئة التي تبت الحياة في صور الحياة وأشكالها في هذه الأرض , هي المشيئة التي ترد الحياة

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)

في الأموات . وإن القدر الذي يجري بإخراج الحياة من الموات في الدنيا , لهو ذاته القدر
الذي يجري بجريان الحياة في الموتى مرة أخرى . .

(لعلكم تذكرون) . .

فالناس ينسون هذه الحقيقة المنظورة ; ويغرقون في الضلالات والأوهام !

الدرس الرابع: 58 الطيب والخبيث من الأرض والإنسان

ويختم السياق هذه الرحلة في أقطار الكون وأسرار الوجود , بمثل يضربه للطيب
وللخبيث من القلوب . ينتزعه من جو المشهد المعروض , مراعاة للتناسق في المرائي
والمشاهد , وفي الطبائع والحقائق:

(والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه , والذي خبث لا يخرج إلا نكداً . كذلك نصرف الآيات
لقوم يشكرون).

والقلب الطيب يشبه في القرآن الكريم وفي حديث رسول الله [ص] بالأرض الطيبة ,
وبالتربة الطيبة . والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة وبالتربة الخبيثة . فكلاهما . .
القلب والتربة . . منبت زرع , ومأتي ثمر . القلب ينبت نوايا ومشاعر , وانفعالات
واستجابات , واتجاهات وعزائم , وأعمالاً بعد ذلك وأثراً في واقع الحياة . والأرض تنبت
زرعاً وثماراً مختلفاً أكله وألوانه ومذاقاته وأنواعه . .

(والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه) . .

طيباً خيراً , سهلاً ميسراً .

(والذي خبث لا يخرج إلا نكداً) . .

في إيذاء وجفوة , وفي عسر ومشقة . .

والهدى والآيات والموعظة والنصيحة تنزل على القلب كما ينزل الماء على التربة . فإن
كان القلب طيباً كالبلد الطيب , تفتح واستقبل , وزكا وفاض بالخير . وإن كان فاسداً
شريراً - كالذي خبث من البلاد والأماكن - استغلق وقسا , وفاض بالشر والنكر والفساد
والضر . وأخرج الشوك والأذى , كما تخرج الأرض النكدة !

(كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون).

والشكر ينبع من القلب الطيب , وبدل على الاستقبال الطيب , والانفعال الطيب .
ولهؤلاء الشاكرين الذين يحسنون التلقي والاستجابة تصرف الآيات . فهم الذين ينتفعون
بها , ويصلحون لها , ويصلحون بها . .

والشكر هو لازمة هذه السورة التي يتكرر ذكرها فيها . . كالإنذار والتذكير . وقد صادفنا هذا التعبير فيما مضى من السياق , وسنصادفه فيما هو آت . . فهو من ملامح السورة المميزة في التعبير , كالإنذار والتذكير . .

الوحدة السادسة: 59 - 93 الموضوع: جولة مع قصص الأنبياء مقدمة الوحدة

نحن مع موكب الإيمان . . هذه أعلامه . . وهذه علائمه . . وهذه هي معالم طريقه . . وهو يواجه البشرية في رحلتها الطويلة على هذا الكوكب الأرضي . . يواجهها كلما التوت بها الطريق ; وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم ; وكلما تفرقت بها السبل . تحت ضغط الشهوات , التي يقودها الشيطان من خطامها , محاولاً أن يرضي حقه ; وأن ينفذ وعيده , وأن يمضي ببني آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم ; فإذا الموكب الكريم يواجه البشرية بالهدى , ويلوّح لها بالنور , ويستروح بها ريح الجنة , ويحذرنا لفحات السموم , ونزغات الشيطان الرجيم , عدوها القديم . .

. . إنه مشهد رائع . . مشهد الصراع العميق , في خضم الحياة , على طول الطريق . .

إن التاريخ البشري يمضي في تشابك معقد كل التعقيد . . إن هذا الكائن المزدوج الطبيعة , المعقد التركيب . . الذي يتألف كيانه من أبعاد عنصرين تؤلف بينهما قدرة الله وقدره . . عنصر الطين الذي نشأ منه , وعنصر النفخة من روح الله , التي جعلت من هذا الطين إنساناً . . إن هذا الكائن ليمضي في تاريخه مع عوامل متشابكة كل التشابك , معقدة كل التعقيد . . يمضي بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الآفاق والعوالم التي أسلفنا في قصة آدم الحديث عنها . . يتعامل مع الحقيقة الإلهية: مشيئتها وقدرها , وقدرتها وجبروتها , ورحمتها وفضلها . . الخ . . ويتعامل مع الملائكة الأعلى وملائكته . . ويتعامل مع إبليس وقبيله . . ويتعامل مع هذا الكون المشهود ونواميسه وسنن الله فيه . . ويتعامل مع الأحياء في هذه الأرض . . ويتعامل مع بعضه البعض . . يتعامل مع هذه الآفاق وهذه العوالم بطبيعته تلك , وباستعداداته المتوافقة والمتعارضة مع هذه الآفاق والعوالم . .

وفي هذا الخضم المتشابك من العلاقات والروابط , يجري تاريخه . . ومن القوة في كيانه والضعف . ومن التقوى والهدى . ومن الالتقاء بعالم الغيب وعالم الشهود . ومن التعامل مع العناصر المادية في الكون والقوى الروحية , ومن التعامل مع قدر الله في النهاية . . من هذا كله يتكون تاريخه . . وفي ضوء هذا التعقيد الشديد يفسر تاريخه .

والذين يفسرون التاريخ الإنساني تفسيراً "اقتصادياً" أو "سياسياً" . والذين يفسرونه تفسيراً "بيولوجياً" . والذين يفسرونه تفسيراً "روحياً" أو "نفسياً" . والذين يفسرونه تفسيراً "عقلياً" . . كل أولئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب واحد من جوانب العوامل المتشابكة , والعوالم المتباعدة , التي يتعامل معها الإنسان ; ويتألف من تعامله معها تاريخه . . والتفسير الإسلامي للتاريخ هو وحده الذي يلم بهذا الخضم الواسع , ويحيط به ; وينظر إلى التاريخ الإنساني من خلاله .

ونحن هنا أمام مشاهد صادقة من هذا الخضم . . لقد شهدنا مشهد النشأة البشرية ; وقد تجمعت في المشهد كل العوالم والآفاق والعناصر - الظاهرة والخفية - التي يتعامل معها هذا الكائن منذ اللحظة الأولى . . ولقد شهدنا هذا الكائن باستعداداته الأساسية . . شهدنا تكريمه في الملائكة الأعلى وإسجاد الملائكة له ; والبارئ العظيم يعلن ميلاده . .

وشهدنا ضعفه بعد ذلك وكيف قاده منه عدوه . . وشهدنا مهبطه إلى الأرض . . وانطلاقه في التعامل مع عناصرها ونواميسها الكونية . .

ولقد شهدناه يهبط إلى هذه الأرض مؤمناً بربه ; مستغفراً لذنبه ; مأخوذاً عليه عهد الخلافة: أن يتبع ما يأتيه من ربه ولا يتبع الشيطان ولا الهوى , مزوداً بتلك التجربة الأولى في حياته . .

ثم مضى به الزمن ; وتقاذفته الأمواج في الخضم ; وتفاعلت تلك العوامل المعقدة المتشابكة في كيانه ذاته

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي صِلَالٍ مَبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي صَّلَاةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (61) أَتَلْعَمُونَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (67) أَتَلْعَمُونَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَإِنَّا لَكُم تَأْصِخُ أَمِينٌ (68) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَبَدَّرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا قَاتِنًا يَمَّا تَعْدَتَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَصَيْبٌ أُتْجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا تَرَى اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (73) وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُوْنَ الْجِبَالَ بَيْوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَصْنَ مِنْهُمْ أَلْعَلَّمُونَ أَنِّي صَالِحٌ مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّي قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالذِّبِ آمَنُتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَتَصَحَّتْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79) وَلِهَاطَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (81) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84) وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَفْعَدُوا يَكُلُ صِرَاطٌ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُنْتُمْ كَثِيرًا وَانظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87)

وفي الوجود من حوله . تفاعلت في واقعه وفي ضميره . ثم ها نحن أولاء في هذا الدرس نشهد كيف صارت به هذه العوامل المعقدة المتشابكة إلى الجاهلية !!!

إنه ينسى . . وقد نسي . . إنه يضعف . . إنه ضعف . . وقد الشيطان يغلبه . . وقد غلبه . . ولا بد من الإنقاذ مرة أخرى !!!

لقد هبط إلى هذه الأرض مهتدياً تائباً موحداً . . ولكن ها نحن أولاء نلتقي به ضالاً مفترياً مشركاً !!! لقد تقاذفته الأمواج في الخضم . . ولكن هنالك معلماً في طريقه . . هنالك الرسالة ترده إلى ربه . فمن رحمة ربه به أن لا يتركه وحده !

وها نحن أولاء في هذه السورة نلتقي بموكب الإيمان , يرفع أعلامه رسل الله الكرام: نوح , وهود . وصالح . ولوط . وشعيب . وموسى . ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً . . ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم - بتوجيه الله وتعليمه - إنقاذ الركب البشري من الهاوية التي يقوده إليها الشيطان , وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كل زمان . كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال . وبين الحق والباطل , وبين الرسل الكرام وشياطين الجن والإنس . . ثم نشهد مصارع المكذبين في نهاية كل مرحلة , ونجاة المؤمنين , بعد الإنذار والتذكير . .

والقصص في القرآن لا يتبع دائماً ذلك الخط التاريخي . ولكنه في هذه السورة يتبع هذا الخط . ذلك أنه يعرض سير الركب البشري منذ النشأة الأولى , ويعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماماً عن معالم الطريق , وقاده الشيطان كلية إلى المهلكة ليسلمه في نهايتها إلى الجحيم !

وفي وقفنا أمام المشهد الكلي الرائع نلمح جملة معالم نلخصها هنا قبل مواجهة النصوص:

إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة . . ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة - بفعل العوامل المتشابكة المعقدة في تركيب الإنسان ذاته , وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها . . وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرك . فيهلك من يهلك , ويحيا من يحيا . والذين يحيون هم الذين أبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة . هم الذين علموا أن لهم إلهاً واحداً , واستسلموا بكليتهم إلى هذا الإله الواحد . هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . . فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله , ويتعاقب بها الرسل جميعاً على مدار التاريخ . . فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها , فنسوها وضلوا عنها , وأشركوا مع الله آلهة أخرى - على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة - وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل . . وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجي المؤمنين . . والسياق القرآني يوحد الألفاظ التي عبر بها جميع الرسل - صلوات الله عليهم - مع اختلاف لغاتهم . . يوحد حكاية ما قالوه , ويوحد ترجمته في نص واحد: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . . وذلك لتحقيق معني وحدة العقيدة السماوية - على مدار التاريخ - حتى في صورتها اللفظية ! لأن هذه العبارة دقيقة في التعبير عن حقيقة العقيدة , ولأن عرضها في السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويراً حسياً . . ولهذا كله دلالة في تقرير المنهج القرآني عن تاريخ العقيدة . .

وفي ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج "الأديان المقارنة" مع المنهج القرآني . .
يتبين أنه لم يكن هناك تدرج ولا "تطور" في مفهوم العقيدة الأساسي , الذي جاءت به
الرسالة كلها من عند الله , وأن الذين يتحدثون عن "تطور" المعتقدات وتدرجها ;
ويدمجون العقيدة الربانية في هذا التدرج "والتطور" يقولون غير ما يقوله الله سبحانه !
فهذه العقيدة - كما نرى في القرآن الكريم - جاءت دائماً بحقيقة واحدة . وحكيت
العبارة عنها في ألفاظ بعينها: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وهذا الإله الذي
دعا الرسل كلهم إليه هو (رب العالمين) . . الذي يحاسب الناس في يوم عظيم . . فلم
يكن هنالك رسول من عند الله دعا إلى رب قبيلة , أو رب أمة , أو رب جنس . . كما أنه
لم يكن هنالك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة . . وكذلك لم يكن
هنالك رسول من عند الله دعا إلى عبادة طوطمية , أو نجمية , أو "أرواحية" ! أو صنمية
! ولم يكن هناك دين من عند الله ليس فيه عالم آخر . . كما يزعم من يسمونهم "علماء
الأديان" وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة , ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هي
الديانات التي عرفت البشرية في هذه الأزمان , دون غيرها !

لقد جاءت الرسل - رسولاً بعد رسول - بالتوحيد الخالص , وبربوية رب العالمين !
وبالحساب في يوم الدين . . ولكن الانحرافات في خط الاعتقاد , مع الجاهليات الطارئة
بعد كل رسالة , بفعل العوامل المعقدة المتشابكة في تكوين الإنسان ذاته وفي العوالم
التي يتعامل معها . . هذه الانحرافات تمثلت في صور شتى من المعتقدات الجاهلية . .
هي هذه التي يدرسها "علماء الأديان" ! ثم يزعمون أنها الخط الصاعد في تدرج
الديانات وتطورها !

وعلى أية حال فهذا هو قول الله - سبحانه - وهو أحق أن يتبع , وبخاصة ممن يكتبون عن
هذا الموضوع في صدد عرض العقيدة الإسلامية , أو صدد الدفاع عنها ! أما الذين لا
يؤمنون بهذا القرآن , فهم وما هم فيه . .

والله يقص الحق وهو خير الفاصلين . .

إن كل رسول من الرسل - صلوات الله عليهم جميعاً - قد جاء إلى قومه , بعد انحرافهم
عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم الذي سبقه . . فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين
لرب العالمين - كما كانت عقيدة آدم وزوجه - ثم انحرفوا بفعل العوامل التي أسلفنا -
حتى إذا جاء نوح - عليه السلام - دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى . ثم جاء
الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون . وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب
العالمين - كما علمهم نوح - وبذراربعهم . حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية
كما انحرف من كان قبلهم . . حتى إذا جاء هود أهلك المكذبون بالريح العقيم . . ثم
تكررت القصة . . وهكذا . .

ولقد أرسل كل رسول من هؤلاء إلى قومه . فقال: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره) . . وقال كل رسول لقومه: إني لكم ناصح أمين , معبراً عن ثقل التبعة ; وخطورة
ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة ; ورغبته في هداية قومه ,
وهو منهم وهم منه . . وفي كل مرة وقف "الملا" من عليه القوم وكبرائهم في وجه
كلمة الحق هذه ; ورفضوا الاستسلام لله رب العالمين . وأبوا أن تكون العبودية
والدينونة لله وحده - وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها وقام عليها دين الله
كله - وهنا يصدع كل رسول بالحق في وجه الطاغوت . . ثم ينقسم قومه إلى أمتين
متفاصلتين على أساس العقيدة . وتنبتُ وشيجة القومية ووشيجة القرابة العائلية ;
لتقوم وشيجة العقيدة وحدها . وإذا "القوم" الواحد , أمتان متفاصلتان لا قرى بينهما ولا

علاقة ! . . . وعندئذ يجيء الفتح . . . ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة , ويأخذ المكذبين المستكبرين , وينجي الطائعين المستسلمين . . . وما جرت سنة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة , وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم لله وحده . وقبل أن يثبتوا في وجه الطاغوت بإيمانهم . وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم . . . وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ .

إن التركيز في كل رسالة كان على أمر واحد: هوتعبيد الناس كلهم لربهم وحده - رب العالمين - ذلك أن هذه العبودية لله الواحد , ونزع السلطان كله من الطواغيت التي تدعيه , هو القاعدة التي لا يقوم شيء صالح بدونها في حياة البشر . ولم يذكر القرآن إلا قليلاً من التفاصيل بعد هذه القاعدة الأساسية المشتركة في الرسائل جميعاً . ذلك أن كل تفصيل - بعد قاعدة العقيدة - في الدين , إنما يرجع إلى هذه القاعدة ولا يخرج عنها . وأهمية هذه القاعدة في ميزان الله هي التي جعلت المنهج القرآني يبرزها هكذا , ويفردها بالذكر في استعراض موكب الإيمان ; بل في القرآن كله . . . ولنذكر - كما قلنا في التعريف بسورة الأنعام أن هذا كان هو موضوع القرآن المكي كله ; كما كان هو موضوع القرآن المدني كلما عرضت مناسبة لتشريع أو توجيه .

إن لهذا الدين "حقيقة" ; و "منهجاً" لعرض هذه الحقيقة . "والمنهج" في هذا الدين لا يقل أصالة ولا ضرورة عن "الحقيقة" فيه . . . وعلينا أن نعرف الحقيقة الأساسية التي جاء بها هذا الدين . كما أن علينا أن نلتزم المنهج الذي عرض به هذه الحقيقة . . . وفي هذا المنهج إبراز وإفراد وتكرار وتوكيد لحقيقة التوحيد للألوهية . . . ومن هنا ذلك التوكيد والتكرار والإبراز والإفراد لهذه القاعدة في قصص هذه السورة . . .

إن هذا القصص يصور طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس البشر ; ويعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان , ونموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للكفر أيضاً . . . إن الذين آمنوا بكل رسول لم يكن في قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله ; ولم يعجبوا أن يختار الله واحداً منهم ليلبغهم وينذرهم . فاما الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم , فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر , وأن يسمعوا لواحد منهم . . . كانوا هم "الملا" من الحكام والكبار والوجهاء وذوي السلطان في قومهم . . . ومن هنا نعرف عقدة هذا الدين . . . إنها عقدة الحاكمية والسلطان . . . فالملا كانوا يحسون دائماً ما في قول رسولهم لهم: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . . .

(ولكني رسول من رب العالمين) . . . كانوا يحسون أن الألوهية الواحدة والربوبية الشاملة تعني - أول ما تعني - نزع السلطان المغتصب من أيديهم ; ورده إلى صاحبه الشرعي . . . إلى الله رب العالمين . . . وهذا ما كانوا يقاومون في سبيله حتى يكونوا من الهالكين ! وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع باللاحق منهم بالغابر , وأن يسلك طريقه إلى الهلاك , كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك ! . . . إن مصارع المكذبين - كما يعرضها هذا القصص - تجري على سنة لا تتبدل: نسيان آيات الله وانحراف عن طريقه . إنذار من الله للغافلين على يد رسول . استكبار عن العبودية لله وحده والخضوع لرب العالمين . اغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار واستعجال للعذاب . طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين . ثبات من المؤمنين ومفاصلة على العقيدة . . . ثم المصرع الذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ !

وأخيراً فإن طاغوت الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق . . . وحتى حين يريد الحق أن يعيش في عزلة عن الباطل - تاركاً مصيرهما لفتح الله وقضائه - فإن الباطل لا يقبل

منه هذا الموقف . بل يتابع الحق وينازله ويطارده . . ولقد قال شعيب لقومه: (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا , فاصبروا حتى يحكم الله بيننا , وهو خير الحاكمين). . ولكنهم لم يقبلوا منه هذه الخطة , ولم يطبقوا رؤية الحق يعيش ; ولا رؤية جماعة تدين لله وحده وتخرج من سلطان الطواغيت: (قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنك

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّاتَنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89) يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا). . وهنا صدع شعيب بالحق رافضاً هذا الذي يعرضه عليهم الطواغيت: قال: أولو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . .

ذلك ليعلم أصحاب الدعوة إلى الله أن المعركة مع الطواغيت مفروضة عليهم فرضاً , وأنه لا يجديهم فتيلاً أن يتقوها ويتجنبوها . فالطواغيت لن تتركهم إلا أن يتركوا دينهم كلية , ويعودوا إلى ملة الطواغيت بعد إذ نجاهم الله منها . وقد نجاهم الله منها بمجرد أن خلعت قلوبهم عنها العبودية للطواغيت ودانت بالعبودية لله وحده . . فلا مفر من خوض المعركة , والصبر عليها , وانتظار فتح الله بعد المفاصلة فيها ; وأن يقولوا مع شعيب:

(على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين). . ثم تجري سنة الله بما جرت به كل مرة على مدار التاريخ . .

ونكتفي بهذه المعالم في طريق القصص القرآني , حتى نستعرض النصوص بالتفصيل:

إن موكب الإيمان الذي يسير في مقدمته رسل الله الكرام , مسبوق في السياق بموكب الإيمان في الكون كله . في الفقرة السابقة مباشرة: (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً , والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره , ألا له الخلق والأمر , تبارك الله رب العالمين). .

وإن الدينونة لهذا الإله , الذي خلق السماوات والأرض , والذي استوى على العرش , والذي يحرك الليل ليطلب النهار , والذي تجري الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره , والذي له الخلق والأمر . إن الدينونة لهذا الإله وحده هي التي يدعو إليها الرسل كافة . هي التي يدعو إليها البشرية كلها , كلما قعد لها الشيطان على صراط الله فأضلها عنه ; وردّها إلى الجاهلية التي تتبدى في صور شتى ; ولكنها كلها تتسم بإشراك غير الله معه في الربوبية .

والمنهج القرآني يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله , ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه ; والإسلام لله الذي أسلم له الكون كله ; والذي يتحرك مسخراً بأمره . ذلك أن هذا الإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيلاً بأن يهز القلب البشري هزاً ; وأن يستحّته من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة المستسلمة ; فلا يكون هو وحده نشازاً في نظام الوجود كله !

إن الرسل الكرام لا يدعون البشرية لأمر شاذ ; إنما يدعونها إلى الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله ; وإلى الحقيقة المركوزة في ضمير هذا الوجود . . وهي ذاتها الحقيقة المركوزة في فطرة البشر ; والتي تهتف بها فطرتهم حين لا تلوي بها الشهوات , ولا يقودها الشيطان بعيداً عن حقيقتها الأصلية . .

وهذه هي اللمسة المستفادة من تتابع السياق القرآني في السورة على النحو الذي تتابع به .

الدرس الأول: 59 - 64 لقطات من قصة نوح مع قومه

قد أرسلنا نوحاً إلى قومه , فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره , إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملائكة من قومه: إنا لنراك في ضلال مبين . قال: يا قوم ليس بي ضلالة , ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي , وأنصح لكم , وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم , ولتتقوا , ولعلكم ترحمون ? فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك , وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا , إنهم كانوا قوماً عمين) . .

تعرض القصة هنا باختصار , ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى من القرآن في سياق يتطلب تلك التفصيلات , كالذي جاء في سورة هود , وفي سورة نوح . . إن الهدف هنا هو تصوير تلك المعالم التي تحدثنا عنها آنفاً . . طبيعة العقيدة . طريقة التبليغ . طبيعة استقبال القوم لها . حقيقة مشاعر الرسول . تحقق النذير . . لذلك تذكر من القصة فحسب تلك الحلقات المحققة لتلك المعالم , على منهج القصص القرآني .

(لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) . .

على سنة الله في إرسال كل رسول من قومه , وبلسانهم , تأليفاً لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم , وتيسيراً على البشر في التفاهم والتعارف . وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة , ولا يستجيبون , ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم , ويطلبون أن تبلغهم الملائكة ! وإن هي إلا تلة . وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى , مهما جاءهم من أي طريق !

لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه , فخاطبهم بتلك الكلمة الواحدة التي جاء بها كل رسول:

(فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

فهي الكلمة التي لا تتبدل , وهي قاعدة هذه العقيدة التي لا توجد إلا بها , وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره , وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط . وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى , والعبودية لأمثالهم من العبيد , وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد .

إن دين الله منهج للحياة , قاعدته أن يكون السلطان كله في حياة الناس كلها لله . وهذا هو معنى عبادة الله وحده , ومعنى ألا يكون للناس إله غيره . . والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وإنشائه وتديره بقدرته الله وقدره . كما يتمثل في الاعتقاد بربوبيته للإنسان وإنشائه وتدير أمره بقدرته الله وقدره . وعلى نفس المستوى يتمثل في الاعتقاد بربوبية الله لهذا الإنسان في حياته العملية الواقعية , وقيامها على شريعته

وأمره , تمثله في التقدم بشعائر العبادة له وحده . . كلها حزمة واحدة . . غير قابلة للتجزئة . وإلا فهو الشرك , وهو عبادة غير الله معه , أو من دونه !

ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة , وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه , وفي صدق الرائد الناصح لأهله:

(إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم). . .

وهنا نرى أن ديانة نوح . . أقدم الديانات . . كانت فيها عقيدة الآخرة . عقيدة الحساب والجزاء في يوم عظيم , يخاف نوح علي قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب . . وهكذا تتبين مفارقة منهج الله وتقريره في شأن العقيدة , ومناهج الخاطبين في الظلام من "علماء الأديان" وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن .

فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين من قوم نوح لهذه الدعوة الخالصة الواضحة المستقيمة ?

(قال الملأ من قومه:إنا لنراك في ضلال مبين)!

كما قال مشركو العرب لمحمد [ص] إنه صبا , ورجع عن دين إبراهيم !

وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعو إلى الهدى هو الضال ! بل هكذا يبلغ التبجح الوقح عندما يبلغ المسخ في الفطر ! . . هكذا تنقلب الموازين , وتبطل الضوابط , ويحكم الهوى ; ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل .

وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدى الله ? إنها تسميهم الضالين , وتعد من يهتدي منهم ويرجع بالرضى والقبول ! . . أجل من يهتدي إلى المستنقع الكربة , وإلى الوحل الذي تتمرغ الجاهلية فيه !

وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف عن لحمها ? وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص ? إنها تسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما " رجعية " وتخلفاً وجموداً وريفة ! وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذي تتمرغ فيه في المستنقع الكربة !

وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة ; وحنون الأفلام والسينما والتليفزيون وما إليه ; وحنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهي ? إنها تقول عنه:إنه "جامد" . ومغلق على نفسه , وتنقصه المرونة والثقافة ! وتحاول أن تجره إلى تفاهة من هذه ينفق فيها حياته . .

إن الجاهلية هي الجاهلية . . فلا تتغير إلا الأشكال والظروف !

وينفي نوح عن نفسه الضلال , ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها , فهو لم يتدعها من أوهامه وأهوائه . إنما هو رسول من رب العالمين . يحمل لهم الرسالة . ومعها النصح والأمانة . ويعلم من الله ما لا يعلمون . فهو يجده في نفسه , وهو موصول به , وهم عنه محجوبون:

(قال: يا قوم ليس بي ضلالة , ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي , وأنصح لكم , وأعلم من الله ما لا تعلمون) .

ونلمح هنا فجوة في السياق . . فكأنما عجبوا أن يختار الله رسولاً من البشر من بينهم , يحمله رسالة إلى قومه , وأن يجد هذا الرسول في نفسه علماً عن ربه لا يجده الآخرون , الذين لم يختاروا هذا الاختيار . . هذه الفجوة في السياق يدل عليها ما بعدها:

أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم , ولتتقوا , ولعلكم ترحمون ?

وما من عجب في هذا الاختيار . فهذا الكائن الإنساني شأنه كله عجيب . . إنه يتعامل مع العوالم كلها , ويتصل بربه بما ركب في طبيعته من نفخة الله فيه من روحه . . فإذا اختار الله من بينه رسوله - والله أعلم حيث يجعل رسالته - فإنما يتلقى هذا المختار عنه , بما أودع في كيانه من إمكانية الاتصال به والتلقي عنه , بذلك السر اللطيف الذي به معنى الإنسان , والذي هو مناط التكريم العلوي لهذا الكائن العجيب التكوين .

ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة:

(لينذركم , ولتتقوا , ولعلكم ترحمون) . .

فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى , ليظفروا في النهاية برحمة الله . . ولا شيء وراء ذلك لنوح , ولا مصلحة , ولا هدف , إلا هذا الهدف السامي النبيل .

ولكن الفطرة حين تبلغ حداً معيناً من الفساد , لا تفكر ولا تتدبر ولا تتذكر , ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير:

(فكذبوه , فأنجيناه والذين معه في الفلك , وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا , إنهم كانوا قوماً عمين) . .

ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والندير . . فبعماهم هذا كذبوا . .
وبعماهم لاقوا هذا المصير !

الدرس الثاني: 65 - 72 لقطات من قصة هود مع قومه عاد

وتمضي عجلة التاريخ , ويمضي معها السياق , فإذا نحن أمام عاد قوم هود:

وإلي عاد أخاهم هودا , قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره , أفلا تتقون ? قال
الملا الذين كفروا من قومه: إنا لنراك في سفاهة , وإنا لنظنك من الكاذبين . قال: يا قوم
ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي , وأنا لكم ناصح
أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ? واذكروا إذ جعلكم
خلفاء من بعد قوم نوح , وزادكم في الخلق بسطة , فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون .
قالوا: أجتئنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ? فأتنا بما تعدنا إن كنت من
الصادقين . قال: قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب , أتجادلونني في أسماء
سميتموها وأنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ? فانتظروا , إني معكم من
المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا , وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا , وما كانوا
مؤمنين .

إنها نفس الرسالة , ونفس الحوار , ونفس العاقبة . . إنها السنة الماضية , والناموس الجاري , والقانون الواحد . .

إن قوم عاد هؤلاء من ذراري نوح والذين نجوا معه في السفينة , وقيل: كان عددهم ثلاثة عشر . . وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين في السفينة كانوا على دين نوح عليه السلام - وهو الإسلام - كانوا يعبدون الله وحده , ما لهم من إله غيره , وكانوا يعتقدون أنه رب العالمين , فهكذا قال لهم نوح: (ولكني رسول من رب العالمين). . فلما طال عليهم الأمد , وتفرقوا في الأرض , ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية , وقادهم من شهواتهم - وفي أولها شهوة الملك وشهوات المتاع - وفق الهوى لا وفق شريعة الله , عاد قوم هود يستنكرون أن يدعوهم نبيهم إلى عبادة الله وحده من جديد:

(وإلى عاد أخاهم هودا , قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون ?) . .

القول التي قالها نوح من قبله , والتي كذب بها قومه , فأصابهم ما أصابهم , واستخلف الله عاداً من بعدهم - ولا يذكر هنا أين كان موطنهم , وفي سورة أخرى نعلم أنهم كانوا بالأحقاف , وهي الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت - وقد ساروا في الطريق الذي سار فيه من قبل قوم نوح , فلم يتذكروا ولم يتدبروا ما حل بمن ساروا في هذا الطريق , لذلك يضيف هود في خطابه لهم قوله: (أفلا تتقون ?) استنكاراً لقلّة خوفهم من الله ومن ذلك المصير المرهوب .

وكانما كبر على الملأ الكبراء من قومه أن يدعوهم واحد من قومهم إلى الهدى , وأن يستنكر منهم قلة التقوى ; ورأوا فيه سفاهة وحماقة , وتجاوزا للحد , وسوء تقدير للمقام ! فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعاً في غير تحرج ولا حياء:

(قال الملأ الذين كفروا من قومه: إنا لنراك في سفاهة , وإنا لنظنك من الكاذبين). .

هكذا جزافاً بلا تروّ ولا تدبر ولا دليل !

(قال: يا قوم ليس بي سفاهة , ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين). .

لقد نفى عن نفسه السفاهة في بساطة وصدق - كما نفى عن نفسه الضلالة - وقد كشف لهم - كما كشف نوح من قبل - عن مصدر رسالته وهدفها ; وعن نصحه لهم فيها وأمانته في تبليغها . وقال لهم ذلك كله في مودة الناصح وفي صدق الأمين .

ولا بد أن يكون القوم قد عجبوا - كما عجب قوم نوح من قبل - من هذا الاختيار , ومن تلك الرسالة , فإذا هود يكرر لهم ما قاله نوح من قبل , كأنما كلاهما روح واحدة في شخصين:

أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ? . .

ثم يزيد عليه ما يمليه واقعهم . . واقع استخلافهم في الأرض من بعد قوم نوح , وإعطائهم قوة في الأجسام وضخامة بحكم نشأتهم الجبلية , وإعطائهم كذلك السلطان والسيطرة:

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح , وزادكم في الخلق بسطة . فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون). . . فلقد كان من حق هذا الاستخلاف , وهذه القوة والبسطة , أن تستوجب بشكر النعمة , والحذر من البطر , واتقاء مصير الغابرين . وهم لم يأخذوا على الله عهداً: أن تتوقف سنته التي لا تتبدل , والتي تجري وفق الناموس المرسوم , بقدر معلوم . وذكر النعم يوحى بشكرها ; وشكر النعمة تتبعه المحافظة على أسبابها ; ومن ثم يكون الفلاح في الدنيا والآخرة .

ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر . . وهكذا أخذت الملائكة العزة بالإثم , واختصروا الجدل , واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح , ويهزأ بالإندار:

(قالوا: أجتئنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ? فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين). . . لكننا كان يدعوهم إلى أمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه , ولا يصبرون على النظر فيه:

(أجتئنا لنعبد الله وحده , ونذر ما كان يعبد آباؤنا ?);

إنه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول . هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصيلة: حرية التدبر والنظر , وحرية التفكير والاعتقاد . وبدعه عبداً للعادة والتقليد , وعبداً للعرف والمألوف , وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله , ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور . .

وهكذا استعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحق , بل فراراً من تدبر تفاهة الباطل الذي هم له عبيد ; وقالوا لنبيهم الناصح الأمين:

(فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)!

ومن ثم كان الجواب حاسماً وسريعاً في رد الرسول:

(قال: قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب . أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ? فانتظروا , إنني معكم من المنتظرين).

لقد أبلغهم العاقبة التي أنبأه بها ربه , والتي قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص . . إنه العذاب الذي لا دافع له , وغضب الله المصاحب له . . ثم جعل بعد هذا التعجيل لهم بالعذاب الذي استعجلوه ; يكشف لهم عن سخافة معتقداتهم وتصوراتهم:

أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ? . .

إن ما تعيدون مع الله ليس شيئاً ذا حقيقة ! إنها مجرد أسماء أطلقتوها أنتم وآباؤكم ; من عند أنفسكم , لم يشرعها الله ولم يأذن بها , فما لها إذن من سلطان ولا لكم عليها من برهان .

والتعبير المتكرر في القرآن: (ما نزل الله بها من سلطان). . . هو تعبير موح عن حقيقة أصيلة . . إن كل كلمة أو شرع أو عرف أو تصور لم ينزله الله , خفيف الوزن , قليل الأثر , سريع الزوال . . إن الفطرة تتلقى هذا كله في استخفاف , فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق , بما فيها من سلطان الله الذي يودعها إياه .

وكم من كلمات براقية , وكم من مذاهب ونظريات , وكم من تصورات مزوقة , وكم من أوضاع حشدت لها كل قوى التزيين والتمكين . . ولكنها تتذاب أمام كلمة من الله , فيها من سلطانه - سبحانه - سلطان !

وفي ثقة المطمئن , وقوة المتمكن , يواجه هود قومه بالتحدي:

(فانتظروا , إنني معكم من المنتظرين). . .

إن هذه الثقة هي مناط القوة التي يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله . . إنه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال . كما أنه على يقين من سلطان الحق الذي معه وقوته بما فيه من سلطان الله .

ولا يطول الإنتظار في السياق:

(فأنجيناه والذين معه برحمة منا , وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا , وما كانوا مؤمنين). . .

فهو المحق الكامل الذي لا يتخلف منه أحد . وهو ما عبر عنه بقطع الدابر . والدابر هو آخر واحد في الركب يتبع أدبار القوم !

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين . وتحقق النذير مرة أخرى بعد إذ لم ينفع التذكير . . ولا يفصل السياق هنا ما يفصله من أمر هذا الهلاك في السور الأخرى . فنقف نحن في ظلال النص الذي يهدف إلى الإستعراض السريع ; ولا نخوض في تفصيل له مواضعه في النصوص .

الدرس الثالث: 73 - 79 لقطات من قصة صالح مع قومه ثمود

وإلى ثمود أخاهم صالحاً , قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . قد جاءكم بينة من ربكم , هذه ناقة الله لكم آية , فذروها تأكل في أرض الله , ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد , وبوأكم في الأرض , تتخذون من سهولها قصوراً , وتنحتون الجبال بيوتاً , فاذكروا آلاء الله , ولا تعثوا في الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا - لمن آمن منهم -: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ? قالوا: إنا بما أرسل به مؤمنون , قال الذين استكبروا: إنا بالذي آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم , وقالوا: يا صالح اثنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي , ونصحت لكم , ولكن لا تحبون الناصحين . . .

وهذه صفحة أخرى من صحائف قصة البشرية ; وهي تمضي في خضم التاريخ . وها هي ذي نكسة أخرى إلى الجاهلية ; ومشهد من مشاهد اللقاء بين الحق والباطل , ومصرع جديد من مصارع المكذبين .

(وإلى ثمود أخاهم صالحاً . قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره). . .

ذات الكلمة الواحدة التي بها بدأ هذا الخلق وإليها يعود . وذات المنهج الواحد في الاعتقاد والاتجاه والمواجهة والتبليغ . . .

وبزيد هنا تلك المعجزة التي صاحبت دعوة صالح , حين طلبها قومه للتصديق:
(قد جاءكم بينة من ربكم , هذه ناقة الله لكم آية) . .

والسياق هنا , لأنه يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة , ولعاقبة الإيمان بها وعاقبة التكذيب , لا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة , بل يعلن وجودها عقب الدعوة .
وكذلك لا يذكر تفصيلاً عن الناقة أكثر من أنها بينة من ربهم , وأنها ناقة الله وفيها آية منه , ومن هذا الإسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية , أو أنها أخرجت لهم إخراجاً غير عادي . مما يجعلها بينة من ربهم , ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى , ويجعلها آية على صدق نبوته . . ولا نزيد على هذا شيئاً مما لم يرد ذكره من أمرها في هذا المصدر المستيقن - وفيما جاء في هذه الإشارة كفاية عن كل تفصيل آخر - فنمضي نحن مع النصوص ونعيش في ظلالها:

(فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) . .

إنها ناقة الله , فذروها تأكل في أرض الله , وإلا فهو النذير بسوء المصير . .

وبعد عرض الآية والإنذار بالعاقبة , يأخذ صالح في النصح لقومه بالتدبر والتذكر , والنظر في مصائر الغابرين , والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين:

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد , وبوأكم في الأرض , تتخذون من سهولها قصوراً , وتنحتون الجبال بيوتاً . فاذكروا آلاء الله , ولا تعثوا في الأرض مفسدين).

ولا يذكر السياق هنا أين كان موطن ثمود , ولكنه يذكر في سورة أخرى أنهم كانوا في الحجر - وهي بين الحجاز والشام . . ونلمح من تذكير صالح لهم , أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود , كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه . فهو سهل وجبل , وقد كانوا يتخذون في السهل القصور , وينحتون في الجبال البيوت . فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير . . وصالح يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد , وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها , ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد , وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضاً . وبذلك صاروا خلفاء ممكنين في الأرض , محكمين فيها . وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد , اغتراراً بالقوة والتمكين , وأمامهم العبرة ماثلة في عاد الغابرين !

وهنا كذلك نلمح فجوة في السياق على سبيل الإيجاز والاختصار . فقد آمنت طائفة من قوم صالح , واستكبرت طائفة . والملاهم آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان في الأرض , وترده إلى إله واحد هو رب العالمين ! ولا بد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده , وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد !

وهكذا نرى الملا المستكبرين من قوم صالح يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد:

(قال الملا الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا - لمن آمن منهم - :أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟) . .

وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف , ولاستنكار إيمانهم به , وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه .

ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً ! لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم , والثقة في نفوسهم , والاطمئنان في منطقتهم . . إنهم على يقين من أمرهم , فماذا يجدي التهديد والتخويف ? وماذا تجدي السخرية والاستنكار . . من الملاً المستكبرين ?

(قالوا:إنا بما أرسل به مؤمنون).

ومن ثم يعلن الملاً عن موقفهم في صراحة تحمل طابع التهديد:

(إنا بالذي آمنتم به كافرون). .

على الرغم من البيئة التي جاءهم بها صالح . والتي لا تدع ريبة لمستريب . . إنه ليست البيئة هي التي تنقص الملاً للتصديق . . إنه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد . . إنها عقدة الحاكمية والسلطان , إنها شهوة الملك العميقة في الإنسان ! إنه الشيطان الذي يقود الضالين من هذا الخطام !

وأتبعوا القول بالعمل , فاعتدوا على ناقة الله التي جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه في دعواه ; والتي حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم:

(ففقروا الناقة , وعتوا عن أمر ربهم ; وقالوا:يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين). .

إنه التبحر الذي يصاحب المعصية . ويعبر عن عصيانهم بقوله:(عتوا)لإبراز سمة التبحر فيها , وليصور الشعور النفسي المصاحب لها . والذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالندير:ولا يستأني السياق في إعلان الخاتمة , ولا يفصل كذلك:

(فأخذتهم الرجفة , فأصبحوا في دارهم جاثمين). .

والرجفة والجثوم , جزاء مقابل للعتو والتبحر . فالرجفة يصاحبها الفزع , والجثوم مشهد للعجز عن الحراك . وما أجدر العاتي أن يرتجف , وما أجدر المعتدي أن يعجز . جزاء وفاقاً في المصير . وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير .

وبدعهم السياق على هيئتهم . . (جاثمين). . ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبوه وتحذوه:

(فتولى عنهم , وقال:يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم , ولكن لا تحبون الناصحين).

إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح ; والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب .

. . وهكذا تطوي صفحة أخرى من صحائف المكذبين . ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين . .

الدرس الرابع: 80 - 84 لقطات من قصة لوط مع قومه

وتمضي عجلة التاريخ , فيظلمنا عهد إبراهيم - عليه السلام - ولكن السياق لا يتعرض هنا لقصة إبراهيم . ذلك أن السياق يتحرى مصارع المكذبين ; متناسقاً مع ما جاء في أول السورة: (وكم من قرية أهلكناها , فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون). . وهذا القصص إنما هو تفصيل لهذا الإجمال في إهلاك القرى التي كذبت بالذير . . وقوم إبراهيم لم يهلكوا لأن إبراهيم - عليه السلام - لم يطلب من ربه هلاكهم . بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله . . إنما تجيء هنا قصة قوم لوط - ابن أخي إبراهيم - ومعاصره , بما فيها من إنذار وتكذيب وإهلاك . يتمشى مع ظلال السياق , على طريقة القرآن:

(ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ? إنكم لتأتون الرجال - شهوة - من دون النساء . بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا: أخرجوهم من قريبتكم , إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً , فانظر كيف كان عاقبة المجرمين). .

وتكشف لنا قصة قوم لوط عن لون خاص من انحراف الفطرة ; وعن قضية أخرى غير قضية الألوهية والتوحيد التي كانت مدار القصص السابق . ولكنها في الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد . . إن الاعتقاد في الله الواحد يقود إلى الإسلام لسننه وشرعه . وقد شاءت سنة الله أن يخلق البشر ذكراً وأنثى , وأن يجعلهما شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما , وأن يتم الامتداد في هذا الجنس عن طريق النسل ; وأن يكون النسل من التقاء ذكر وأنثى . . ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة صالحين للتقاء , صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء , مجهزين عضوياً ونفسياً لهذا الالتقاء . . وجعل اللذة التي ينالونها عندئذ عميقة , والرغبة في إتيانها أصيلة , وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله في امتداد الحياة ; ثم لتكون هذه الرغبة الأصيلة وتلك اللذة العميقة دافعاً في مقابل المتاعب التي يلقيانها بعد ذلك في الذرية . من حمل ووضع ورضاعة . ومن نفقة وتربية وكفالة . . ثم لتكون كذلك ضماناً لبقائهما ملتصقين في أسرة , تكفل الأطفال الناشئين , الذين تطول فترة حضانتهم أكثر من أطفال الحيوان , ويحتاجون إلى رعاية أطول من الجيل القديم !

هذه هي سنة الله التي يتصل إدراكها والعمل بمقتضاها بالاعتقاد في الله وحكمته ولطف تدبيره وتقديره . ومن ثم يكون الانحراف عنها متصلاً بالانحراف عن العقيدة , وعن منهج الله للحياة .

ويبدو انحراف الفطرة واضحاً في قصة قوم لوط , حتى أن لوطاً ليجبهم بأنهم بدع دون خلق الله فيها , وأنهم في هذا الانحراف عنها متصلاً بالانحراف عن العقيدة :

(ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ? إنكم لتأتون الرجال - شهوة - من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون). .

والإسراف الذي يدفعهم به لوط هو الإسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية . والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها , لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة , فإذا هم يريقونها ويبعثونها في غير موضع الإخصاب . فهي مجرد (شهوة) شاذة . لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة , فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد .

الفطري , قبل أن يكون فساد الأخلاق . . ولا فرق في الحقيقة . فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية , بلا انحراف ولا فساد .

إن التكوين العضوي للأشياء - كالتكوين النفسي - هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر في هذا الالتقاء , الذي لا يقصد به مجرد "الشهوة" . إنما هذه اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة , إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيتته في امتداد الحياة , مصحوباً بلذة تعادل مشقة التكليف ! فأما التكوين العضوي للذكر - بالنسبة للذكر - فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة ; بل إن شعور الاستقذار ليسبق , فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة .

وطبيعة التصور الاعتقادي , ونظام الحياة الذي يقوم عليه , ذو أثر حاسم في هذا الشأن

..

فهذه هي الجاهلية الحديثة في أوروبا وفي أمريكا ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً . بغير ما مبرر إلا الانحراف عن الاعتقاد الصحيح , وعن منهج الحياة الذي يقوم عليه .

وقد كانت هناك دعوى عريضة من الأجهزة التي يوجهها اليهود في الأرض لتدمير الحياة الإنسانية لغير اليهود , بإشاعة الانحلال العقيدي والأخلاقي . . كانت هناك دعوى عريضة من هذه الأجهزة الموجهة بأناحتجاب المرأة هو الذي ينشر هذه الفاحشة الشاذة في المجتمعات ! ولكن شهادة الواقع تخرق العيون . ففي أوروبا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الكامل بين كل ذكر وكل أنثى - كما في عالم البهائم ! - وهذه الفاحشة الشاذة يرتفع معدلها بارتفاع الاختلاط ولا ينقص ! ولا يقتصر على الشذوذ بين الرجال ; بل يتعداه إلى الشذوذ بين النساء . . ومن لا تخرق عينيه هذه الشهادة فليقرأ: "السلوك الجنسي عند الرجال" و "السلوك الجنسي عند النساء" في تقرير "كنزي" الأمريكي . . ولكن هذه الأجهزة الموجهة ما تزال تردد هذه الأكذوبة , وتسندها إلى حجاب المرأة . لتؤدي ما تريده بروتوكولات صهيون , ووصايا مؤتمرات المبشرين !

ونعود إلى قوم لوط ! فيتجلى لنا الانحراف مرة أخرى في جوابهم لنبيهم:

(وما كان جواب قومه إلا أن قالوا: أخرجوهم من قريبتكم , إنهم أناس يتطهرون)!

يا عجباً ! أو من يتطهر يخرج من القرية إخراجاً , ليبقى فيها الملوثون المدنسون ?!

ولكن لماذا العجب ? وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ? أليست تطارد الذين يتطهرون , فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية - وتسميه تقدمية وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة - أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك ; ولا تطيق أن تراهم يتطهرون ; لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين ?! إنه منطق الجاهلية في كل حين !!

وتعرض الخاتمة سريعاً بلا تفصيل ولا تطويل كالذي يجيء في السياقات الأخرى:

(فأنجيناه وأهله - إلا امرأته كانت من الغابرين - وأمطرنا عليهم مطراً , فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) . .

إنها النجاة لمن تهددهم العصاة . كما أنها هي الفصل بين القوم على أساس العقيدة والمنهج . فامرأته - وهي ألصق الناس به - لم تنج من الهلاك . لأن صلتها كانت بالغايرين المهلكين من قومه في المنهج والاعتقاد .

وقد أمطروا مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف . . ترى كان هذا المطر المغرق , والماء الدافق , لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه , والوحل الذي عاشوا وماتوا فيه !?

على أية حال لقد طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين المجرمين !

الدرس الخامس: 85 - 93 لقطات من قصة شعيب مع قومه مدين

ونأتي للصفحة الأخيرة من صحائف الأقوام المكذبة في تلك الحقبة من التاريخ . .
صفحة مدين وأخيهم شعيب:

وإلى مدين أخاهم شعيباً , قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره , قد جاءتكم بينة من ربكم , فأوفوا الكيل والميزان , ولا تبخسوا الناس أشياءهم , ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها , ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً , واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم , وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا , وهو خير الحاكمين . .

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملئتنا . قال: أو لو كنا كارهين ? قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجاناً الله منها , وما يكون لنا أن نعود فيها - إلا أن يشاء الله ربنا , وسع ربنا كل شيء علماً - على الله توكلنا , ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق , وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه: لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها , الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين , فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم , فكيف أسي على قوم كافرين ?) . .

إننا نجد شيئاً من الإطالة في هذه القصة , بالقياس إلى نظائرها في هذا الموضوع , ذلك أنها تتضمن غير قضية العقيدة شيئاً عن المعاملات , وإن كانت القصة سائرة على منهج الاستعراض الإجمالي في هذا السياق .

(وإلى مدين أخاهم شعيباً , قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

فهي قاعدة الدعوة التي لا تغيير فيها ولا تبديل . . ثم تبدأ بعدها بعض التفصيلات في رسالة النبي الجديد:

(قد جاءتكم بينة من ربكم) . .

ولا يذكر السياق نوع هذه البينة - كما ذكرها في قصة صالح - ولا نعرف لها تحديداً من مواضع القصة في السور الأخرى . ولكن النص يشير إلى أنه كانت هناك بينة جاءهم بها , تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله . ويرتب على هذه البينة ما يأمرهم به نبيهم من

توفية الكيل والميزان , والنهي عن الإفساد في الأرض , والكف عن قطع الطريق على الناس , وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذي ارتضوه:

(فأوفوا الكيل والميزان , ولا تبخسوا الناس أشياءهم , ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها , ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون , وتصدون عن سبيل الله من أمن به , وتبغونها عوجاً , واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم , وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) . .

وندرک من هذا النهي أن قوم شعيب , كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده , إنما يشركون معه عباده في سلطانه ; وأنهم ما كانوا يرجعون في معاملاتهم إلى شرع الله العادل ; إنما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل - ولعل شركهم إنما كان في هذه الخصلة - وأنهم - لذلك - كانوا سيئي المعاملة في البيع والشراء ; كما كانوا مفسدين في الأرض , يقطعون الطريق على سواهم . ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم , ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم ; ويكرهون الاستقامة التي في سبيل الله ; ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة , لا تمضي على استقامتها كما هي في منهج الله .

وببدأ شعيب - عليه السلام - بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالألوهية , وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان في أمر الحياة كله .

يبدأ شعيب - عليه السلام - في دعوتهم من هذه القاعدة ; التي يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها ; كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل . ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه القاعدة .

ويستصحب في دعوتهم إلى الدينونة لله وحده , وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم , وترك الإفساد في الأرض بالهوى بعدما أصلحها الله بالشرعية . . يستصحب في دعوتهم إلى هذا كله بعض المؤثرات الموحية . . يذكرهم نعمة الله عليهم:

(واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم).

وبخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم:

(وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) . .

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر ; فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم , ولا يقعدوا لهم بكل صراط , ولا يأخذوا عليهم كل سبيل , مهديين لهم موعدين . وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين . إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين:

(وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا , فاصبروا حتى يحكم الله بيننا , وهو خير الحاكمين) . .

لقد دعاهم إلى أعدل خطة . ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة . نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى , وترك كل وما اعتنق من دين , حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت . . إن وجود جماعة مسلمة في الأرض , لا تدين إلا لله , ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه , ولا تحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه , ولا تتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه . . إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت - حتى لو انزلت هذه الجماعة في نفسها , وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي مواعده .

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة - حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة - إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل . وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل . . إنها سنة الله لا بد أن تجري . .

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا , أو لتعودن في ملتنا).

هكذا في تبجح سافر , وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش !

إلا أن قوة العقيدة لا تتلثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد . . لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة . . نقطة المسالمة والتعايش - على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء ; وأن يدين للسلطان الذي يشاء: في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين - وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة , تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت . . وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه . . فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم , صدع شعيب بالحق , مستمسكاً بملته , كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها , واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله:

قال: أو لو كنا كارهين ? قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها - إلا أن يشاء الله ربنا , وسع ربنا كل شيء علماً - على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق , وأنت خير الفاتحين . .

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان , ومذاقه في نفوس أهله , كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه . كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع . . مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلى فيه .

قال: أو لو كنا كارهين ?

يستنكر تلك القولة الفاجرة: (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) . . يقول لهم: أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التي نجانا الله منها ?!

(قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) . .

إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت و الجاهلية , التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده , والتي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله . . إن الذي يعود إلى هذه الملة - بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق , وهده إلى الحق , وأنقذه من العبودية للعبيد - إنما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت ! أو مؤداها - على الأقل - أن لملة الطاغوت حقاً في الوجود , وشرعية في السلطان ; وأن وجودها لا

يتنافى مع الإيمان بالله . فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله . . وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى , ولم يرفع راية الإسلام . شهادة الاعتراف براءة الطغيان . ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة !

وكذلك يستنكر شعيب - عليه السلام - ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التي أنجاهم الله منها:

(وما يكون لنا أن نعود فيها) . .

وما من شأننا أصلاً ; وما ينبغي لنا قطعاً أن نعود فيها . . يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة , التي تعلن خروجها عن سلطانه , ودينوتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه .

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت ! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة ! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه "الإنسانية" لا توجد , والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟! . وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به , ورضاه أو غضبه عليه؟! . وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان!?

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة . . إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج . كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات . فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها , فيذبهم على مذبح هواه , ويقيم من جماعهم وأشبائهم أعلام المجد لذاته والجاه ! ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية . . حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريد بها الطواغيت , سواء في صورة الغصب المباشر - كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ - أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبا مباحا للشهوات تحت أي شعار ! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار . . والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياته أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله . إنما يعيش في وهم , أو يفقد الإحساس بالواقع !

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال . . ومهما تكن تكاليف العبودية لله , فهياربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة . فضلاً على وزنها في ميزان الله .

يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتاب: "الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية":

" . . . وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية , لا يخفى عليه أن المسألة - التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها - إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها . وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه , وأنه لا بد للركاب أن يسافروا - طوعاً أو كرهاً - إلى تلك الجهة نفسها . فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من

بأيديهم زمام أمر تلك المدنية . ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تآبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طراً ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر ، ويدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وأمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية ، وإنشاء النظام الجماعي ، وتحديد القيم الخلقية . فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه . . فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الخيئ الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم . وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تربو . إن لم تحقق وتنقرض آثارها . وأما إذا كانت هذه السلطة - سلطة الزعامة والقيادة والإمامة - بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله ، واتبعوا الشهوات ، وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها . . . "

. . . "والظاهر أن أول ما يطالب به دين الله عباده ، أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد ، حتى لا يبقى في اعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى . ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول الأمي الكريم - [ص] - ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد ، وتستأصل شافة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه . وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ؛ ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ، يذكرون الله قابعين في زواياهم ، منقطعين عن الدنيا وشؤونها ، مغتتمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات ! ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأساسه . والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضي الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقايس عن القيام بها . . ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة - ولو قيد شعرة - وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق ، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض . وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية ، والذي يضعف القوة الجماعية ويفت في عضدها ، يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد . . ثم انظروا إلى ما كسب "الجهاد" من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين ، حتى إنالقرآن ليحكم "بالنفاق" على الذين ينكلون عنه ويثاقلون إلى الأرض . ذلك أن "الجهاد" هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق ، ليس غير . وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين . وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل ، أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق . . فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب ، فاعلم أنه مدخول في إيمانه ، مرتاب في أمره ، فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك ؟ . . . "

... "إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام . فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق , لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام , ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب , بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعدته في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله , ويرجون حسابه , ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضي عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها" . .

إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر ورده كله لله , إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد ; كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم . . إنه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت - تحت رايته - بكل ما فيها من تضحيات ; ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول , كما أنها أذل وأحقر ! . . إنه يدعوهم للكرامة , وللسلامة , في أن . .

لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة:

(قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها , وما يكون لنا أن نعود فيها . .).

ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه , ويقدر ما يرفع صوته , في مواجهة طواغيت البشر من الملائكة الذين استكبروا من قومه . . يقدر ما يخفض هامته , ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل , الذي وسع كل شيء علماً . فهو في مواجهة ربه , لا يتألى عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره , ويدع له قياده وزمامه , ويعلن خضوعه واستسلامه:

(إلا أن يشاء الله ربنا , وسع ربنا كل شيء علماً) . .

إنه يفوض الأمر لله ربه , في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه . . إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت , من العودة في ملتهم ; ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ; ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته . . ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم . . فالأمر موكول إلى هذه المشيئة , وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون , وربهم وسع كل شيء علماً . فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .

إنه أدب ولي الله مع الله . الأدب الذي يلتزم به أمره , ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره . ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه .

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم , ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق , يدعوهم أن يفصل بينه وبين قومه بالحق:

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَلْحَاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَعْتَوُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْحَاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ

رَّبِّي وَيَصْحَتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا
أَحَدْنَا أَهْلَهَا بِالتَّاسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَصَّرَعُونَ (94)

(على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين) .

وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر: مشهد تجلي حقيقة "الألوهية" في نفس ولي الله ونبيه .

إنه يعرف مصدر القوة , وملجأ الأمان . ويعلم أن ربه هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان . ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه , والتي ليس منها مفر . إلا بفتح من ربه ونصر .

عندئذ يتوجه الملائكة الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم . ليفتنوهم عن دينهم: (وقال الملائكة الذين كفروا من قومه: لئن اتبعتم شعبياً إنكم إذا لخاسرون) .

إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير . . إن الطواغيت يتوجهون أولاً إلى الداعية ليكف عن الدعوة . فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه , واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته , ولم يرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل . . تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد , ثم بالبطش والعذاب . . إنهم لا يملكون حجة على باطلهم , ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ; ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم - وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل - ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان , الذي أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان .

ولكنه من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل , ويقفان وجهاً لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة الله التي لا تتخلف . . وهكذا كان . .

(فأخذتهم الرجفة , فأصبحوا في دارهم جاثمين) . .

الرجفة والجنوم , جزاء التهديد والاستطالة , وبسط الأيدي بالأذى والفتنة . .

وبرد السياق على قولتهم: (لئن اتبعتم شعبياً إنكم إذا لخاسرون) . . وهي التي قالوها مهتدين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ! فيقرر - في تهكم واضح - أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعبياً , إنما كان من نصيب قوم آخرين:

(الذين كذبوا شعبياً كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعبياً كانوا هم الخاسرين) . .

ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين . لا حياة ولا حراك . كأن لم يعمرؤا هذه الدار , وكان لهم فيها آثار !

ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكي والإهمال , والمفارقة والانفصال , من رسولهم الذي كان آخاهم , ثم افترق طريقه عن طريقهم , فافترق مصيره عن مصيرهم , حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم , وعلى ضيعتهم في الغابرين:

(فتولى عنهم , وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم , فكيف آسى على قوم كافرين (?)) . .

إنه من ملة وهم من ملة . فهو أمة وهم أمة . أما صلة الأنساب والأقوام , فلا اعتبار لها في هذا الدين , ولا وزن لها في ميزان الله . . فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين , والارتباط بين الناس إنما يكون في حبل الله المتين . .

انتهى الجزء الثامن وبليه الجزء التاسع مبدوءاً بقوله تعالى: (قال الملاً الذين استكبروا)

بسم الله الرحمن الرحيم

من بقية سورة الأعراف وأول سورة الأنفال

الجزء التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء التاسع

هذا الجزء - التاسع - يتألف من شطرين: الشطر الأول هو بقية "سورة الأعراف" - من القرآن المكي - وهو يؤلف ثلاثة أرباع هذا الجزء . . والشطر الثاني هو نصف الحزب الأول من سورة الأنفال - من القرآن المدني - وهو يؤلف الربع الباقي من الجزء . .

وسنكتفي هنا بالعرض الإجمالي للشطر الأول . ونرجىء الشطر الثاني إلى موضعه . حيث نقدم - إن شاء الله - سورة الأنفال ; وفق المنهج الذي اتبعناه في التعريف بسورة القرآن . .

مضى في الجزء الثامن - في الشطر الذي استعرضناه هناك من سورة الأعراف - قصص الرسل والرسالات والأقوام بعد آدم عليه السلام . وعرضنا من موكب الإيمان هناك قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم السلام - ومصارع المكذبين من أقوامهم ونجاة المؤمنين .

فالآن يبدأ هذا الجزء بتكملة لقصة شعيب - عليه السلام - وقد اخترنا أن نضمها إلى نهاية الجزء الثامن تكملة للقصة هناك . .

ثم يقف سياق السورة وقفة للتعقيب على ذلك القصص - وفق منهج السورة - فيكشف في هذا التعقيب عن خطوات قدر الله بالمكذبين . . كيف يأخذهم بالبأساء والضراء لعل قلوبهم تصحو وترق , وتلجأ إلى الله وتتضرع إليه , فإذا لم تستيقظ هذه القلوب ولم تتفتح ولم تنتفع بالابتلاء , أخذهم الله بالسراء - وهي أشد في الابتلاء - حتى يزدادوا عن قدر الله غفلة , ويظنوا الحياة لهواً ولعباً . وعندئذ يأخذهم الله بغتة على حين غفلة: (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عَفُوا , وقالوا: قد مس آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون). .

وهنا يكشف السياق كذلك عن العلاقة بين القيم الإيمانية وسنن الله في أخذ الناس , حيث لا انفصال في خطوات قدر الله بين هذه السنن وتلك القيم . هذه العلاقة التي تخفى على الغافلين , لأن آثارها قد لا تبدو في المدى القريب ; ولكنها لا بد واقعة في المدى الطويل: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ; ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون). .

ويعقب الكشف عن خطوات قدر الله بالمكذبين ; وسنته وعلاقتها بالقيم الإيمانية في حياة البشر ; لمسات من التهديد تهز القلوب ; ولفترات إلى مصارع المكذبين توقظ الغافلين: (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ? أفأمنوا مكر الله ? فلا يأمنكم الله إلا القوم الخاسرون) (أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونها أصبناهم بذنوبهم , ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون). .

وينتهي هذا التعقيب بلفتة إلى رسول الله [ص] عن هذا القصص ; وتلخيص لأمر الأقوام التي كذبت من قبل ; ووصف لحقيقة حالهم ونسيانهم لعهد الله معهم على الاعتراف بالوهيته ووجدانيته ; وعدم جدوى الآيات والبيانات والخوارق التي جاءهم بها رسلهم , بسبب تعطل فطرتهم وغفلة قلوبهم:(تلك القرى نقص عليك من أنبائها . ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات , فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد , وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين). .

تقديم قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل

وبعد هذه الوقفة للتعقيب على مصارع قوم نوح , وقوم هود , وقوم صالح , وقوم لوط , وقوم شعيب . . تجيء قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه أولاً ; ثم مع قومه بني إسرائيل أخيراً . . وتشغل قصة موسى في هذه السورة أوسع مساحة وأكبر قدر شغلته في سورة واحدة من سور القرآن كلها . . وقد وردت حلقات من قصة بني إسرائيل في مواضع كثيرة ; وذلك عدا الإشارات القصيرة إليها في مواضع من القرآن أخرى . . وكانت أكثر القصص وروداً في القرآن كله . . ولعل ذلك التفصيل في قصة هذه الأمة كان للحكمة التي أشرنا إليها من قبل - في هذه الظلال - في الجزء السادس في صفحتي 868 - 869 على النحو التالي:

"من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها . فقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول . هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة ; وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معا . وهم الذين حرصوا المشركين وواعدوهم وتأمروا معهم على الجماعة المسلمة . وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم ; كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة . وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة . . فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة , لتعرف من هم أعداؤها: ما طبيعتهم ? وما تاريخهم ? وما وسائلهم ? وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم ?

"ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله ; كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله . فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفاً ; ووسائلهم كلها مكشوفة .

"ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير . وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة طويلة ; ووقعت الانحرافات في عقيدتهم , ووقع منهم النقص المتكرر لميثاق الله معهم ; ووقع في حياتهم آثار هذا النقص وهذا الانحراف , كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم . . فاقترضوا هذا أن تلم الأمة المسلمة - وهي وارثة الرسائل كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها - بتاريخ القوم , وتقليبات هذا التاريخ ; وتعرف مزالق الطريق وعواقبها , ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم , لتضم هذه

التجربة - في حقل العقيدة والحياة - إلى حصيلة تجاربها ; وتنتفع بهذا الرصيد وتنتفع على مدار القرون . ولتتقي - بصفة خاصة - مزلق الطريق , ومداخل الشيطان , وبوادر الانحراف , على هدى التجارب الأولى .

"ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل . وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها , وتنحرف أجيال منها ; وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة , ستصادفها فترات تمثل فترات من حياة بني إسرائيل ; فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجدي الدعوة في أجيالها الكثيرة , نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم ; يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته . ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت ! فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة , لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها , وينفض عنها الركام , لجدته عليها , وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة . فأما القلوب التي نوديت من قبل , فالنداء الثاني لا تكون له جدته . ولا تكون له هزته ; ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته ; ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف , وإلى الصبر الطويل ! " . .

... الخ

وقد وردت حلقات من قصة موسى - عليه السلام - وبني إسرائيل من قبل في هذه الظلال - المرتبة وفق ترتيب السور في المصحف لا وفق ترتيب النزول - في سورة البقرة , وسورة آل عمران , وسورة النساء , وسورة المائدة , وسورة الأنعام . . ولكن إذا اعتبرنا ترتيب النزول , فإن هذه الحلقات الواردة منها هنا في سورة الأعراف المكية تكون سابقة على ما ورد منها في السور المدنية . وذلك ظاهر من طبيعة عرضها هنا وطبيعة عرضها هناك . فهي هنا تعرض على طريقة الحكاية والقصص . وهناك تعرض على سبيل مواجهة بني إسرائيل بها , وتذكيرهم بأحداثها ووقائعها ومواقفهم فيها .

ولقد وردت القصة في أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن كله - مكية ومدنية - ولكن ورودها مفصلة اقتصر على عشرة مواضع في عشر سور منها ستة مواضع هي أكثرها تفصيلاً . والذي ورد منها في سورة الأعراف كان أول تفصيل . . كما أنه هو أوسع مساحة . وإن تكن الحلقات التي وردت في هذه المساحة أقل مما ورد منها في سورة طه .

وهي تبدأ هنا من حلقة مواجهة فرعون وملئه بالرسالة . بينما تبدأ في سورة طه من حلقة النداء لموسى - عليه السلام - في جانب الطور . وتبدأ في سورة القصص من حلقة مولد موسى في فترة اضطهاد بني إسرائيل . . ويبدأ عرضها - متناسقاً مع جو السورة وأهدافها على طريقة القرآن في سياقة القصص كله - بالتوجيه إلى عاقبة تكذيب فرعون وملئه . وذلك منذ اللحظة الأولى في عرضها: (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه , فظلموا بها . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين).

ثم تمضي حلقات القصة ومشاهدها . . أولاً . . في مواجهة فرعون وملئه . . وأخيراً في مواجهة بني إسرائيل , والتوائهم وزيفهم وانحرافهم !

ولما كنا سنستعرض القصة - فيما بعد - بالتفصيل . فإننا نكتفي هنا بالوقوف أمام معالمها البارزة وموحياتها الكلية:

عبوديتهم لهذه الربوبية . . أو بتعبير آخر لهذه الحاكمية . . وإلا فقد أنكروا ربوبية الله لهم متى خضعوا لحاكمية أحد غيره . لا يحكمهم بشرعه .

ولقد أدرك فرعون وملؤه خطر الدعوة إلى (رب العالمين). وأحسوا أن توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون - وسلطانهم المستمد منه - فعبروا عن هذا الخطر بأن موسى يريد أن يخرجهم من أرضهم: (قال الملائمة من قوم فرعون: إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟). . (وقال الملائمة من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك والتهتك ؟). . وما أرادوا إلا أن هذه الدعوة إلى رب العالمين لا تحمل إلا مدلولاً واحداً هو انتزاع السلطان من يد العبيد - الطواغيت - وردة إلى صاحبه - سبحانه - وهذا معناه - من وجهة نظرهم - الإفساد في الأرض ! أو كما يقال اليوم في قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها: إنها محاولة لقلب نظام الحكم ! ومن وجهة نظر الطواغيت الجاهلية التي تغتصب سلطان الله - أي تغتصب ربوبيته وتزاول اختصاصاتها ولو لم تقل هذا باللسان - يكون هذا "قلباً" لنظام الحكم . لأن نظام الحكم في الجاهليات يقوم على ربوبية عبد من العبيد لبقية العبيد . بينما الدعوة إلى رب العالمين تعني أن تكون الربوبية على العبيد لخالق العبيد ! وكذلك قال فرعون للسحرة الذين بهرهم الحق فأمنوا برب العالمين ; وخلعوا ريقه العبودية له بهذا الإعلان: إنهم يمكرون لإخراج أهل المدينة من مدينتهم . وهددهم بأبشع العذاب والنكال: قال فرعون: أمنتكم به قبل أن أذن لكم ! إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف , ثم لأصلبنكم أجمعين . .

ومن الجانب الآخر كان هؤلاء السحرة الذين آمنوا برب العالمين ; وأسلموا لله وحده ; وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المغتصب للربوبية واختصاصاتها . . كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت . إنها المعركة على العقيدة . لأن هذه العقيدة تهدد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خاصة لرب العالمين . بل بمجرد إعلان أن الله رب العالمين ! ومن ثم قالوا لفرعون رداً على اتهامه لهم بأن هذا مكر مكروه في المدينة ليخرجوا منها أهلها - وهو مرادف للاتهام في الجاهليات الحديثة لكل من يعلن ربوبية الله للعالمين بمعناها الجاد بأنه يعمل على قلب نظام الحكم ! - : (وما تنقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا). . ثم لجأوا إلى ربهم الذي آمنوا به فتمردوا على العبودية لغيره قائلين: (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين). . فكان هذا فرقانا جعله الله في قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام لله فيها .

ومن خلال عرض الآيات التي جاء بها موسى لفرعون وملئه ; وما أخذهم الله به من السنين ونقص الثمرات , وما أرسله عليهم من الآفات . ومواجهتهم لهذا كله بالعناد والمراوغة والإصرار في النهاية على ما هم فيه حتى أهلكهم الله كما يقول تعالى: ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا: لنا هذه , وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه - ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون - وقالوا: مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم , آيات مفصلات , فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك . لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك , ولنرسلن معك بني إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز - إلى أجل هم بالغوه - إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . . من خلال عرض هذا كله يتبين مدى إصرار الطاغوت على الباطل في وجه الحق . ومدى مقاومته للدعوة إلى (رب العالمين). . ذلك أنه يعلم علم اليقين أن هذه الدعوة بذاتها هي حرب عليه , بإنكار شرعية قيامه من أساسه ! وما

يمكن أن يسمح الطاغوت بإعلان أن لا إله إلا الله . أو أن الله هو رب العالمين . إلا حين تفقد هذه الكلمات مدلولها الحقيقي , وتصبح مجرد كلمات لا مدلول لها . . وهي في مثل هذه الحالة لا تؤذيه ! لأنها لا تعنيه ! فأما حين تأخذ عصبة من الناس هذه الكلمات جداً بمدلولها الحقيقي , فإن الطاغوت الذي يزاول الربوبية - بمزاولته للحاكمية بغير شرع الله , وتعبيد الناس له بهذه الحاكمية وعدم إرسالهم لله - لا يطبق هذه العصبة . كما لم يطق فرعون دعوة موسى إلى رب العالمين , وإعلان السحرة المؤمنين أنهم آمنوا برب العالمين . وكما ظل هو والملا من قومه مصرين على رد هذه الدعوة , والآيات تتوالى عليهم , والنكبات كذلك تتوالى عليهم من الجذب والآفات والجوع والبلاء . ولكن هذا كله كان عندهم أيسر وأهون من التسليم بربوبية الله للعالمين . لما تحويه من مدلول صريح بعزلهم هم عن مزاوله هذا السلطان المغتصب , الذي يعبدون به الناس لغير رب العالمين !

كذلك تتجلى من خلال عرض هذه الآيات خطوات قدر الله بالمكذبين . . من أخذهم بالبأساء والضراء . ثم أخذهم بالرخاء والسراء . ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر في نهاية المطاف ! والتمكين للمؤمنين الذين كانوا يستضعفون : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها , وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا , ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه , وما كانوا يعرشون) . .

ولكن بني إسرائيل غلبت عليهم جبلتهم الملتوية الخبيثة . ففسقوا عن أمر الله - كما يجلو السياق القرآني ذلك - وراوغوا موسى نبيهم وزعيمهم ومنقذهم مراوغة مؤذية ; وعصوا وبطروا النعمة ولم يستقيموا ولم يشكروا ; وتكرر منهم ذلك كله بعد مغفرة الله لهم وقبولهم مرة بعد مرة , إلى أن حقت عليهم كلمة الله في النهاية : (وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إن ربك لسريع العقاب , وإنه لغفور رحيم) . .

ولقد صدق وعيد الله . . ولا بد أن يصدق في مقبل الأيام . . وإنما هي دورات لهم في التاريخ . حتى إذا عتوا وأفسدوا وتجبروا واشتد أذاهم , بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة !

وأخيراً فإن هذه السورة مكية . وقد ورد فيها عن التواء بني إسرائيل ومعصيتهم وسوء جبلتهم الكثير . . بينما يزعم المستشرقون - اليهود والصليبيون سواء - أن محمداً [ص [لم يهاجم اليهود - بزعمهم - بهذا القرآن إلا بعد أن يئس في المدينة من استجابتهم له . وأنه كان يحاسنهم في مكة , وفي أول عهده بالمدينة . فيقول - بزعمهم - قرآناً لا يهاجمهم فيه ; إنما يحدثهم عن التقاء العرب بهم في النسب إلى جدهم إبراهيم ! طمعاً في إسلامهم له ! فلما يئس منهم هاجمهم هذا الهجوم . . وكذبوا . فهذه سورة مكية تصف الحق في شأنهم , لا فرق بين ما جاء فيها وما جاء في سورة البقرة المدنية في هذا الحق الذي لا يتبدل . . وإذا نحن تجاوزنا عن الآيات من 163 إلى 170 في هذه السورة بوصفها مدنية , وهي التي ورد فيها تأذن الله - سبحانه - بأن يرسل عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة , فإن الآيات التي قبلها والتي بعدها والتي لا شك في أنها مكية تضمنت الحق في جيلة بني إسرائيل . وفيها ذكر عبادتهم للعجل . . وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهاً صنماً بينما هم خارجون من مصر باسم الله الواحد ! وأخذ الرجفة لهم لأنهم أبوا الإيمان إلا أن يروا الله جهرة . وتبديلهم قول الله لهم وهم يدخلون القرية . . الخ مما يدمغ أولئك الزاعمين من المستشرقين بالافتراء على التاريخ بعد الافتراء على الله ورسوله . . وهؤلاء هم الذين يتخذهم بعض من يكتبون عن الإسلام أساتذة لهم فيما يكتبون !

وحسبنا هذه المعالم في القصة حتى نواجه نصوصها بالتفصيل .

تعريف بباقي موضوعات الأعراف

وإذا كانت القصة بطولها مسوقة في هذه السورة - في استعراض موكب الإيمان - لتدل على خطوات قدر الله مع المكذبين , ولتصور العلاقة بين القيم الإيمانية وسنة الله في الحياة البشرية , فإنها مسوقة كذلك لبيان طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ; ممثلتين في شخوص القصة وأطرافها . وقد ختمت بمشهد أخذ الميثاق على بني إسرائيل , تحت المعاينة الكاملة لبأس الله الشديد: (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة , وظنوا أنه واقع بهم , خذوا ما آتيناكم بقوة , واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) . .

لذلك أعقب هذا المشهد مشهد أخذ الميثاق على فطرة البشر كافة: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم , وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم ? قالوا: بلى ! شهدنا . . أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا: إنما أشرك آبؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم , أفتهلكنا بما فعل المبطلون ?) . .

وأعقب هذا المشهد مشهد الذي ينسلخ من هذا العهد , كما ينسلخ من العلم بآيات الله بعد إذ أراه إياها . . وهو مشهد مثير . . وفيه لمسات قوية للتنفير من هذا الانسلاخ , والتحذير من مآله المنظور: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا , فانسلخ منها , فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها , ولكنه أخلد إلى الأرض , واتبع هواه . فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا , وأنفسهم كانوا يظلمون) . .

ثم بيان لطبيعة الهدى وطبيعة الكفر . يكشف عن أن الكفر تعطل في أجهزة الفطرة يحول دون تلقي هدى الله , وينتهي بالخسارة المطلقة: (من يهد الله فهو المهتدي , ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس , لهم قلوب لا يفقهون بها , ولهم أعين لا يبصرون بها , ولهم أذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون) . .

تعقب هذا البيان لفتة إلى المشركين الذين كانوا يواجهون دعوة الإسلام في مكة بالتكذيب , ويلحدون في أسماء الله فيشتقون منها أسماء الآلهة المفتراة . وتهديد لهم باستدراج الله . ودعوة لهم كذلك أن يتفكروا تفكراً عميقاً بعيداً عن الهوى في أمر صاحبهم الذي يدعوهم إلى الهدى [ص] فينبزونه بأن به جنة ! وإلى أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما في صفحات الوجود من موحيات الهدى ; ولمسة لهم بالموت الذي يترقبهم وهم عنه غافلون: ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها , وذرؤا الذين يلحدون في أسمائه . سيجزون ما كانوا يعملون . وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . . وأملي لهم إن كيدي متين . . أولم يتفكروا ? ما بصاحبهم من جنة . إن هو إلا نذير مبين . أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض , وما خلق الله من شيء , وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ? فبأي حديث بعده يؤمنون ? من يضل الله فلا هادي له , ويذرهم في طغيانهم يعمهون . .

ومواجهة كذلك لهؤلاء المشركين في تكذيبهم بالساعة , وسؤالهم عن مواعدها . . مواجهة بضخامة هذا الشأن الذي يسألون عنه مستهينين , وهول هذا الأمر الذي

يتناولونه مستخفين . وجلاء كذلك لطبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ; وتقرير لحقيقة الألوهية وتفرد الله سبحانه بكل خصائصها . ومنها علم الغيب ; وتجلية الساعة ; (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل:إنما علمها عند ربي , لا يجليها لوقتها إلا هو , ثقلت في السماوات والأرض , لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفي عنها ! قل:إنما علمها عند الله , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل:لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً - إلا ما شاء الله - ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون). .

وفي سياق مواجهة المشركين يحيى بيان عن طبيعة الشرك وقصة الانحراف عن عهد الفطرة بتوحيد الله , وكيف يقع في النفس هذا الانحراف . . وكأنما هو تصوير لانحراف جيل المشركين بعد أن كان أسلافهم الأولون على دين إبراهيم الحنيف: (هو الذي خلقكم من نفس واحدة , وجعل منها زوجها ليسكن إليها , فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به . فلما أثقلت دعوا الله ربهما:لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما أتاهما صالحا جعل له شركاء فيما آتاهما . فتعالى الله عما يشركون . أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ؟). . إنه تمثيل للأجيال المتلاحقة بصورة الحالات المتتابة في النفس الواحدة . . وهو تصوير ذو دلالات عجيبة في صدقها وفي جمالها جميعاً . .

ولأن المقصود هو تمثيل حالة المشركين الذين كان هذا القرآن يواجههم فإن السياق ينتقل مباشرة من المثل إلى مخاطبتهم مواجهة , ويوجه الرسول [ص] إلى تحديهم هم وأهلتهم: وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم , سواء عليكم أذعوتموهم أم أتمت صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم , فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . أ لهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيدي يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم أذان يسمعون بها ؟ قل:ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا . وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون . .

وفي نهاية السورة يتجه الخطاب إلى رسول الله [ص] وإلى الأمة المسلمة . يوجهه إلى اليسر في أخذ الناس في هذه الدعوة ; ونهضة النفس عن الغضب مما يبدر منهم من تقاعس واعتراض ; والاستعاذة من الشيطان الذي يثير الغضب ويحقن الصدر: خذ العفو . وأمر بالعرف ; وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله , إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا:لولا اجتبيتها ! قل:إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي , هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . .

وهذا التوجيه يذكرنا بما ورد في مطلع السورة:(كتاب أنزل إليك , فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به وذكرى للمؤمنين). . فهو يشي بثقل هذا العبء - عبء دعوة الناس , ومواجهة ما في نفوسهم من روااسب وركام وعقاييل , والتواءات وأغراض وشهوات , وغفلة وثقله وتقاعس . . وضرورة الصبر . . وضرورة اليسر . . وضرورة السير أيضاً في الطريق !

ثم توجيهه إلى الزاد المعين على مشاق الطريق . . الاستماع والإنصات إلى القرآن . . وذكر الله في كل أن وفي كل حال . والحذر من الغفلة . والافتداء بالمقربين من

الملائكة في الذكر والعبادة: وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون .
واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة , ودون الجهر من القول بالغدو والآصال , ولا تكن
من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون . .

إنه زاد الطريق . وأدب العبادة . ومنهج المقرين الموصولين . .

وحسبنا هذه الإشارات المجملة لنواجه النصوص بالتفصيل . .

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الصَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ
بَعْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَهَامِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ
يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيَّاتًا وَهُمْ تَائِمُونَ (97) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا صُحًى وَهُمْ
يَلْعَبُونَ (98) أَقَامِنُوا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمِنُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99) أَوْلَمْ يَهْدِ
لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ (100)

الوحدة السابعة: 94 - 102 سنة الله في المكذبين الكافرين مقدمة الوحدة هذه وقفة
في سياق السورة للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح , وقوم هود , وقوم صالح
, وقوم لوط , وقوم شعيب . . وقفة لبيان سنة الله التي جرت بها مشيئته وحققتها قدره
بالمكذبين في كل قرية - والقرية هي المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية - وهي سنة
واحدة يأخذ الله بها المكذبين ; ويتشكل بها تاريخ الإنسان في جانب منه أصيل . . أن
يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء ; لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله , وتعرف
حقيقة ألوهيته وحقيقة عبودية البشر لهذه الألوهية وحقيقة عبودية البشر لهذه الألوهية
القاهرة . فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء , وفتح عليهم الأبواب , وتركهم
ينمون ويكثرون ويستمتعون . . كل ذلك للابتلاء . . حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية
إلى الاستهتار والترخص , وإلى الغفلة وقلة المبالاة , وحسبوا أن الأمور تمضي جزافاً بلا
قصد ولا غاية , وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء , وأنه إنما أصابهم ما
أصاب آباءهم من قبل لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير: (وقالوا: قد مس آباءنا الضراء
والسراء)! أخذهم الله بعتة , وهم سادرون في هذه الغفلة . لم يدركوا حكمة الله في
الابتلاء بالضراء والسراء , ولم يتدبروا حكمته في تقلب الأمور بالعباد , ولم يتقوا غضبه
على المستهترين الغافلين , وعاشوا كالأنعام بل أضل حتى جاءهم بأس الله . . ولو أنهم
آمَنوا بالله واتقوه لتبدلت الحال , ولحلت عليهم البركات , ولأفاض الله عليهم من رزقه
في السماء والأرض , ولأنعم عليهم نعيمه المبارك الذي تطمئن به الحياة , ولا يعقبه
النكال والبوار . .

ثم يحذر الله الذين يرتون الأرض من بعد أهلها . . يحذرهم الغفلة والغرة , ويدعوهم إلى
اليقظة والتقوى ,

تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا
كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (101) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102)

وبلغتهم إلى العبرة في مصارع الغابرين الذين ورثوا هم الأرض من بعدهم , فإنما تنتظرهم سنة الله التي لا تتبدل , والتي يتكيف بها تاريخ البشر على مدارج القرون .

وتنتهي الوقفة بتوجيه الخطاب إلى الرسول [ص]: (تلك القرى نقص عليك من أنبيائها . . لإظهاره على سنة الله فيها , وعلى حقيقة هذه القرى وأهلها:(وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين). . فهذا الرسول الأخير وأمه هم الوارثون لحصيلة رسالة الله كلها , وهم الذين يفيدون من أنبيائها وعظاتها . .

الدرس الأول: 94 - 96 سنة الله في الإبتلاء بالضر والخير ثم الهلاك

(وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا , وقالوا: قد مس آباءنا الضراء والسراء . فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ; ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون). .

إن السياق القرآني هنا لا يروي حادثة , إنما يكشف عن سنة . ولا يعرض سيرة قوم إنما يعلن عن خطوات قدر . . ومن ثم يتكشف أن هناك ناموساً تجري عليه الأمور ; وتتم وفقه الأحداث ; ويتحرك به تاريخ "الإنسان" في هذه الأرض . وأن الرسالة ذاتها - على عظم قدرها - هي وسيلة من وسائل تحقيق الناموس - وهو أكبر من الرسالة وأشمل - وأن الأمور لا تمضي جزافا ; وأن الإنسان لا يقوم وحده في هذه الأرض - كما يزعم الملحدون بالله في هذا الزمان ! - وأن كل ما يقع في هذا الكون إنما يقع عن تدبير , ويصدر عن حكمة , ويتجه إلى غاية . وأن هنالك في النهاية سنة ماضية وفق المشيئة الطليقة ; التي وضعت السنة , وارتضت الناموس . . ووفقاً لسنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة كان من أمر تلك القرى ما كان , مما حكاها السياق . ويكون من أمر غيرها ما يكون !

إن إرادة الإنسان وحركته - في التصور الإسلامي - عامل مهم في حركة تاريخه وفي تفسير هذا التاريخ أيضا . ولكن إرادة الإنسان وحركته إنما يقعان في إطار من مشيئة الله الطليقة وقدره الفاعل . . . والله بكل شيء محيط . . وإرادة الإنسان وحركته - في إطار المشيئة الطليقة والقدر الفاعل - يتعاملان مع الوجود كله , ويتأثران ويؤثران في هذا الوجود أيضا . . فهناك زحمة من العوامل والعوامل المحركة للتاريخ الإنساني ; وهناك سعة وعمق في مجال هذه الحركة ; مما يبدو إلى جانبه "التفسير الاقتصادي للتاريخ" و"التفسير البيولوجي للتاريخ" , و"التفسير الجغرافي للتاريخ" . . . بقعا صغيرة في الرقعة الكبيرة . وعبثا صغيرا من عبث الإنسان الصغير !

(وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون). .

فليس للعبث - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - يأخذ الله عباده بالشدة في أنفسهم وأبدانهم وأرزاقهم وأموالهم . وليس لإرواء غلة ولا شفاء إحنة - كما كانت أساطير الوثنيات تقول عن آلهتها العابثة الحاقدة ! إنما يأخذ الله المكذبين برسله بالبأساء والضراء , لأن من طبيعة الابتلاء بالشدة أن يوقظ الفطرة التي ما يزال فيها خير يرجى , وأن يرقق القلوب التي طال عليها الأمد متى كانت فيها بقية ; وأن يتجه بالبشر الضعاف إلى خالقهم القهار ; يتضرعون إليه ; ويطلبون رحمته وعفوه ; ويعلنون بهذا التضرع عن عبوديتهم له -والعبودية لله غاية الوجود الإنساني - وما بالله سبحانه من حاجة إلى تضرع

العباد وإعلان العبودية: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . .

ولو اجتمع الإنس والجن - على قلب رجل واحد - على طاعة الله ما زاد هذا في ملكه شيئاً . ولو اجتمع الإنس والجن - على قلب رجل واحد - على معصيته - سبحانه - ما نقصوا في ملكه شيئاً [كما جاء في الحديث القدسي] . . ولكن تضرع العباد وإعلان عبوديتهم لله إنما يصلحهم هم ; ويصلح حياتهم ومعاشهم كذلك . . فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه . . تحرروا من العبودية للشيطان الذي يريد ليغويهم - كما جاء في أوائل السورة - وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم . وتحرروا من العبودية للعبيد من أمثالهم ; واستحيوا أن يتبعوا خطوات الشيطان ; واستحيوا أن يغضبوا الله بعمل أو نية وهم يتجهون إليه في الشدة ويتضرعون , واستقاموا على الطريقة التي تحررهم وتطهرهم وتزكّيهم , وترفعهم من العبودية للهوى والعبودية للعبيد !

لذلك اقتضت مشيئة الله أن يأخذ أهل كل قرية يرسل إليها نبياً فتكذبه , بالبأساء في أنفسهم وأرواحهم , وبالضراء في أبدانهم وأموالهم , استحياء لقلوبهم بالألم . والألم خير مهذب , وخير مفجر لينايع الخير المستكنة , وخير مرهف للحساسية في الضمائر الحية , وخير موجه إلى ظلال الرحمة التي تنسم على الضعاف المكروبين نسمات الراحة والعافية في ساعات العسرة والضيق . . (لعلمهم يضرعون) . .

(ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) . .

فإذا الرخاء مكان الشدة , واليسر مكان العسر , والنعمة مكان الشظف , والعافية مكان الضر , والذرية مكان العقر , والكثرة مكان القلة , والأمن مكان الخوف . وإذا هو متاع ورخاء , وهينة ونعماء , وكثرة وامتلاء . . وإنما هو في الحقيقة اختبار وابتلاء . .

والابتلاء بالشدة قد يصبر عليه الكثيرون , ويحتمل مشقاته الكثيرون . فالشدة تستثير عناصر المقاومة . وقد تذكر صاحبها بالله - إن كان فيه خير - فيتجه إليه ويتضرع بين يديه , ويجد في ظله طمأنينة , وفي رحابه فسحة , وفي فرجه أملاً , وفي وعده بشرى . . فاما الابتلاء بالرخاء فالذين يصبرون عليه قليلون . فالرخاء ينسي , والمتاع يلهي , والثراء يطغي . فلا يصبر عليه إلا الأقلون من عباد الله .

(ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا , وقالوا: قد مس آباءنا الضراء والسراء) . .

أي حتى كثروا وانتشروا , واستسهلوا العيش , واستيسروا الحياة: ولم يعودوا يجدون في أنفسهم تحرجاً من شيء يعملونه , ولا تخوفاً من أمر يصنعونه . . والتعبير: (عفوا) - إلى جانب دلالة على الكثرة - يوحي بحالة نفسية خاصة: حالة قلة المبالاة . حالة الاستخفاف والاستهتار . حالة استسهال كل أمر , واتباع عفو الخاطر في الشعور والسلوك سواء . . وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة , حين يطول بهم العهد في اليسار والنعمة والرخاء - أفراداً وأماً - كأن حساسية نفوسهم قد ترهلت فلم تعد تحفل شيئاً , أو تحسب حساباً لشيء . فهم ينفقون في يسر ويلتذون في يسر , ويلهون في يسر , ويبطشون كذلك في استهتار ! ويقتربون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان ويرتعش لها الوجدان , في يسر واطمئنان ! وهم لا يتقون غضب الله , ولا لوم الناس , فكل شيء يصدر منهم عفواً بلا تحرج ولا مبالاة . وهم لا يفطنون لسنة الله في الكون , ولا يتدبرون

اختباراته وابتلاءاته للناس . ومن ثم يحسبونها تمضي هكذا جزافاً , بلا سبب معلوم , وبلا قصد مرسوم:

(وقالوا: قد مس آباءنا الضراء والسراء).. .

وقد أخذنا دورنا في الضراء وجاء دورنا في السراء ! وها هي ذي ماضية بلا عاقبة , فهي تمضي هكذا خبط عشواء !

عندئذ . . وفي ساعة الغفلة السادرة , وثمره للنسيان واللهو والطغيان , تجيء العاقبة وفق السنة الجارية: (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون).. .

جزاء بما نسوا واغترؤا وبعدوا عن الله ; وأطلقوا لشهواتهم العنان , فما عادوا يتخرجون من فعل , وما عادت التقوى تخطر لهم ببال !

هكذا تمضي سنة الله أبداً . وفق مشيئته في عباده . وهكذا يتحرك التاريخ الإنساني بإرادة الإنسان وعمله - في إطار سنة الله ومشيئته - وها هو ذا القرآن الكريم يكشف للناس عن السنة ; ويحذرهم الفتنة . . فتنة الاختبار والابتلاء بالضراء والسراء . . وبينه فيهم دواعي الحرص واليقظة , واتقاء العاقبة التي لا تتخلف , جزاء وفاقاً على اتجاههم وكسبهم . فمن لم يتيقظ , ومن لم يتحرج , ومن لم يتيق , فهو الذي يظلم نفسه , ويعرضها لبأس الله الذي لا يرد . ولن تظلم نفس شيئاً .

ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض , ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون . .

فذلك هو الطرف الآخر لسنة الله الجارية . فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب , واتقوا بدل الاستهتار ; لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض . . هكذا . . (بركات من السماء والأرض)مفتوحة بلا حساب . من فوقهم ومن تحت أرجلهم . والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر , الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات . .

وأمام هذا النص - والنص الذي قبله - نقف أمام حقيقة من حقائق العقيدة وحقائق الحياة البشرية والكونية سواء . وأمام عامل من العوامل المؤثرة في تاريخ الإنسان , تغفل عنه المذاهب الوضعية وتغفله كل الإغفال . بل تنكره كل الإنكار ! . .

إن العقيدة الإيمانية في الله , وتقواه , ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة , وعن خط تاريخ الإنسان . إن الإيمان بالله , وتقواه , ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض . وعدا من الله . ومن أوفى بعهده من الله ?

ونحن - المؤمنين بالله - نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن , فنصدقه ابتداء , لا نسأل عن علله وأسبابه ; ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله . . نحن نؤمن بالله - بالغيب - ونصدق بوعدته بمقتضى هذا الإيمان . .

ثم ننظر إلى وعد الله نظرة التدبر - كما يأمرنا إيماننا كذلك - فنجد علته وسببه !

إن إيمان بالله دليل على حيوية في الفطرة ; وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية ;
وصدق في الإدراك الإنساني , وحيوية في البنية البشرية , ورحابة في مجال الإحساس
بحقائق الوجود . . وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية .

والإيمان بالله قوة دافعة دافقة , تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها , وتتجه بها إلى
وجهة واحدة , وتطلقها تستمد من قوة الله , وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض
وعمارتها , وفي دفع الفساد والفتنة عنها , وفي ترقية الحياة ونمائها . . وهذه كذلك من
مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية .

والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد . وما من شك أن الإنسان
المتحرر بالعبودية لله , أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة . من العبيد
لهوى ولبعضهم بعضاً !

وتقوى الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور , في دفعة الحركة
ودفعة الحياة . . وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج , فلا يعتدي , ولا يتهور , ولا
يتجاوز حدود النشاط الصالح .

وحيث تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكواجيب , عاملة في الأرض , متطلعة إلى
السماء , متحررة من الهوى والطغيان البشري , عابدة خاشعة لله . . تسير سيرة
صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه . فلا جرم تحفها البركة , وبعمها الخير , ويظلها
الفلاح . . - والمسألة - من هذا الجانب - مسألة واقع منظور - إلى جانب لطف الله
المستور - واقع له علله وأسبابه الظاهرة , إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود . .

والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون , في توكيد ويقين , ألوان شتى لا
يفصلها النص ولا يحددها . وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان ,
النابع من كل مكان , بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان . فهي البركات بكل أنواعها وألوانها ,
وبكل صورها وأشكالها , ما يعهده الناس وما يتخيلونه , وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا
خيال !

والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة , لا صلة لها بواقع الناس في
الأرض , لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة ! وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة
يشهد بها الله - سبحانه - وكفى بالله شهيداً . وبحققها النظر بأسبابها التي يعرفها
الناس:

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . ولكن كذبوا
فأخذناهم بما كانوا يكسبون) . .

ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمماً - يقولون: إنهم مسلمون - مضيقاً عليهم في الرزق ,
لا يجدون إلا الجذب والمحق ! . . ويرى أمماً لا يؤمنون ولا يتقون , مفتوحاً عليهم في
الرزق والقوة والنفوذ . . فيتساءل: وأين إذن هي السنة التي لا تتخلف ?

ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال !

إن أولئك الذين يقولون: إنهم مسلمون . . لا مؤمنون ولا متقون ! إنهم لا يخلصون
عبوديتهم لله , ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله ! إنهم يسلمون رقابهم
لعبيد منهم , يتألهون عليهم , ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم والتقاليد - وما

أولئك بالمؤمنين . . فالمؤمن لا يدع عبداً من العبيد يتأله عليه , ولا يجعل عبداً من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره . . ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقاً . دانت لهم الدنيا , وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض , وتحقق لهم وعد الله .

فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق . . فهذه هي السنة: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا , وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء)! فهو الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره . وهو أخطر من الابتلاء بالشدة . . وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به , وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح . . وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة , مهددة في أمنها , مقطعة الأواصر بينها , يسود الناس فيها القلق ومنتظرها الانحلال . فهي قوة بلا أمن . وهو متاع بلا رضى . وهي وفرة بلا صلاح . وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد . وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال . .

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى , بركات في الأشياء , وبركات في النفوس , وبركات في المشاعر , وبركات في طيبات الحياة . . بركات تنمي الحياة وترفعها في أن . وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال .

الدرس الثاني: 97 - 100 تهديد الكفار بالعذاب وعدم أمن مكر الله

وبعد أن يقرر السياق القرآني تلك السنة الجارية . التي يشهد بها تاريخ القرى الخالية . وفي اللحظة التي تنتفض فيها المشاعر , ويرتعش فيها الوجدان , على مصارع المكذبين الذين لم يؤمنوا ولم يتقوا ; وغرهم ما كانوا فيه من رخاء ونعماء , فغفلوا عن حكمة الله في الابتلاء . . في هذه اللحظة يتجه إلى الغافلين السادرين , يوقظ فيهم مشاعر الترقب أن يأتيهم بأس الله في أية لحظة من ليل أو نهار , وهم سادرون في النوم واللهو والمتاع:

أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيئاتاً وهم نائمون ? أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ? أفأمنوا مكر الله ? فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم , ونطع على قلوبهم فهم لا يسمعون . .

أفأمن أهل القرى - وتلك سنة الله في الابتلاء بالضراء والسراء , والبأساء والنعماء , وتلك مصارع المكذبين السادرين , الذين كانوا قبلهم يعمرن هذه القرى ثم تركوها فخلفوها فيها - أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله في غفلة من غفلاتهم , وغرة من غراتهم ? أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله بالهلاك والدمار . . بيئاتاً وهم نائمون . . والإنسان في نومه مسلوب الإرادة , مسلوب القوة , لا يملك أن يحتاط ولا يملك أن يدفع عادية من حشرة صغيرة . . فكيف بئس الله الجبار ? الذي لا يقف له الإنسان في أشد ساعات صحوه واحتياطه وقوته ?

أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله . . ضحى وهم يلعبون . . واللعب يستغرق اليقظة والتحفز , ويلهي عن الأبهة والاحتياط: فلا يملك الإنسان , وهو غار في لعبه , أن يدفع عن نفسه مغيراً . فكيف بغارة الله التي لا يقف لها الإنسان وهو في أشد ساعات جده وتأهبه للدفاع ?

وإن بأس الله لأشد من أن يقفوا له نائمين أم صاحين . لاعيين أم جادين . ولكن السياق القرآني يعرض لحظات الضعف الإنساني , ليلمس الوجدان البشري بقوة , ويشير حذره وانتباهه , حين يتربقب الغارة الطامة الغامرة , في لحظة من لحظات الضعف والغرة والفجاءة . وما هو بناج في يقظة أو غرة . فهذه كتلك أمام بأس الله سواء !
(أفأمونا مكر الله ?).

وتدبيره الخفي المغيب على البشر . . ليتقوه ويحذروه . .

(فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) . .

فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار . وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار ! أفأمونا مكر الله ; وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين , الذين هلكوا بذنوبهم , وجنت عليهم غفلتهم ? أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم ?

أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم , ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون . .

إن سنة الله لا تتخلف ; ومشية الله لا تتوقف . فما الذي يؤمنهم أن يأخذهم الله بذنوبهم كما أخذ من قبلهم ?

وأن يطبع على قلوبهم فلا يهتدوا بعد ذلك , بل لا يستمعوا إلى دلائل الهدى , ثم ينالهم جزاء الضلال في الدنيا والآخرة . . ألا إن مصارع الخالين قبلهم , ووراثتهم لهم , وسنة الله الجارية . . كل أولئك كان نذيراً لهم أن يتقوا ويحذروا ; وأن يطرحوا عنهم الأمن الكاذب , والاستهتار السادر , والغفلة المردية , وأن يعتبروا بما كان في الذين خلوا من قبلهم . عسى ألا يكون فيهم . لو كانوا يسمعون !

وما يريد الله للناس بهذا التحذير في القرآن أن يعيشوا مفرعين قلقين ; يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم في لحظة من ليل أو نهار . فالفزع الدائم من المجهول , والقلق الدائم من المستقبل , وتوقع الدمار في كل لحظة . . قد تشل طاقة البشر وتشتتها ; وقد تنتهي بهم إلى اليأس من العمل والتناج وتنمية الحياة وعمارة الأرض . . إنما يريد الله منهم اليقظة والحساسية والتقوى , ومراقبة النفس , والعظة بتجارب البشر , ورؤية محركات التاريخ الإنساني , وإدامة الاتصال بالله , وعدم الاغترار بطراءة العيش ورخاء الحياة .

والله يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح في الدنيا والآخرة , إذا هم أرفهوا حساسيتهم به , وإذا هم أخلصوا العبودية له ; وإذا هم اتقوه فاتقوا كل ما يلوث الحياة . فهو يدعوهم إلى الأمن في جوار الله لا في جوار النعيم المادي المغربي . وإلى الثقة بقوة الله لا بقوتهم المادية الزائلة . وإلى الركون إلى ما عند الله لا إلى ما يملكون من عرض الحياة .

ولقد سلف من المؤمنين بالله المتقين لله سلف ما كان يأمن مكر الله . وما كان يركن إلى سواه . وكان بهذا وذاك عامراً القلب بالإيمان , مطمئناً بذكر الله , قوياً على الشيطان وعلى هواه , مصلحاً في الأرض بهدى الله , لا يخشى الناس والله أحق أن يخشاه .

وهكذا ينبغي أن نفهم ذلك التخويف الدائم من بأس الله الذي لا يدفع , ومن مكر الله الذي لا يدرك . لنذكر أنه لا يدعو إلى القلق إنما يدعو إلى اليقظة , ولا يؤدي إلى الفرع إنما يؤدي إلى الحساسية , ولا يعطل الحياة إنما يحرسها من الاستهتار والطغيان .

والمنهج القرآني - مع ذلك - إنما يعالج أطوار النفوس والقلوب المتقلبة , وأطوار الأمم والجماعات المتنوعة , ويطب لكل منها بالطب المناسب في الوقت الملائم . فيعطيها جرعة من الأمن والثقة والطمأنينة إلى جوار الله , حين تخشى قوى الأرض وملابسات الحياة . ويعطيها جرعة من الخوف والحذر والترقب لبأس الله , حين تركز إلى قوى الأرض ومغريات الحياة . وربك أعلم بمن خلق , وهو اللطيف الخبير . .

الدرس الثالث: 101 إخبار الرسول بتعذيب الكفار السابقين وسببه

والآن - وقد انتهى السياق من بيان السنة الجارية , ولمس بها الوجدان البشري تلك اللمسات الموحية - يتجه بالخطاب إلى رسول الله [ص] يطلعه على العاقبة الشاملة لابتلاء تلك القرى , وما تكشف عنه من حقائق عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان , ثم عن طبيعة البشر الغالبة كما تجلت في هذه الأقوام:

(تلك القرى نقص عليك من أنبائها , ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات , فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد , وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) . .

فهو قصص من عند الله , ما كان للرسول [ص] به من علم , إنما هو وحي الله وتعليمه

(ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) . .

فلم تنفعهم البينات . وظلوا يكذبون بعدها , كما كذبوا قبلها . ولم يؤمنوا بما كانوا قد كذبوا به من قبل أن تأتيهم البينة عليه . فالبينات لا تؤدي بالمكذبين إلى الإيمان . وليس البينة هي ما كان ينقصهم ليؤمنوا . إنما كان ينقصهم القلب المفتوح , والحس المرهف والتوجه إلى الهدى . كان ينقصهم الفطرة الحية التي تستقبل وتنفعل وتستجيب . فلما لم يوجهوا قلوبهم إلى موحيات الهدى ودلائل الإيمان طبع الله على قلوبهم وأغلقها , فما عادت تتلقى ولا تنفعل ولا تستجيب:

(كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) . .

ولقد تكشفت تلك التجارب عن طبيعة غالبة:

(وما وجدنا لأكثرهم من عهد , وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) . .

والعهد الذي يشار إليه هنا قد يكون هو عهد الله على فطرة البشر , الذي ورد ذكره في أواخر السورة: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم ? قالوا: بلى شهدنا) . .

وقد يكون هو عهد الإيمان الذي أعطاه أسلافهم الذين آمنوا بالرسول . ثم انحرفت الخلائف . كما يقع في كل جاهلية . إذ تظل الأجيال تنحرف شيئاً فشيئاً حتى تخرج من عهد الإيمان , وترتد إلى الجاهلية .

وأياً كان العهد فقد تبين أن أهل هذه القرى لا عهد لأكثرهم يستمسكون به , ويشتون عليه . إنما هو الهوى المتقلب , والطبيعة التي لا تصبر على تكاليف العهد ولا تستقيم . (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) . .

منحرفين عن دين الله وعهده القديم . . وهذه ثمرة التقلب , ونقض العهد , واتباع الهوى . . ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله , مستقيماً على طريقته , مسترشداً بهداه . فلا بد أن تتفرق به السبل , ولا بد أن ينحرف , ولا بد أن يفسق . . وكذلك كان أهل تلك القرى . وكذلك انتهى بهم المطاف . .

الوحدة الثامنة: 103 - 137 الموضوع: لقطات من قصة موسى مع فرعون

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103)

مقدمة الوحدة يتضمن هذا الدرس قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه . من حلقة مواجهتهم بربوبية الله للعالمين , إلى حلقة إغراقهم أجمعين . وما بين هذه وتلك من المباراة مع السحرة . وغلبة الحق على الباطل . وإيمان السحرة برب العالمين رب موسى وهارون . وتوعد فرعون لهم بالعذاب والتقتيل والتنكيل . واستعلان الحق في نفوسهم على هذا التوعد وانتصار العقيدة في قلوبهم على حب الحياة . ثم ما تلا ذلك من التنكيل ببني إسرائيل . وأخذ الله لفرعون وملئه بالسنين ونقص من الثمرات . ثم أخذهم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وهم يستغيثون بموسى في كل مرة أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب . حتى إذا رفع عنهم عادوا لما كانوا فيه ; وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات . حتى حقت عليهم كلمة الله في النهاية فأغرقوا في اليم بتكذبيهم بآيات الله وغفلتهم عن حكمة ابتلائه - وفق السنة الجارية في أخذ المكذبين بالضراء والسراء قبل أخذهم بالدمار والهلاك - ثم إعطاء الخلافة في الأرض لقوم موسى جزاء على صبرهم واجتيازهم ابتلاء الشدة . . لتعقبها فتنة الرخاء . .

وقد اخترنا أن نجعل هذا القطاع من القصة درساً ; ونجعل القطاع الآخر الخاص بقصة موسى - عليه السلام - مع قومه بعد ذلك درساً يليه لاختلاف طبيعة القطاعين , واختلاف مجالهما كذلك . .

والقصة تبدأ هنا بمجمل عن بدئها ونهايتها , يوحى بالغرض الذي جاءت من أجله في سياق هذه السورة :

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه , فظلموا بها , فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) . .

فيصرح النص بالغرض من سياقة القصة في هذا الموضوع . . إنه النظر إلى عاقبة المفسدين . . وبعد ذلك الإجمال الموحى بالغاية , تعرض الحلقات التي تفي بهذه الغاية , وتصورها تفصيلاً .

والقصة تقطع إلى مشاهد حية , تموج بالحركة والحوار , وتزخر بالانفعالات والسّمات , وتتخللها التوجيهات إلى مواضع العبرة في السياق , وتكشف عن طبيعة المعركة بين

الدعوة إلى (رب العالمين) وبين الطواغيت المتسلطة على عباد الله , المدعية للربوبية من دون الله , كما تتجلى روعة العقيدة حين تستعلن , فلا تخشى سلطان الطواغيت , ولا تحفل التهديد والوعيد الشديد . .

الدرس الأول: 103 إرسال موسى إلى فرعون

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه , فظلموا بها , فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) . .

بعد تلك القرى وما حل بها وبالمكذبين من أهلها , كانت بعثة موسى . . والسياق يعرض القصة من حلقة مواجهة فرعون وملئه بالرسالة , ثم يعجل بالكشف عن خلاصة استقبالهم لها . كما يعجل بالإشارة إلى العاقبة التي انتهوا إليها . لقد ظلموا بهذه الآيات - أي كفروا ووجدوا - والتعبير القرآني يكثر من ذكر كلمة "الظلم" وكلمة "الفسق" في موضع كلمة "الكفر" أو كلمة "الشرك" . وهذه من تلك المواضع التي يكثر ورودها في التعبير القرآني . ذلك أن الشرك أو الكفر هو أقبح الظلم , كما أنه كذلك هو أشنع الفسق . . والذين يكفرون أو يشركون يظلمون الحقيقة الكبرى - حقيقة الألوهية وحقيقة التوحيد - ويظلمون أنفسهم بإيرادها موارد الهلكة في الدنيا والآخرة . ويظلمون الناس بإخراجهم من العبودية لله الواحد إلى العبودية للطواغيت المتعددة والأرباب المتفرقة . . وليس بعد ذلك ظلم . . ومن ثم فالكفر هو الظلم (والكافرون هم الظالمون) كما يقول التعبير القرآني الكريم . . وكذلك الذي يكفر أو يشرك إنما يفسق ويخرج عن طريق الله وصراطه المستقيم إلى السبل التي لا تؤدي إليه - سبحانه - إنما تؤدي إلى الجحيم !

ولقد ظلم فرعون وملؤه بآيات الله: أي كفروا بها ووجدوا .

(فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) . .

وهذه العاقبة ستجيء في السياق عن قريب . . أما الآن فننظر كذلك في مدلول كلمة: (المفسدين) وهي مرادف لكلمة (الكافرين) أو (الظالمين) في هذا الموضع . . إنهم ظلموا بآيات الله: أي كفروا بها ووجدوا .

فانظر كيف كان عاقبة (المفسدين) هؤلاء .

إنهم مفسدون لأنهم (ظلموا) - أي "كفروا ووجدوا" . . ذلك أن الكفر هو أشنع الفساد . وأشنع الإفساد . . إن الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله الواحد , والعبودية لإله واحد . . وإن الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبودية لله في حياة الناس . . إن العبودية لله وحده معناها أن يكون للناس سيد واحد , يتوجهون إليه بالعبادة وبالعبودية كذلك , وبخضوع لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة , وشهوات البشر الصغيرة ! . . إن الفساد يصيب تصورات الناس كما يصيب حياتهم الاجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد - من دون الله - وما صلحت الأرض قط ولا استقامت حياة الناس إلا أيام أن كانت عبوديتهم لله وحده - عقيدة وعبادة وشريعة - وما تحرر "الإنسان" قط إلا في ظلال الربوبية الواحدة . . ومن ثم يقول الله سبحانه عن فرعون وملئه:

(فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) . .

وكل طاغوت يخضع العباد لشريعة من عنده , وينبذ شريعة الله , هو من (المفسدين)الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون !

الدرس الثاني:104 موسى يقدم الآيات لفرعون واستدعاء السحر

وافتح القصة على ذلك النحو هو طريقة من طرق العرض القرآنية للقصص . وهذه الطريقة هي المناسبة هنا لسياق السورة , وللمحور الذي تدور حوله . لأنها تعجل بالعاقبة منذ اللحظة الأولى - تحقيقاً للهدف من سياقها - ثم تأخذ في التفصيل بعد الإجمال , فنرى كيف سارت الأحداث إلى نهايتها .

فما الذي كان بين موسى وفرعون وملئه ?

هنا يبدأ المشهد الأول بينهما:

وقال موسى:يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق . قد جئتمكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل . قال:إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون:إن هذا لساحر عليم , يريد أن يخرجكم من أرضكم , فماذا تأمرون ? قالوا:أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم . .

وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ (108)

إنه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل , وبين الإيمان والكفر . . مشهد اللقاء الأول بين الدعوة إلى (رب العالمين)وبين الطاغوت الذي يدعي ويزاول الربوبية من دون رب العالمين !

وقال موسى:يا فرعون , إني رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق . قد جئتمكم ببينة من ربكم , فأرسل معي بني إسرائيل . .

(يا فرعون) . . لم يقل له:يا مولاي ! كما يقول الذين لا يعرفون من هو المولى الحق ! ولكن ناداه بلقبه في أدب واعتزاز . . ناداه ليقرر له حقيقة أمره , كما يقرر له أضخم حقائق الوجود:

(إني رسول من رب العالمين) . .

لقد جاء موسى - عليه السلام - بهذه الحقيقة التي جاء بها كل رسول قبله . حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعاً . . ألوهية واحدة وعبودية شاملة . . لا كما يقول الخابطون في الظلام من "علماء الأديان" ومن يتبعهم في زعمهم عن "تطور العقيدة" إطلاقاً , وبدون استثناء لما جاء به الرسل من ربهم أجمعين ! . . إن العقيدة التي جاء بها الرسل جميعاً عقيدة واحدة ثابتة ; تقرر ألوهية واحدة للعالم جميعها . ولا تتطور من

الآلهة المتعددة , إلى التثنية , إلى الوجدانية في نهاية المطاف . . فأما جاهليات البشر - حين ينحرفون عن العقيدة الربانية - فلا حد لتخطيها بين الطواطم والأرواح والآلهة المتعددة والعبادات الشمسية والتثنية والتوحيد المشوب برواسب الوثنية . . وسائر أنواع العقائد الجاهلية . . ولا يجوز الخلط بين العقائد السماوية التي جاءت كلها بالتوحيد الصحيح , الذي يقرر إلهاً واحداً للعالمين ; وتلك التخططات المنحرفة عن دين الله الصحيح .

ولقد واجه موسى - عليه السلام - فرعون وملاًه بهذه الحقيقة الواحدة , التي واجه بها كل نبي - قبله او بعده - عقائد الجاهلية الفاسدة . . واجهه بها وهو يعلم أنها تعني الثورة على فرعون وملائته ودولته ونظام حكمه . . إن ربوبية الله للعالمين تعني - أول ما تعني - إبطال شرعية كل حكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأمره ; وتنحية كل طاغوت عن تعبيد الناس له - من دون الله - بإخضاعهم لشرعه هو وأمره . . واجهه بهذه الحقيقة الهائلة بوصفه رسولاً من رب العالمين . . ملزماً ومأخوذاً بقول الحق على ربه الذي أرسله .

حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق . .

فما كان الرسول الذي يعلم حقيقة الله , ليقول عليه إلا الحق , وهو يعلم قدره ; ويجد حقيقته - سبحانه - في نفسه . .

(قد جئتمكم ببينة من ربكم) . .

تدلكم على صدق قولي: إنني رسول من رب العالمين .

وباسم تلك الحقيقة الكبيرة . . حقيقة الربوبية الشاملة للعالمين . . طلب موسى من فرعون أن يطلق معه بني إسرائيل . .

إن بني إسرائيل عبيد لله وحده ; فما ينبغي أن يعبدهم فرعون لنفسه ! إن الإنسان لا يخدم سيدين , ولا يعبد إلهين . فمن كان عبداً لله , فما يمكن أن يكون عبداً لسواه . وإذ كان فرعون إنما يعبد بني إسرائيل لهواه ; فقد أعلن له موسى أن رب العالمين هو الله . وإعلان هذه الحقيقة ينهي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بني إسرائيل !

إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان . تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله . تحريره من شرع البشر , ومن هوى البشر , ومن تقاليد البشر , ومن حكم البشر .

وإعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله ; ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشرية من عنده للناس . . والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشرعية من صنع البشر - أي لربوبية غير ربوبية الله - واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون ! إنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله , وقانونهم غير شريعة الله . إنما هم في دين حاكمهم ذاك . في دين الملك لا في دين الله !

وعلى هذه الحقيقة أمر موسى - عليه السلام - أن يبني طلبه من فرعون إطلاق بني إسرائيل :

(يا فرعون إني رسول من رب العالمين). . . (فأرسل معي بني إسرائيل). . .

مقدمة ونتيجة . . تتلازمان ولا تفترقان . .

ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان . إعلان ربوبية الله للعالمين . . لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم ملك فرعون . وقلب نظام حكمه , وإنكار شرعيته , وكشف عدوانه وطغيانه . . ولكن كان أمام فرعون وملئه فرصة أن يظهروا موسى بمظهر الكاذب الذي يزعم أنه رسول من رب العالمين بلا بينة ولا دليل:

(قال: إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين). .

ذلك أنه إذا اتضح أن هذا الداعية إلى ربوبية رب العالمين كاذب في دعواه ; سقطت دعوته , وهان أمره ; ولم يعد لهذه الدعوة الخطيرة من خطر - وصاحبها دعي لا بينة عنده ولا دليل !

ولكن موسى يجيب:

(فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين). .

إنها المفاجأة ! إن العصا تنقلب ثعباناً لا شك في ثعبانيته . . (مبين). . وكما قيل في سورة أخرى: (فإذا هي حية تسعى) . . ثم إن يده السمراء - وقد كان موسى عليه السلام " آدم " أي مائلاً إلى السمرة - يخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء , بيضاء ليست عن مرض , ولكنها المعجزة , فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء !

هذه هي البينة والآية على الدعوى التي جاء بها موسى . . إني رسول من رب العالمين .

ولكن هل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوى الخطيرة ? هل يستسلمون لربوبية رب العالمين ? وعلام إذن يقوم عرش فرعون وتاجه وملكه وحكمه ? وعلام يقوم الملائ من قومه ومراكزهم التي هي من عطاء فرعون ورسمه وحكمه ?

علام يقوم هذا كله إن كان الله هو (رب العالمين)?

إنه إن كان الله هو (رب العالمين) فلا حكم إلا لشرعية الله , ولا طاعة إلا لأمر الله . . فأين يذهب شرع فرعون وأمره إذن , وهو لا يقوم على شرعية الله ولا يرتكن إلى أمره ? . . إن الناس لا يكون لهم (رب) آخر يعبدهم لحكمه وشرعه وأمره , إن كان الله هو ربهم . . إنما يخضع الناس لشرع فرعون وأمره حين يكون ربهم هو فرعون . فالحاكم - بأمره وشرعه - هو رب الناس . وهم في دينه أياً كان !

كلا ! إن الطاغوت لا يستسلم هكذا من قريب . ولا يسلم ببطلان حكمه وعدم شرعية سلطانه بمثل هذه السهولة !

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَآمَدَ تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112)

وفرعون وملؤه يخطئون فهم مدلول هذه الحقيقة الهائلة التي يعلنها موسى . بل إنهم
ليعلنونها صريحة . ولكن مع تحويل الأنظار عن دلالتها الخطيرة , باتهام موسى بأنه
ساحر عليم:

(قال الملاً من قوم فرعون: إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا
تأمرون ؟) . .

إنهم يصرحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة . إنها الخروج من
الأرض . . إنها ذهاب السلطان . . إنها إبطال شرعية الحكم . . أو . . محاولة قلب نظام
الحكم ! . . بالتعبير العصري الحديث !

إن الأرض لله . والعباد لله . فإذا ردت الحاكمية في أرض لله , فقد خرج منها الطغاة ,
الحاكمون بغير شرع الله ! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص
الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم . وخرج منها الملاً الذين يوليهم الأرباب
المناصب والوظائف الكبرى , فيعبدون الناس لهذه الأرباب !

هكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة . . وكذلك يدركها الطواغيت في كل مرة
. . لقد قال الرجل العربي - بفطرته وسليقته - حين سمع رسول الله [ص] يدعو
الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: " هذا أمر تكرهه الملوك ! " .
وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته: " إذن تحاربك العرب والعجم " . . لقد
كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته . كان يفهم أن شهادة أن لا إله إلا الله ثورة
على الحاكمين بغير شرع الله عربياً كانوا أم عجماً ! كانت لشهادة أن لا إله إلا الله
جديتها في حس هؤلاء العرب , لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً . فما كان أحد
منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد , ولا في أرض واحدة . شهادة أن لا إله إلا
الله , مع الحكم بغير شرع الله ! فيكون هناك آلهة مع الله ! ما كان أحد منهم يفهم
شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم " مسلمين " . . ذلك الفهم
الباهت التافه الهزيل !

وهكذا قال الملاً من قوم فرعون , يتشاورون مع فرعون:

(إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟).

واستقر رأيهم على أمر:

(قالوا: أرحه وأخاه , وأرسل في المدائن حاشرين , يأتوك بكل ساحر عليم) . .

وكانت أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد . وكان الكهنة هم الذين يزاولون
أعمال السحر . ففي الوثنيات كلها تقريباً يقترب الدين بالسحر ; ويزاول السحر كهنة
الديانات وسدنة الآلهة ! وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها " علماء الأديان ! " فيتحدث
بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة ! ويقول الملحدون منهم: إن الدين
سيبطل كما بطل السحر ! وإن العلم سينهي عهد الدين كما أنهى عهد السحر ! . . إلى
آخر هذا الخبط الذي يسمونه: " العلم " !

وقد استقر رأي الملاً من قوم فرعون , على أن يرجىء فرعون موسى إلى موعد . وأن
يرسل في أنحاء البلاد من يجمع له كبار السحرة . ذلك ليواجهوا " سحر موسى " -
بزعمهم - بسحر مثله .

وعلى كل ما عرف من طغيان فرعون , فقد كان في تصرفه هذا أقل طغياناً من طواغيت كثيرة في القرن العشرين ; في مواجهة دعوة الدعاة إلى ربوبية رب العالمين ! وتهديد السلطان الباطل بهذه الدعوة الخطيرة !

الدرس الثالث: 113-114 استعداد السحرة للمبارة

وبطوي السياق القرآني إجراء فرعون وملئه في جمع السحرة من المدائن ; ويسدل الستار على المشهد الأول ,

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَن تُلْقِيَ وَإِنَّا إِن تَكُونُ مِنَ الْمُلْقِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117)

ليرفعه على المشهد التالي . . وذلك من بدائع العرض القرآني للقصص , كأنه واقع منظور , لا حكاية تروى !

(وجاء السحرة فرعون , قالوا: إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ? قال: نعم , وإنكم لمن المقربين) . .

إنهم محترفون . . . يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة ! والأجر هو هدف الاحتراف في هذا وذاك ! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هي وظيفة المحترفين من رجال الدين ! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله , وإفراده - سبحانه - بالحاكمية ; وقام سلطان الطاغوت مقام شريعة الله , احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين , وكافهم على الاحتراف , وتبادل وإياهم الصفقة: هم يقرون سلطانه باسم الدين ! وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين !

ولقد أكد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم , ووعدهم مع الأجر القريب منه , زيادة في الإغراء , وتشجيعاً على بذل غاية الجهد . . وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والبراعة والتضليل ; إنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة القاهرة , التي لا يقف لها الساحرون ولا المتجبرون !

الدرس الرابع: 115

ولقد اطمأن السحرة على الأجر , واشترأت أعناقهم إلى القريب من فرعون , واستعدوا للحلبة . . ثم ها هم أولاء يتوجهون إلى موسى - عليه السلام - بالتحدي . . ثم يكون من أمرهم ما قسم الله لهم من الخير الذي لم يكونوا يحتسبون , ومن الأجر الذي لم يكونوا يتوقعون:

(قالوا: يا موسى , إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين . . قال: ألقوا) . .

ويبدو التحدي واضحاً في تخييرهم لموسى . وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة . . وفي الجانب الآخر تتجلى ثقة موسى - عليه السلام - واستهانته بالتحدي: قال ألقوا . . فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة , وتلقي ظل الثقة الكامنة وراءها

في نفس موسى . على طريقة القرآن الكريم في إلقاء الظلال , بالكلمة المفردة في كثير من الأحيان .

ولكن السياق يفاجئنا بما فوجيء به موسى - عليه السلام - وبينما نحن في ظلال الاستهانة وعدم المبالاة , إذا بنا أمام مظهر السحر البارع , الذي يرهب ويخيف:

فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم , وجاءوا بسحر عظيم .

وحسبنا أن يقرر القرآن أنه سحر عظيم , لندرك أي سحر كان . وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا (أعين الناس) وأثاروا الرهبة في قلوبهم:(واسترهبوهم)لنتصور أي سحر كان , ولفظ "استرهب" ذاته لفظ مصور . فهم استجاشوا إحساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسراً . ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآني الآخر في سورة طه , أن موسى عليه السلام قد أوجس في نفسه خيفة لنتصور حقيقة ما كان !

ولكن مفاجأة أخرى تطالع فرعون وملأه , وتطالع السحرة الكهنة , وتطالع جماهير الناس في الساحة الكبرى التي شهدت ذلك السحر العظيم:

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119) وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122)

(وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك , فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك , وانقلبوا صاغرين) .

إنه الباطل ينتفش , ويسحر العيون , ويسترهب القلوب , ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب , وأنه جارف , وأنه مُحيق ! وما هو إلا أن يواجه الحق الهاديء الواثق حتى ينفثيء كالفقاعة , وينكمش كالقنفذ , وينطفئ كشعلة الهشيم ! وإذا الحق راجح الوزن , ثابت القواعد , عميق الجذور . . والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال , وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل: (فوقع الحق) . . وثبت , واستقر . . وذهب ما عداه فلم يعد له وجود: (وبطل ما كانوا يعملون) . . وغلب الباطل والمبطلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون:

(فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) . .

ولكن المفاجأة لم تختتم بعد . والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة أخرى . . مفاجأة كبرى . .

وألقى السحرة ساجدين . قالوا: آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . .

إنها صولة الحق في الضمائر . ونور الحق في المشاعر , ولمسة الحق للقلوب المهياة لتلقي الحق والنور واليقين . . إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم , ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه . وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبشر , أم من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر . والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له , لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة , ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور . . ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق , الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين . .

ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر ; ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ; ولا كيف تلمسها حرارة اليقين . فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب - وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء - . . ومن ثم فوجيء فرعون بهذا الإيمان المفاجيء الذي لم يدرك ديبه في القلوب ولم يتابع خطاه في النفوس ; ولم يفطن إلى مداخله في شعاب الضمائر . . ثم هزته المفاجأة الخطيرة التي تزلزل العرش من تحته : مفاجأة استسلام السحرة - وهم من كهنة المعابد - لرب العالمين . رب موسى وهارون . بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين ! . . والعرش والسلطان هما كل شيء في حياة الطواغيت . . وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تحرج في سبيل المحافظة على الطاغوت :

(قال فرعون: آمنتم به قبل أن آذن لكم ! إن هذا لكم مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها . فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف , ثم لأصلبنكم أجمعين) . .

هكذا . . (آمنتم به قبل أن آذن لكم !). . كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق - وهم أنفسهم لاسلطان لهم عليها - أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم - وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً - أو يستأذنوه في أن تشرق أرواحهم - وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها . أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق . أو أن يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار . أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين !

ولكنه الطاغوت جاهل غبي مطموس ; وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور !

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذِنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ (126)

ثم إنه الفرع على العرش المههد والسلطان المهزوز:

(إن هذا لكم مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) . .

وفي نص آخر: (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر)!

والمسألة واضحة المعالم . . إنها دعوة موسى إلى (رب العالمين) . . هي التي تزعج وتخيف . . إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين . وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شريعته . وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يشرعون للناس ما يشاءون , ويعبدون الناس لما يشرعون ! . . إنهما منهجان لا يجتمعان . . أو هما دينان لا يجتمعان . . أو هما ربان لا يجتمعان . . وفرعون كان يعرف وملؤه كانوا يعرفون . . ولقد فزعوا للدعوة من موسى وهارون إلى رب العالمين . فأولى أن يفزعوا الآن وقد ألقى السحرة ساجدين . قالوا: آمنا برب العالمين . رب

موسى وهارون ! والسحرة من كهنة الديانة الوثنية التي تؤله فرعون , وتمكنه من رقاب الناس باسم الدين !

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشي الفطيع:

(فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف , ثم لأصلبنكم أجمعين) . .

إنه التعذيب والتشوية والتنكيل . . وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق , الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان . . وعدة الباطل في وجه الحق الصريح . .

ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان ; تستعلى على قوة الأرض , وتستتهين بأس الطغاة ; وتنتصر فيها العقيدة على الحياة , وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم . إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ وماذا ستدع ? ماذا ستقبض وماذا ستدفع ? ماذا ستخسر وماذا ستكسب ? وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات ? . . لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك , فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق . . (قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبراً , وتوفنا مسلمين) . .

إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يترزع . كما أنه لا يخضع أو يخنع . الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاهها , ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره:

(قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون) . .

والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت . . وأنها معركة العقيدة في الصميم . . لا يدهن ولا يناور . . ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة , لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة:

(وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) . .

والذي يعرف أين يتجه في المعركة , وإلى من يتجه ; لا يطلب من خصمه السلامة والعافية , إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام:

(ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) . .

ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان , وأمام الوعي , وأمام الاطمئنان . . يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب ! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام . فإذا هي مستعصية عليه , لأنها من أمر الله , لا يملك أمرها إلا الله . . وماذا يملك الطغيان إذ أرغبت القلوب في جوار الله ? وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله ? وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان !

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية . هذا الذي كان بين فرعون وملئه , والمؤمنين من السحرة . . السابقين . .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية . بانتصار العقيدة على الحياة . وانتصار العزيمة على الألم . وانتصار "الإنسان" على "الشیطان" !

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية . بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية . فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجربين وطغيان الطغاة . والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح . ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية ! فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز , وتمنى بالقرب من السلطان . . هي ذاتها التي تستعلي على فرعون ; وتستتهين بالتهديد والوعيد , وتُقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب . وما تغير في حياتها شيء , ولا تغير من حولها شيء - في عالم المادة - إنما وقعت اللمسة الخفية التي تسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى . وتجمع الذرة النائية إلى المحور الثابت , وتصل الفرد الفاني بقوة الأزل والأبد . . وقعت اللمسة التي تحوّل الإبرة , فيلتقط القلب إيقاعات القدرة , ويتسمع الضمير أصداء الهداية , وتتلقى البصيرة إشراقات النور . . وقعت اللمسة التي لا تنتظر أي تغيير في الواقع المادي ; ولكنها هي تغير الواقع المادي ; وترفع "الإنسان" في عالم الواقع إلى الأفق التي لم يكن يطمح إليها الخيال !

ويذهب التهديد . . ويتلاشى الوعيد . . ويمضي الإيمان في طريقه . لا يتلفت , ولا يتردد , ولا يحيد ! ويسدل السياق القرآني الستار على المشهد عند هذا الحد ولا يزيد . . إن روعة الموقف تبلغ ذروتها ; وتنتهي إلى غايتها . وعندئذ يتلاقى الجمال الفني في العرض ; مع الهدف النفسي للقصة , على طريقة القرآن في مخاطبة الوجدان الإيماني بلغة الجمال الفني , في تناسق لا يبلغه إلا القرآن .

تعقيب على الدرس الرابع

ولكننا نحن في هذه الظلال ينبغي أن نقف وقفة قصيرة أمام هذا المشهد الباهر الأخاذ

...

نقف ابتداءً أمام إدراك فرعون وملئه أن إيمان السحرة برب العالمين , رب موسى وهارون , يمثل خطراً على نظام ملكهم وحكمهم ; لتعارض القاعدة التي يقوم عليها هذا الإيمان , مع القاعدة التي يقوم عليها ذلك السلطان . . وقد عرضنا لهذا الأمر من قبل . . ونريد أن نقرر هذه الحقيقة ونؤكدّها . . إنه لا يجتمع في قلب واحد , ولا في بلد واحد , ولا في نظام حكم واحد , أن يكون الله رب العالمين , وأن يكون السلطان في حياة الناس لعبد من العبيد , يباشره بتشريع من عنده وقوانين . . فهذا دين وذلك دين . .

ونقف بعد ذلك أمام إدراك السحرة - بعد أن أشرق نور الإيمان في قلوبهم , وجعل لهم فرقاناً في تصورهم - أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هي معركة العقيدة ; وأنه لا ينقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين . فهذا الإيمان على هذا النحو يهدد عرش فرعون وملكه وسلطانه ; ويهدد مراكز الملامن قومه وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون . . أو بتعبير آخر مرادف: من ربوبية فرعون , ويهدد القيم التي يقوم عليها المجتمع الوثني كله . . وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضروري لكل من يتصدى للدعوة إلى ربوبية الله وحده . فهو وحده الذي أهل هؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه في سبيله . . إنهم يقدمون على الموت مستهينين ليقينهم بأنهم هم المؤمنون برب العالمين ; وأن عدوهم على دين غير دينهم ; لأنه بمزاولته للسلطان وتعبيد الناس لأمره ينكر ربوبية رب العالمين . . فهو إذن من الكافرين . . وما يمكن أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة

إلى رب العالمين - على ما ينتظرهم فيها من التعذيب والتنكيل - إلا بمثل هذا اليقين بشقيه: أنهم هم المؤمنون , وأن أعداءهم هم الكافرون , وأنهم إنما يحاربونهم على الدين , ولا ينقمون منهم إلا الدين .

ونقف بعد ذلك أمام الروعة الباهرة لانتصار العقيدة على الحياة . وانتصار العزيمة على الألم . وانتصار "الإنسان" على الشيطان . وهو مشهد بالغ الروعة . . نعرف أننا نعجز عن القول فيه . فندعه كما صورته النص القرآني الكريم !

الدرس الخامس: 127 فرعون يهدد المؤمنين بالعذاب

ثم نعود إلى سياق القصة القرآني . . حيث يرفع الستار عن مشهد رابع جديد . . إنه مشهد التآمر والتناجي بالإثم والتحريض . بعد الهزيمة والخذلان في معركة الإيمان والطغيان . مشهد الملامن قوم فرعون يكبر عليهم أن يذهب موسى ناجياً والذين آمنوا معه - وما آمن له إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم . كما جاء في موضع آخر من القرآن - فإذا الملامن يتناجون بالشر والإثم , وهم يهيجون فرعون على موسى ومن معه ; ويخوفونه عاقبة التهاون في أمرهم ; من ضياع الهيبة والسلطان ; باستشراء العقيدة الجديدة , في ربوبية الله للعالمين . فإذا هو هائج مائج , مهدد متوعد , مستعز بالقوة الغاشمة التي بين يديه , وبالسلطان المادي الذي يرتكن إليه !

(وقال الملامن قوم فرعون: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ? قال: سنقتل أبناءهم , ونستحيي نساءهم , وإنا فوقهم قاهرون). . .

إن فرعون لم يكن يدعي الألوهية بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومدبره ; أو أن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية . إنما كان يدعي الألوهية على شعبه المستذل ! بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه ; وأنه بإرادته وأمره تمضي الشؤون وتمضي الأمور . وهذا ما يدعيه كل حاكم يحكم بشريعته وقانونه , وتمضي الشؤون وتمضي الأمور بإرادته وأمره - وهذه هي الربوبية بمعناها اللغوي والواقعي - كذلك لم يكن الناس في مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له - فقد كانت لهم آلهتهم وكان لفرعون آلهته التي يعبدونها كذلك , كما هو ظاهر من قول الملامن له: (ويذرك وآلهتك) وكما يثبت المعروف من تاريخ مصر الفرعونية . إنما هم كانوا يعبدونه بمعنى أنهم خاضعون لما يريد بهم , لا يعصون له أمراً , ولا ينقضون له شرعاً . . وهذا هو المعنى اللغوي والواقعي والاصطلاحي للعبادة . . فأيما ناس تلقوا التشريع من بشر وأطاعوه فقد عبدوه , وذلك هو تفسير رسول الله [ص] لقوله تعالى عن اليهود والنصارى: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . . الآية عندما سمعها منه عدي بن حاتم - وكان نصرانياً جاء ليسلم - فقال: يا رسول الله ما عبدوهم . فقال له رسول الله [ص]: " بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ; فاتبعوهم , فذلك عبادتهم إياهم " . . . [أخرجه الترمذي] .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)

أما قول فرعون لقومه: (ما علمت لكم من إله غيري). . فيفسره قوله الذي حكاه القرآن عنه: أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي , أفلا تبصرون ? أم أنا

خير من هذا الذي هو مهين . ولا يكاد يبين ؟ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ؟ . . وظاهر أنه كان يوازن بين ما هو فيه من ملك ومن أسورة الذهب التي يحلى بها الملوك , وبين ما فيه موسى من تجرد من السلطان والزينة ! . وما قصد بقوله: (ما علمت لكم من إله غيري) إلا أنه هو الحاكم المسيطر الذي يسيرهم كما يشاء ; والذي يتبعون كلمته بلا معارض ! والحاكمة على هذا النحو ألوهية كما يفيد المدلول اللغوي ! وهي في الواقع ألوهية . فالإله هو الذي يشرع للناس وينفذ حكمه فيهم ! سواء قالها أم لم يقلها ! وعلى ضوء هذا البيان نملك أن نفهم مدلول قول ملاً فرعون:

(أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض , ويذرك وآلهتك ؟) . .

فالإفساد في الأرض - من وجهة نظرهم - هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده ; حيث يترتب عليها تلقائياً بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله . إذ أن هذا النظام قائم على أساس حاكمة فرعون بأمره - أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه - وإذن فهو - بزعمهم - الإفساد في الأرض , بقلب نظام الحكم , وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر , وإنشاء وضع آخر مخالف تماماً لهذه الأوضاع , الربوبية فيه لله لا للبشر . ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون وآلهته التي يعبدها هو وقومه . .

ولقد كان فرعون إنما يستمد هيئته وسلطانه من الديانة التي تعبد فيها هذه الآلهة . . بزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة ! وهي بنوة ليست حسية ! فلقد كان الناس يعرفون جيداً أن الفرعون مولود من أب وأم بشريين . إنما كانت بنوة رمزية يستمد منها سلطانه وحاكميته . فإذا عبد موسى وقومه رب العالمين . وتركوا هذه الآلهة التي يعبدها المصريون , فمعنى هذا هو تحطيم الأساس الذي يستمد منه فرعون سلطانه الروحي على شعبه المستخف ; الذي إنما يطيعه لأنه هو كذلك فاسق عن دين الله الصحيح . . وذلك كما يقول الله سبحانه:(فاستخف قومه فأطاعوه . . إنهم كانوا قوماً فاسقين) فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ . . وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه , لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله . . فالمؤمن بالله لا يستخفه الطاغوت , ولا يمكن أن يطيع له امراً , وهو يعلم أن هذا الأمر ليس من شرع الله . . ومن هنا كان يجيء التهديد لنظام حكم فرعون كله بدعوة موسى - عليه السلام - إلى (رب العالمين) وإيمان السحرة بهذا الدين , وإيمان طائفة من قوم موسى كذلك وعبادتهم لرب العالمين . . ومن هنا يجيء التهديد لكل وضع يقوم على ربوبية البشر للبشر من الدعوة إلى ربوبية الله وحده . . أو من شهادة أن لا إله إلا الله . . حين تؤخذ بمدلولها الجدي الذي كان الناس يدخلون به في الإسلام . لا بمدلولها الباهت الهزيل الذي صار لها في هذه الأيام ! ومن هنا كذلك استثارت هذه الكلمات فرعون , وأشعرته بالخطر الحقيقي على نظامه كله فانطلق يعلن عزمه الوحشي البشع:

(قال:سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون):

وكان بنو إسرائيل قد عانوا من قبل - في إبان مولد موسى - مثل هذا التنكيل الوحشي من فرعون وملئه كما يقول الله تعالى في سورة القصص: (إن فرعون علا في الأرض , وجعل أهلها شيعاً , يستضعف طائفة

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)

منهم , يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) . .

إنه الطغيان في كل مكان وفي كل زمان . لا فرق بين وسائله اليوم ووسائله قبل
عشرات القرون والأعوام . . !

الدرس السادس: 128 - 129 موسى يثبت قومه ويعددهم بالنصر

وبدع السياق فرعون وملأه يتآمرون , ويسدل الستار على مشهد التآمر والوعيد ,
ليرفعه على مشهد خامس من مشاهد القصة ندرك منه أن فرعون قد مضى ينفذ الوعيد
. . إنه مشهد النبي موسى - عليه السلام - مع قومه , يحدثهم بقلب النبي ولغته ,
ومعرفته بحقيقة ربه ; وبسنته وقدره , فيوصيهم باحتمال الفتنة , والصبر على البلية ,
والاستعانة بالله عليها . ويعرفهم بحقيقة الواقع الكوني . فالأرض لله يورثها من يشاء
من عباده . والعاقبة لمن يتقون الله ولا يخشون أحداً سواه . . فإذا شكوا إليه أن هذا
العذاب الذي يحل بهم قد حل بهم من قبل أن يأتيهم , وهو يحل بهم كذلك بعدما جاءهم ,
حيث لا تبدو له نهاية , ولا يلوح له آخر ! أعلن لهم رجاءه في ربه أن يهلك عدوهم ,
ويستخلفهم في الأرض ليتليهم في أمانة الخلافة:

(قال موسى لقومه: استعينوا بالله واصبروا , إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ,
والعاقبة للمتقين . قالوا: أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئنا . قال: عسى ربكم أن
يهلك عدوكم , ويستخلفكم في الأرض , فينظر كيف تعملون).

إنها رؤية "النبي" لحقيقة الألوهية وإشراقها في قلبه . ولحقيقة الواقع الكوني والقوى
التي تعمل فيه . ولحقيقة السنة الإلهية وما يرجوه منها الصابرون . .

إنه ليس لأصحاب الدعوة إلى رب العالمين إلا ملاذ واحد , وهو الملاذ الحصين الأمين ,
وإلا ولي واحد وهو الولي القوي المتين . وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة
في الوقت الذي يقدره بحكمته وعلمه . وألا يعجلوا , فهم لا يطلعون الغيب , ولا يعلمون
الخير . .

وإن الأرض لله . وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها . والله يورثها من يشاء من عباده -
وفق سنته وحكمته - فلا ينظر الداعون إلى رب العالمين , إلى شيء من ظواهر الأمور
التي تخيل للناظرين أن الطاغوت مكين في الأرض غير مزحج عنها . . فصاحب الأرض
ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها !

وإن العاقبة للمتقين . . طال الزمن أم قصر . . فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب
العالمين قلق على المصير . ولا يخایل لهم تقلب الذين كفروا في البلاد , فيحسبونهم
باقين . .

إنها رؤية "النبي" لحقائق الوجود الكبير . .

ولكن إسرائيل هي إسرائيل !

(قالوا: أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئنا):

إنها كلمات ذات ظل ! وإنما لتشي بما وراءها من تيرم ! أودينا قبل مجيئك وما تغير شيء بمجيئك . وطال هذا الأذى حتى ما تبدوا له نهاية !

ويمضي النبي الكريم على نهجه . يذكرهم بالله , ويلق رجاؤهم به , ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم . واستخلافهم في الأرض . مع التحذير من فتنة الاستخلاف .

(قال: عسى ربكم أن يهلك عدوكم , ويستخلفكم في الأرض , فينظر كيف تعملون).

إنه ينظر بقلب النبي فيرى سنة الله , تجري وفق وعده , للصابرين , وللجاحدين ! ويرى من خلال سنة الله

قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130)

هلاك الطاغوت وأهله , واستخلاف الصابرين المستعنين بالله وحده . فيدفع قومه دفعا إلى الطريق لتجري بهم سنة الله إلى ما يريد . وهو يعلمهم - منذ البدء - أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم . ليس أنهم أبناء الله وأحباؤه - كما زعموا - فلا يعذبهم بذنوبهم ! وليس جزافاً بلا غاية . وليس خلوداً بلا توقيت . إنه استخلاف للامتحان: (فينظر كيف تعملون). . وهو سبحانه يعلم ماذا سيكون قبل أن يكون . ولكنها سنة الله وعدله ألا يحاسب البشر حتى يقع منهم في العيان , ما هو مكشوف من الغيب لعلمه القديم .

الدرس السابع: 130 - 137 أخذ آل فرعون بالعذاب ثم بالغرق ونجاة بني إسرائيل

ويدع السياق موسى وقومه ; ويسدل عليهم الستار , ليرفعه من الجانب الآخر على مشهد سادس: مشهد فرعون وآله , يأخذهم الله بعاقبة الظلم والطغيان ; ويحقق وعد موسى لقومه , ورجاءه في ربه ; ويصدق النذير الذي يظلل جو السورة , وتساق القصة كلها لتصديقه .

ويبدأ المشهد هوناً ; ولكن العاصفة تتمشى فيه شيئاً فشيئاً , فإذا كان قبيل إسدال الستار دمدمت العاصفة , فدمرت كل شيء , وعصفت بكل شيء , وخلا وجه الأرض من الطاغية وذبول الطاغية , وعلمنا أن بني إسرائيل قد صبروا فلقوا جزاء صبرهم الحسن , وأن فرعون وآله فجرروا فلقوا جزاء فجورهم الدمار وصدق وعد الله ووعيده ; وجرت سنة الله في أخذ المكذبين بالهلاك بعد أخذهم بالضراء والسراء:

ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقصنا من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا: لنا هذه ! وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه . ألا إنما طائرهم عند الله , ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا: مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . . آيات مفصلات . . فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض

ومغاربها التي باركنا فيها ; وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل . . بما صبروا . .
ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون . .

لقد مضى فرعون وملؤه إذن في جبروتهم ; ونفذ فرعون وعيده وتهديده , فقتل الرجال
واستحيا النساء . ولقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب , ويرجون فرج الله ,
ويصبرون على الابتلاء . . وعندئذ . . عندما نمحص الموقف: إيمان يقابله الكفر . وطغيان
يقابله الصبر . وقوة أرضية تتحدى الله . . عندئذ أخذت القوة الكبرى تتدخل سافرة بين
المتجبرين والصابرين:

(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) . .

إنها إشارة التحذير الأولى . . الجذب ونقص الثمرات . . و(السنين) تطلق في اللغة على
سني الجذب والشدة والقحط . وهي في أرض مصر , المخيبة المثمرة المعطاء , تبدو
ظاهرة تلفت النظر , وتهز القلب , وتثير القلق , وتدعو إلى اليقظة والتفكير ; لولا أن
الطاغوت والذين يستخفهم الطاغوت - بفسقهم عن دين الله - فيطيعونه , لا يريدون أن
يتدبروا ولا أن يتفكروا ; ولا يريدون أن يروا يد الله في جذب الأرض ونقص الثمرات ; ولا
يريدون أن يتذكروا سنن الله ووعده ووعيده ; ولا يريدون أن يعترفوا بأن هناك علاقة
وثيقة بين القيم الإيمانية وواقعات الحياة العملية . . لأن هذه العلاقة من عالم الغيب . .
وهم أغلظ حساً وأجهل قلباً من أن يروا وراء الواقع المحسوس - الذي تراه البهائم
وتحسه ولا ترى غيره ولا تحسه - شيئاً ! وإذا رأوا شيئاً من

فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحِسْنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا
طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَتَا
بِهَا فَمَا تَخُنْ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) قَارِئِنَا عَلَيْهِمُ الطُّوقَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالصَّفَادِعَ
وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (133) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ
قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ
مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُودِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (135)
(135) فَإِن تَقَمَّتْ مِنْهُمْ فَأَعْرِفْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136)
وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ
وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137)

عالم الغيب لم يتفطنوا إلى سنة الله الجارية وفق المشيئة الطليقة ; وإنما نسبوه إلى
المصادفات العابرة , التي لا علاقة لها بنواميس الوجود الدائرة .

وكذلك لم ينتبه آل فرعون إلى اللمسة الموقظة الدالة على رحمة الله بعباده - حتى
وهم يكفرون ويفجرون . كانت الوثنية وخرافاتهما قد أفسدت فطرتهم ; وقطعت ما بينهم
وبين إدراك النواميس الدقيقة الصحيحة التي تصرف هذا الكون , كما تصرف حياة
الناس ; والتي لا يراها ولا يدركها على حقيقتها إلا المؤمنون بالله إيماناً صحيحاً . . الذين
يدركون أن هذا الوجود لم يخلق سدى , ولا يمضي عبثاً , إنما تحكمه قوانين صارمة
صادقة . . وهذه هي "العقلية العلمية" الحقيقية . وهي عقلية لا تنكر "غيب الله" لأنه لا
تعارض بين "العلمية" الحقيقية و"الغيبية" ; ولا تنكر العلاقة بين القيم الإيمانية
واقعات الحياة , لأن وراءها الله الفعال لما يريد ; الذي يريد من عباده الإيمان وهو

يريد منهم الخلافة في الأرض , والذي يسن لهم من شريعته ما يتناسق مع القوانين الكونية ليقع التناسق بين حركة قلوبهم وحركتهم في الأرض . .

لم ينتبه آل فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله , وبغيهم وظلمهم لعباد الله . . وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات . . في مصر التي تفيض بالخصب والعطاء , ولا تنقص غلتها عن إعالة أهلها إلا لفسوق أهلها وأخذهم بالابتلاء لعلمهم يتذكرون !

لم ينتبهوا لهذه الظاهرة التي شاءت رحمة الله بعباده أن تبرزها لأعينهم . ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبوها حقاً طبيعياً لهم ! وإذا أصابتهم السيئة والجدب نسبوا هذا إلى شؤم موسى ومن معه عليهم .

(فإذا جاءتهم الحسنة قالوا: لنا هذه ! وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه). .

وحين تنحرف الفطرة عن الإيمان بالله , فإنها لا ترى يده - سبحانه - في تصريف هذا الوجود ; ولا ترى قدره الذي تنشأ به الأشياء والأحداث . وعندئذ تفقد إدراكها وحساسيتها بالنواميس الكونية الثابتة النافذة . فتفسر الحوادث تفسيرات منفصلة منعزلة . لا صلة بينها ولا قاعدة ولا ترابط ; وتهيم مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة ; لا تلتقي عند قاعدة , ولا تجتمع وفق نظام - وذلك كالذي قاله خروشوف صاحب الاشتراكية "العلمية ! " عن معاكسة "الطبيعة ! " لهم في تعليل نقص الثمرات والغلات ! وكما يقول الذين يمضون مع هذه "العلمية " المدعاة في تعليل مثل هذه الأحداث . . وهم ينكرون قدر الله . . وفيهم من يدعي بعد استنكار غيب الله وقدر الله أنه "مسلم" وهو ينكر أصول الإيمان بالله !

وهكذا مضى فرعون وآله يعللون الأحداث . الحسنة التي تصيبهم هي من حسن حظهم وهم يستحقونها . والسيئة التي تصيبهم هي بشؤم موسى ومن معه عليهم , ومن تحت رأسهم !

وأصل "التطير" في لغة العرب ما كان الجاهليون في وثنتهم وشركهم وبعدهم عن إدراك سنن الله وقدره يزاولونه . . فقد كان الرجل منهم إذا أراد أمراً , جاء إلى عيش طائر فهيجه عنه , فإذا طار عن يمينه - وهو السانح - استبشر بذلك ومضى في الأمر الذي يريده . وإذا طار الطائر عن شماله - وهو البارح - تشاءم به ورجع عما عزم عليه ! فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي ; وأحل محله التفكير "العلمي" - العلمي الصحيح - وأرجع الأمور إلى سنن الله الثابتة في الوجود ; وإلى قدر الله الذي يحقق هذه السنن في كل مرة تتحقق فيها ; وأقام الأمور على أسس "علمية" يحسب فيها نية الإنسان وعمله وحركته وجهده ; وتوضع في موضعها الصحيح , في إطار المشيئة الإلهية الطليقة , وقدره النافذ المحيط :

(ألا إنما طائرهم عند الله ; ولكن أكثرهم لا يعلمون). .

إن ما يقع لهم مصدره كله واحد . . إنه من أمر الله . . ومن هذا المصدر تصيبهم الحسنة للابتلاء . . وتصيبهم السيئة للابتلاء: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون). . . ويصيبهم النكال للجزاء . . ولكن أكثرهم لا يعلمون . . كالذين ينكرون غيب الله وقدره في هذه الأيام باسم "العقلية العلمية" ! وكالذين ينسبون إلى الطبيعة المعاكسة باسم "الاشتراكية العلمية" كذلك !!! وكلهم جهال . . وكلهم لا يعلمون !

ويمضي آل فرعون في عتوهم , تأخذهم العزة بالإثم ; ويزيدهم الابتلاء شماساً وعناداً :
(وقالوا: مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين). .

فهو الجموح الذي لا تروضه تذكرة ; ولا يرده برهان ; ولا يريد أن ينظر ولا أن يتدبر , لأنه يعلن الإصرار على التكذيب قبل أن يواجه البرهان - قطعاً للطريق على البرهان ! - وهي حالة نفسية تصيب المتجبرين حين يدمغهم الحق ; وتجههم البيئة , ويطاردهم الدليل . . بينما هواهم ومصلحتهم وملكهم وسلطانهم . . كله في جانب آخر غير جانب الحق والبيئة والدليل !

عندئذ تتدخل القوة الكبرى سافرة بوسائلها الجبارة:

(فأرسلنا عليهم الطوفان , والجراد , والقمل , والضفادع والدم . . آيات مفصلات . .)

للإنذار والابتلاء . . آيات مفصلات . . واضحة الدلالة , منسقة الخطوات , تتبع الواحدة منها الأخرى , وتصدق اللاحقة منها السابقة .

ولقد جمع السياق هنا تلك الآيات المفصلة , التي جاءتهم مفرقة . واحدة واحدة . وهم في كل مرة يطلبون إلى موسى تحت ضغط البلية أن يدعو لهم ربه لينقذهم منها ; وبعدونه أن يرسلوا معه بني إسرائيل إذا أنجاهم منها , وإذا رفع عنهم هذا(الرجز), أي العذاب , الذي لا قبل لهم بدفعه:

(ولما وقع عليهم الرجز قالوا: يا موسى ادع لنا ربك - بما عهد عندك - لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك , ولنرسلن معك بني إسرائيل). .

وفي كل مرة ينقضون عهدهم , ويعودون إلى ما كانوا فيه قبل رفع العذاب عنهم وفق قدر الله في تأجيلهم إلى أجلهم المقدر لهم:

(فلما كشفنا عنهم الرجز - إلى أجل هم بالغوه - إذا هم ينكثون). .

جمع السياق الآيات كلها , كأنما جاءتهم مرة واحدة . وكأنما وقع النكت منهم مرة واحدة . ذلك أن التجارب كلها كانت واحدة , وكانت نهايتها واحدة كذلك . وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصص يجمع فيها البدايات لتمثلها ; ويجمع فيه النهايات لتمثلها كذلك . . ذلك أن القلب المغلق المطموس يتلقى التجارب المتنوعة وكأنها واحدة ; لا يفيد منها شيئاً , ولا يجد فيها عبرة . .

فأما كيف وقعت هذه الآيات , فليس لنا وراء النص القرآني شيء . ولم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله [ص] عنها شيئاً . ونحن على طريقتنا في هذه "الظلال" نقف عند حدود النص القرآني في مثل هذه المواضع . لا سبيل لنا إلى شيء منها إلا من طريق الكتاب أو السنة الصحيحة . وذلك تحرزاً من الإسرائيليات والأقوال والروايات التي لا أصل لها ; والتي تسربت - مع الأسف - إلى التفاسير القديمة كلها , حتى ما ينجو منها تفسير واحد من هذه التفاسير ; وحتى إن تفسير الإمام ابن جرير الطبري - على نفاسة قيمته - وتفسير ابن كثير كذلك - على عظيم قدره - لم ينجوا من هذه الظاهرة الخطيرة . .

وقد وردت روايات شتى في شأن هذه الآيات عن ابن عباس , وعن سعيد بن جبير , وعن قتادة , وعن ابن إسحاق . . رواها أبو جعفر ابن جرير الطبري في تاريخه وفي تفسيره . وهذه واحدة منها:

"حدثنا ابن حميد , قال: حدثنا يعقوب القمي , عن جعفر بن المغيرة , عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل , فأبى عليه , فأرسل الله عليهم الطوفان - وهو المطر - فصب عليهم منه شيئاً , فخافوا أن يكون عذاباً , فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ! فدعا ربه , فلم يؤمنوا , ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ; فأثبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبت قبل ذلك من الزرع والتمر والكلأ . فقالوا: هذا ما كنا نتمنى ! فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ , فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع . فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك , ونرسل معك بني إسرائيل ! فدعا ربه , فكشف عنهم الجراد , فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ! فداسوا وأحرزوا في البيوت , فقالوا: قد أحرزنا ! فأرسل الله عليهم القمل - وهو السوس الذي يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها ثلاثة أقفزة . فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل , فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ! فدعا ربه فكشف عنهم , فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل . فبينما هو جالس عند فرعون , إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا ! فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟! فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع , وبهم أن يتكلم فتثب الضفادع في فيه . فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع , فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ! فكشف عنهم فلم يؤمنوا . فأرسل الله عليهم الدم , فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار , أو ما كان في أوعيتهم , وجدوه دماً عبيطاً . فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم , وليس لنا شراب ! فقال: إنه قد سحركم ! فقالوا: من أين سحرنا , ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً ? فأتوه فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم , فنؤمن لك , ونرسل معك بني إسرائيل ! فدعا ربه , فكشف عنهم , فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل . "

والله أعلم أي ذلك كان . . والصورة التي جاءت بها هذه الآيات لا يؤثر اختلافها في طبيعة هذه الآيات . فالله - سبحانه - أرسلها بقدره , في وقت معين , ابتلاء لقوم معينين ; وفق سنته في أخذ المكذبين بالضراء لعلمهم يتضرعون .

ولقد كان قوم فرعون على وثنياتهم وجاهليتهم ; وعلى استخفاف فرعون بهم لفسقهم , يلجأون إلى موسى - عليه السلام - ليدعوا ربه بما عهد عنده , ليكشف عنهم البلاء . . وإن كانت السلطات الحاكمة بعد ذلك تنكث ولا تستجيب . لأنها تقوم على ربوبية فرعون للبشر ; وتفزع من ربوبية الله لهم . إذ أن ذلك معناه هدم نظام الحكم الذي يقوم على حاكمية فرعون لا حاكمية الله ! . . أما أهل الجاهلية الحديثة فإن الله يسلب الآفات على زروعهم , فلا يريدون أن يرجعوا إلى الله البتة ! وإذا أحس أصحاب الزروع من الفلاحين بيد الله في هذه الآفات , - وهو الشعور الفطري حتى في النفوس الكافرة في ساعات الخطر والشدة ! - واتجهوا إلى الله بالدعاء أن يكشف عنهم البلاء , قال لهم أصحاب "العلمية" الكاذبة: هذا الاتجاه خرافة "غيبية" ! " وتندروا عليهم وسخروا منهم ! ليردوهم إلى كفر أشد وأشنع من كفر الوثنيين !

ثم تجيء الخاتمة - وفق سنة الله في أخذ المكذبين بعد الابتلاء بالضراء والسراء - وتقع الواقعة . ويدمر الله على فرعون وملئه - بعد إذ أمهلهم وأجلهم إلى أجل هم بالغوه - ويحقق وعده للمستضعفين الصابرين , بعد إهلاك الطغاة المتجبرين:

فانتقمنا منهم فأغرقتناهم في اليم , بأنهم كذبوا بآياتنا , وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها " . . . " وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا , ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه , وما كانوا يعرشون . .

والسياق يختصر هنا في حادث الإغراق , ولا يفصل أحداثه كما يفصلها في مواضع أخرى من السور . ذلك أن الجو هنا هو جو الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل ; فلا يعرض لشيء من التفصيل . . إن الحسم السريع هنا أوقع في النفس وأرهب للحس !

فانتقمنا منهم فأغرقتناهم في اليم . .

ضربة واحدة , فإذا هم هالكون . ومن التعالي والتطاول والاستكبار , إلى الهوي في الأعماق والأغوار , جزاء وفاقاً:

(بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) . .

فيربط بين التكذيب بالآيات والغفلة عنها , وبين هذا المصير المقدور . ويقرر أن الأحداث لا تجري مصادفة , ولا تمضي فلتات عابرة , كما يظن الغافلون !

وتنسيقاً للجو الحاسم يعجل السياق كذلك بعرض الصفحة الأخرى - صفحة استخلاف المستضعفين - ذلك أن استخلاف بني إسرائيل - في الفترة التي كانوا أقرب ما يكونون فيها إلى الصلاح وقبل أن يزيغوا فيكتب عليهم الذل والتشرد - لم يكن في مصر , ولم يكن في مكان فرعون وآله . إنما كان في أرض الشام , وبعد عشرات السنوات من حادث إغراق فرعون - بعد وفاة موسى عليه السلام وبعد التيه أربعين سنة كما جاء في السورة الأخرى - ولكن السياق يطوي الزمان والأحداث , ويعجل بعرض الاستخلاف هنا تنسيقاً لصفحتي المشهد المتقابلتين:

وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها " . . . " وتمت كلمة ربك السننى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه , وما كانوا يعرشون . .

على أننا نحن البشر - الفانين المقيدون بالزمان - إنما نقول "قبل" و"بعد" لأننا نؤرخ للأحداث بوقت مرورها بنا وإدراكنا لها ! لذلك نقول: إن استخلاف القوم الذين كانوا يستضعفون , كان متأخراً عن حادث الإغراق . . ذلك إدراكنا البشري . . فأما الوجود المطلق والعلم المطلق فما "قبل" عنده وما "بعد"؟! والصفحة كلها معروضة له سواء , مكشوفة لا يحجبها زمان ولا مكان . . ولله المثل الأعلى . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً .

وهكذا يسدل الستار على مشهد الهلاك والدمار في جانب ; وعلى مشهد الاستخلاف والعمار في الجانب الآخر . . وإذا فرعون الطاغية المتجبر وقومه مغرقون , وإذا كل ما كانوا يصنعون للحياة , وما كانوا يقيمون من عمائر فخمة قائمة على عمد وأركان , وما

كانوا يعرشون من كروم وثمار . . إذا هذا كله حطام , في ومضة عين , أو في بضع كلمات قصار !

مثل يضربه الله للقلة المؤمنة في مكة , المطاردة من الشرك وأهله ; ورؤيا في الأفق لكل عصابة مسلمة تلقى من مثل فرعون وطاغوته , ما لقيه الذين كانوا يستضعفون في الأرض , فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها المباركة - بما صبروا - لينظر كيف يعملون !

الوحدة التاسعة: 138 - 171 الموضوع: مشاهد من قصة بني إسرائيل في عهد موسى وبعده مقدمة الوحدة

في هذا الدرس تمضي قصة موسى - عليه السلام - في حلقة أخرى . . مع قومه بني إسرائيل ; بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم ; وأغرق فرعون وملاه ; ودمر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون . . إن موسى - عليه السلام - لا يواجه اليوم طاغوت فرعون وملئه ; فقد انتهت المعركة مع الطاغوت . . ولكنه يواجه معركة أخرى - لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً - إنه يواجه المعركة مع "النفس البشرية ! " يواجهها مع رواسب الجاهلية في هذه النفس ; ويواجهها مع رواسب الذل الذي أفسد طبيعة بني إسرائيل ; وملاها بالالتواء من ناحية ; وبالقسوة من ناحية ; وبالجن من ناحية ; وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية . وتركها مهلهلة بين هذه النزعات جميعاً . . فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً ; ومن الحياة في ظل الإرهاب والخوف والتخفي والالتواء لتفادي الأخطار والعذاب , والحركة في الظلام , مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء !

ولقد عاش بنو إسرائيل في هذا العذاب طويلاً ; عاشوا في ظل الإرهاب ; وفي ظل الوثنية الفرعونية كذلك . عاشوا يقتل فرعون أبناءهم ويستحيي نساءهم . فإذا فتر هذا النوع البشع من الإرهاب الوحشي , عاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال .

وفسدت نفوسهم ; وفسدت طبيعتهم ; والتوت فطرتهم ; وانحرفت تصوراتهم ; وامتلات نفوسهم بالجن والذل من جانب , وبالحدق والقسوة من الجانب الآخر . . وهما جانبان متلازمان في النفس البشرية حيثما تعرضت طويلاً للإرهاب والطغيان . .

لقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ينظر بنور الله , فيرى حقيقة تركيب النفس البشرية وطبيعتها ; وهو يقول لعماله على الأمصار موصياً لهم بالناس: " ولا تضربوا أبشارهم فتذلوهم " . . كان يعلم أن ضرب البشرة يذل الناس . وكان الإسلام في قلبه يريد منه ألا يذل الناس في حكومة الإسلام وفي مملكة الله . فالناس في مملكة الله أعزاء , ويجب أن يكونوا أعزاء ; وألا يضربهم الحكام فيذلوهم , لأنهم ليسوا عبيداً للحكام . . إنما هم عبيد لله أعزاء على غير الله . .

ولقد ضربت أبشار بني إسرائيل في طاغوت الفرعونية حتى ذلوا . بل كان ضرب الأبخار هو أخف ما يتعرضون له من الأذى في فترات الرخاء ! ولقد ضربت أبشار المصريين كذلك حتى ذلوا هم الآخرون واستخفهم فرعون ! ضربت أبشارهم في عهد الطاغوت الفرعوني ; ثم ضربت أبشارهم في عهد الطاغوت الروماني . . ولم يستنقذهم من هذا الذل إلا الإسلام , يوم جاءهم بالحرية فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لرب البشر . . فلما أن ضرب ابن عمرو بن العاص - فاتح مصر وحاكمها

المسلم - ظهر ابن قبطي من أهل مصر - لعل سياط الرومان كانت آثارها على ظهره ما تزال - غضب القبطي لسوط واحد يصيب ابنه - من ابن فاتح مصر وحاكمها - وسافر شهراً على ظهر ناقة , ليشكو إلى عمر بن الخطاب - الخليفة المسلم - هذا السوط الواحد الذي نال ابنه ! - وكان هو يصبر على السياط منذ سنوات قلائل في عهد الرومان - وكانت هذه هي معجزة البعث الإسلامي

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140)

لنفوس الأقباط في مصر , وللنفوس في كل مكان - حتى لمن لم يعتنقوا الإسلام - كانت هذه هي معجزة هذا البعث الذي يستنقذ الأرواح من ركاب آلاف السنين من الذل القديم , فتنفض هكذا انتفاضة الكرامة التي أطلقها الإسلام في أرواحهم ; وما كان غير الإسلام ليطلقها في مثل هذه الأرواح .

عملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعوني هي التي سيواجهها موسى عليه السلام في هذه الحلقة - بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوزه بهم البحر - وسنرى من خلال القصص القرآني هذه النفوس , وهي تواجه الحرية بكل رواسب الذل ; وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية ; وتواجه موسى - عليه السلام - بكل الالتواءات والانحرافات والانحلالات والجهالات التي ترسبت فيها على الزمن الطويل !

وسنرى متاعب موسى - عليه السلام - في المحاولة الضخمة التي يحاولها ; وثقله الجبلات التي أخذت إلى الأرض طويلاً , حتى ما تريد أن تنهض من الوحل الذي تمرغت فيه طويلاً , وقد حسبته الأمر العادي الذي ليس غيره !

وسنرى من خلال متاعب موسى - عليه السلام - متاعب كل صاحب دعوة , يواجه نفوساً طال عليها الأمد , وهي تستمرئ حياة الذل تحت قهر الطاغوت - وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها إليها , ثم طال عليها الأمد , فبهتت صورتها , وعادت شكلاً لا روح فيه !

إن جهد صاحب الدعوة - في مثل هذه الحال - لهو جهد مضاعف . ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك . . يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات , وثقله الطبايع وتفاهة الاهتمامات ; ويجب أن يصبر على الانتكاس الذي يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة , والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة !

ولعل هذا جانب من حكمة الله في عرض قصة بني إسرائيل على الأمة المسلمة , في هذه الصورة المفصلة المكررة . لترى فيها هذه التجربة . كما قلنا من قبل . ولعل فيها زاداً لأصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل .

الدرس الأول: 138- 141 بنو إسرائيل يطلبون عبادة الأصنام

(وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال: إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء مُتَّبِعُونَ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال: أغير الله أبعيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ؟ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب: يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم , وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) . .

إنه المشهد السابع في القصة - مشهد بني إسرائيل بعد تجاوز البحر - ونحن فيه وجهاً لوجه أمام طبيعة القوم المنحرفة المستعصية على التقويم ; بما ترسب فيها من ذلك التاريخ القديم . . إن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون الخسف في ظل الوثنية الجاهلية عند فرعون وملئه ; ومنذ أن أنقذهم نبيهم وزعيمهم موسى - عليه السلام - باسم الله الواحد - رب العالمين - الذي أهلك عدوهم ; وشق لهم البحر ; وأنجاهم من العذاب الوحشي الفطيع الذي كانوا يسامون . . إنهم خارجون للتو واللحظة من مصر ووثنياتها ; ولكن ها هم أولاء ما إن يجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وثنيين , عاكفين على أصنام لهم , مستغرقين في طقوسهم الوثنية ; وإذا هم يطلبون إلى موسى - رسول رب العالمين - الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد , أن يتخذ لهم وثناً يعبدونه من جديد !

(وجاوزنا بني إسرائيل البحر , فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)!

إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام ! ولكنها لاتصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية . وطبيعة بني إسرائيل - كما عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً أميناً في شتى المناسبات - طبيعة مخلخلة العزيمة , ضعيفة الروح , ما تكاد تهتدي حتى تضل , وما تكاد ترتفع حتى تنحط , وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس . . ذلك إلى غلظ في الكبد , وتصلب عن الحق , وقساوة في الحس والشعور ! وها هم أولاء على طبيعتهم تلك , ها هم أولاء ما يكادون يَمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عاماً منذ أن جاءهم موسى - عليه السلام - بالتوحيد - فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عاماً منذ أن واجه فرعون وملأه برسالته إلى يوم الخروج من مصر مجتازاً بني إسرائيل البحر - بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكه هؤلاء أجمعين ! وهؤلاء كانوا وثنيين , وباسم هذه الوثنية استذلوهم - حتى إن الملائكة من قوم فرعون ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم: (أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك?) . . ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نبيهم: رسول رب العالمين أن يتخذ لهم بنفسه . . آلهة ! ولو أنهم هم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة . . ولكنما هي إسرائيل ! . .

ويغضب موسى - عليه السلام - غضبة رسول رب العالمين , لرب العالمين - يغضب لربه - سبحانه - ويغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه ! فيقول قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب:

(قال: إنكم قوم تجهلون) . .

ولم يقل تجهلون ماذا ؟ ليكون في إطلاق اللفظ ما يعني الجهل الكامل الشامل . . الجهل من الجهالة ضد المعرفة , والجهل من حماقة ضد العقل ! فما ينبعث مثل هذا

القول إلا من الجهالة والحمق إلى أبعد الحدود ! ثم ليشير إلى أن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماسة ; وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلى الله الواحد ; وأنه ما من علم ولا عقل يقود إلى غير هذا الطريق . .

إن العلم والعقل يواجهان هذا الكون بنواميسه التي تشهد بوجود الخالق المدبر ; وبوحدانية هذا الخالق المدبر . فعنصر التقدير والتدبير بارز في هذه النواميس , وطابع الوحدة ظاهر كذلك فيها وفي آثارها التي يكشفها النظر والتدبر - وفق المنهج الصحيح - وما يغفل عن ذلك كله , أو يعرض عن ذلك كله , إلا الحمقى والجهال . ولو ادعوا "العلم" كما يدعيه الكثيرون !

ويمضي موسى - عليه السلام - يكشف لقومه عن سوء المغبة فيما يطلبون , بالكشف عن سوء عقبي القوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم , فأرادوا أن يقلدوهم:
(إن هؤلاء متبر ما هم فيه , وباطل ما كانوا يعملون).

إن ما هم فيه من شرك , وعكوف على الآلهة , وحية تقوم على هذا الشرك , وتتعدد فيها الأرباب , ومن يقوم وراء الأرباب من السدنة والكهنة , ومن حكام يستمدون سلطانهم من هذا الخليط . . إلى آخر ما يتبع الانحراف عن الألوهية الواحدة من فساد في التصورات وفساد في الحياة . . إن هذا كله هالك باطل ; ينتظره ما ينتظر كل باطل من الهلاك والدمار في نهاية المطاف !

ثم ترتفع نعمة الغيرة في كلمات موسى - عليه السلام - على ربه والغضب له - سبحانه - والتعجب من نسيان قومه لنعمة الله عليهم - وهي حاضرة ظاهرة :-
(قال: أغير الله أبعيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين?). .

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ
وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

والتفضيل على العالمين - في زمانهم يتجلى في اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين . وليس وراء ذلك فضل ولا منة . فهذا ما لا يعدله فضل ولا منة . كما أنه اختارهم ليورثهم الأرض المقدسة - التي كانت إذ ذاك في أيدٍ مشركة - فكيف بعد هذا كله يطلبون إلى نبيهم أن يطلب لهم إلهاً غير الله ; وهم في نعمته وفضله يتقبلون !?

وعلى طريقة القرآن الكريم في وصل ما يحكيه عن أولياء الله بما يحكيه عن الله - سبحانه - يستطرد السياق بخطاب من الله تعالى موصول بكلام موسى - عليه السلام - موجه كذلك لقومه:

(وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب , يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم).

وفي مثل هذا الوصل في القرآن الكريم , بين كلام الله - سبحانه - وما يحكيه من كلام أوليائه , تكريم أي تكريم لهؤلاء الأولياء لا ريب فيه !

وهذه المنة التي يمتنها الله على بني إسرائيل - في هذا الموضوع - كانت حاضرة في أذهانهم وأعصابهم . ولقد كانت هذه المنة وحدها كفيلة بأن تذكر وتشكر . . والله سبحانه وتعالى يوجه قلوبهم لما في ذلك الابتلاء من عبرة . . ابتلاء العذاب وابتلاء النجاة . . الابتلاء بالشدة والابتلاء بالرخاء . .

(وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) . .

فما كان شيء من ذلك كله جزافا بلا تقدير . ولكنه الابتلاء للموعظة وللتذكير . وللتمحيص والتدريب . وللإعداد قبل الأخذ الشديد . إن لم يفلح الابتلاء في استصلاح القلوب !

الدرس الثاني: 142 موسى يوصي هارون ويذهب إلى الطور

وبنتهي هذا المشهد بين موسى وقومه , ليبدأ المشهد الثامن الذي يليه . . مشهد تهيؤ موسى - عليه السلام - للقاء ربه العظيم ; واستعداده للموقف الهائل بين يديه في هذه الحياة الدنيا ; ووصيته لأخيه هارون - عليه السلام - قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم:

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة , وأتممناها بعشر , فتم ميقات ربه أربعين ليلة . . وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي , وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) . .

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى التي أرسل لها . انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب بين فرعون وملئه ; وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة , في طريقهم إلى الأرض المقدسة . . ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى . . مهمة الخلافة في الأرض بدين الله . . ولقد رأينا كيف اشترأت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ; وتخلخت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى - عليه السلام - ولم يمض إلا القليل ! فلم يكن بد من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم ; وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم . . ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله لعبدته موسى ليلقاه ويتلقى عنه . وكانت هذه المواعدة إعداداً لموسى لنفسه , كي يتهيأ في هذه الليالي للموقف الهائل العظيم , ويستعد لتلقيه .

وكانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة , أضيفت إليها عشر , فبلغت عدتها أربعين ليلة , يروض موسى فيها نفسه على اللقاء الموعود ; وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليستغرق في هواتف السماء ; ويعتكف فيها عن الخلق ليستغرق فيها في الخالق الجليل ; وتصفو روحه وتشف وتستضيء ; وتتقوى عزيمته على مواجهة الموقف المرتقب وحمل الرسالة الموعودة . .

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)

وألقى موسى إلى أخيه هارون - قبل مغادرته لقومه واعتزاله واعتكافه - بوصيته تلك:

(وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) . .

ذلك وموسى يعلم أن هارون نبي مرسل من ربه معه . ولكن المسلم للمسلم ناصح . والنصيحة حق وواجب للمسلم على المسلم . . ثم إن موسى يقدر ثقل التبعة , وهو يعرف طبيعة قومه بني إسرائيل ! . . وقد تلقى هارون النصيحة . لم تثقل على نفسه ! فالنصيحة إنما تثقل على نفوس الأشرار لأنها تقيدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه ; وتثقل على نفوس المتكبرين الصغار , الذين يحسون في النصيحة تنقصاً لأقذارهم ! . . إن الصغير هو الذي يبعد عنه يدك التي تمتد لتسانده ; ليظهر أنه كبير !!!

فأما قصة الليالي الثلاثين وإتهامها بالعشر الليالي فقال عنها ابن كثير في التفسير: " فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ; قال المفسرون: فصامها موسى - عليه السلام - وطواها , فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة , فأمره الله تعالى أن يكمل العشرة أربعين " . .

الدرس الثالث: 143 - 147 موسى يتلقى التوراة على جبل الطور

ثم يأتي السياق للمشهد التاسع . المشهد الفذ الذي اختص الله به نبيه موسى - عليه السلام - مشهد الخطاب المباشر بين الجليل - سبحانه - وعبد من عباده . المشهد الذي تتصل فيه الذرة المحدودة الفانية بالوجود الأزلي الأبدى بلا وساطة ; ويطبق الكائن البشري أن يتلقى عن الخالق الأبدى , وهو بعد على هذه الأرض . . ولا ندري نحن كيف . لا ندري كيف كان كلام الله - سبحانه - لعبده موسى . ولا ندري بأية حاسة أو جارحة أو أداة تلقى موسى كلمات الله . فتصوير هذا على وجه الحقيقة متعذر علينا نحن البشر المحكومين في تصوراتنا بنصينا المحدود من الطاقة المدركة ; وبرصيدنا المحدود من التجارب الواقعة . ولكننا نملك بالسر اللطيف المستمد من روح الله الذي في كياننا أن نستروح وأن نستشرف هذا الأفق السامق الوضيء . ثم نقف عند هذا الاستشراف لا نحاول أن نفسده بسؤالنا عن الكيفية , نريد أن نتصورها بإدراكنا القريب المحدود !

ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه , قال: رب أرني أنظر إليك . قال: لن تراني , ولكن انظر إلى الجبل , فإن استقر مكانه فسوف تراني . فلما تجلجى ربه للجبل جعله دكاً , وخر موسى صعقاً . فلما أفاق قال: سبحانك ! تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال: يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي . فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء , فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها . سأريكم دار الفاسقين . سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق , وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها , وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً , ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ? .

إننا لفي حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الفريد في خيالنا وفي أعصابنا وفي كياننا كله . . في حاجة إلى استحضاره لنستشرف ونحاول الاقتراب من تصوره ; ولنشعر بشيء من مشاعر موسى عليه السلام فيه . .

(ولما جاء موسى لميقاتنا , وكلمه ربه , قال: رب أرني أنظر إليك) . .

إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه ; وروحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق ! فينسى من هو , وينسى ما هو , ويطلب ما لا يكون لبشر في هذه الأرض , وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض . . يطلب

وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرُ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرَاكَ وَلَكِن نُنظِرُ
إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوَّفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًا وَخَرَّ مُوسَى
صَعْقًا فَلَمَّا أفاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي
اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (144)
الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود . . حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الجازمة:

(قال: لن تراني) . .

ثم يترفق به الرب العظيم الجليل , فيعلمه لماذا لن يراه . . إنه لا يطيق . .

(ولكن انظر إلى الجبل , فإن استقر مكانه فسوف تراني) . .

والجبل أمكن وأثبت . والجبل مع تمكنه وثباته أقل تأثراً واستجابة من الكيان البشري . .
ومع ذلك فماذا ?

(فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً) . .

فكيف كان هذا التجلي ? نحن لا نملك أن نصفه , ولا نملك أن ندركه . ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله , حين تشف أرواحنا وتصفو , وتتجه بكليتها إلى مصدرها . فأما الألفاظ المجردة فلا تملك أن تنقل شيئاً . . لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نصور هذا التجلي . . ونحن أميل إلى اطراح كل الروايات التي وردت في تفسيره ; وليس منها رواية عن المعصوم [ص] والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئاً .

(فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً) . .

وقد ساخت نتوءاته فبدا مسَّوى بالأرض مدكوهاً . . وأدركت موسى رهبة الموقف , وسرت في كيانه البشري الضعيف:

(وخر موسى صعقاً) .

مغشياً عليه , غائباً عن وعيه .

(فلما أفاق) . .

وثاب إلى نفسه , وأدرك مدى طاقته , واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله:

(قال: سبحانك !)

تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك .

(تبت إليك) . .

عن تجاوزي للمدى في سؤالك !

(وأنا أول المؤمنين) . .

والرسل دائماً هم أول المؤمنين بعظمة ربهم و جلاله , وبما ينزله عليهم من كلماته . .
وربهم يأمرهم أن يعلنوا هذا , والقرآن الكريم يحكي عنهم هذا الإعلان في مواضع منه
شتى .

وأدركت موسى رحمة الله مرة أخرى ; فإذا هو يتلقى منه البشري . . بشري الاصطفاء
مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص . . وكانت رسالته إلى فرعون وملئه من
أجل هذا الخلاص:

(قال: يا موسى , إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي , فخذ ما آتيتك وكن من
الشاكرين) . .

ونفهم من قول الله سبحانه لموسى - عليه السلام - (إني اصطفيتك على الناس
برسالاتي) . . أن المقصود بالناس الذين اصطفاه عليهم هم أهل زمانه - فالرسل كانوا
قبل موسى وبعده - فهو الاصطفاء على جيل من

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ
يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْقَاسِمِينَ (145)

الناس بحكم هذه القرينة . أما الكلام فهو الذي تفرد به موسى - عليه السلام - أما أمر
الله تعالى لموسى بأخذ ما آتاه , والشكر على الاصطفاء والعتاء , فهو أمر التعليم
والتوجيه لما ينبغي أن تقابل به نعمة الله . والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - قدوة
للناس ; وللناس فيهم أسوة ; وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر
استزادة من النعمة ; وإصلاحاً للقلب ; وتحرزاً من البطر ; واتصالاً بالله . .

ثم يبين السياق ماذا كان مضمون الرسالة , وكيف أوتيتها موسى:

(وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) . .

وتختلف الروايات والمفسرون في شأن هذه الألواح ; ويصفها بعضهم أوصافاً مفصلة -
نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير - ولا نجد في هذا كله
شيئاً عن رسول الله [ص] فنكتفي بالوقوف عند النص القرآني الصادق لا نتعداه . وما
تزيد تلك الأوصاف شيئاً أو تنقص من حقيقة هذه الألواح . أما ما هي وكيف كتبت فلا
يعيننا هذا في شيء بما أنه لم يرد عنها من النصوص الصحيحة شيء . والمهم هو ما في
هذه الألواح . إن فيها من كل شيء يختص بموضوع الرسالة وغايتها من بيان الله
وشريعته والتوجيهات المطلوبة لإصلاح حال هذه الأمة وطبيعتها التي أفسدها الذل
وطول الأمد سواء !

(فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) . .

والأمر الإلهي الجليل لموسى - عليه السلام - أن يأخذ الألواح بقوة وعزم وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم . . هذا الأمر على هذا النحو فضلاً على أنه يشي بضرورة هذا الأسلوب في أخذ هذه الطبيعة الإسرائيلية , التي أفسدها الذل وطول الأمد , بالعزم والجد , لتحمل تكاليف الرسالة والخلافة , فإنه - كذلك - يوحى بالمنهج الواجب في أخذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها . .

إن العقيدة أمر هائل عند الله - سبحانه - وأمر هائل في حساب هذا الكون , وقدر الله الذي يصرفه , وأمر هائل في تاريخ "الإنسان" وحياته في هذه الأرض وفي الدار الآخرة كذلك . . والمنهج الذي تشرعه العقيدة في وحدانية الله - سبحانه - وعبودية البشر لربوبيته وحده , منهج يغير أسلوب الحياة البشرية بحملتها , ويقوم هذه الحياة على أسلوب آخر غير الذي تجري عليه في الجاهلية , حيث تقوم ربوبية غير ربوبية الله سبحانه , ذات منهج للحياة كلها غير منهج الله الذي ينبثق من تلك العقيدة . .

وأمر له هذه الخطورة عند الله , وفي حساب الكون , وفي طبيعة الحياة وفي تاريخ "الإنسان" . . يجب أن يؤخذ بقوة , وأن تكون له جدية في النفس , وصراحتة وحسمه . ولا ينبغي أن يؤخذ في رخاوة , ولا في تميع , ولا في ترخص , ذلك أنه أمر هائل في ذاته , فضلاً على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها من طبيعته الرخاوة والتميع والترخص , أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر . .

وليس معنى هذا - بطبيعة الحال - هو التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض ! فهذا ليس من طبيعة دين الله . . ولكن معناه الجد والهمة والحسم والصراحة . . وهي صفات أخرى ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض !

ولقد كانت طبيعة بني إسرائيل - بصفة خاصة - بعدما أفسدها طول الذل والعبودية في مصر , تحتاج إلى هذا التوجيه . لذلك نلاحظ أن كل الأوامر لبني إسرائيل كانت مصحوبة بمثل هذا التشديد وهذا التوكيد , تربية لهذه الطبيعة الرخوة الملتوية المنحرفة الخاوية , على الاستقامة والجد والوضوح والصراحة . .

ومثل طبيعة بني إسرائيل كل طبيعة تعرضت لمثل ما تعرضوا له من طول العبودية والذل , والخضوع للإرهاب والتعبد للطواغيت , فبدت عليها أعراض الالتواء والاحتيال , والأخذ بالأسهل تجنباً للمشقة . . كما هو الملحوظ في واقع كثير من الجماعات البشرية التي نطالعتها في زماننا هذا , والتي تهرب من العقيدة لتهرب من تكاليفها , وتسير مع القطيع ; لأن السير مع القطيع لا يكلفها شيئاً !

وفي مقابل أخذ هذا الأمر بقوة يعد الله موسى وقومه أن يمكن لهم في الأرض , وبورثهم دار الفاسقين عن دينه:

(سأريكم دار الفاسقين). . .

والأقرب أنها إشارة إلى الأرض المقدسة التي كانت - في ذلك الزمان - في قبضة الوثنيين , وأنها بشارة لهم بدخولها . . وإن كان بنو إسرائيل لم يدخلوها في عهد موسى - عليه السلام - لأن تربيتهم لم تكن قد استكملت , وطبيعتهم تلك لم تكن قد قوّمت , فوقفوا أمام الأرض المقدسة يقولون لنبيهم: (يا موسى إن فيها قوماً جبارين . وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها , فإن يخرجوا منها فإننا داخلون !). . ثم لما ألح عليهم الرجلان المؤمنان فيهم اللذان يخافان الله , في الدخول والاقتراب ! أجابوا موسى بتوقح الجبان

- كالدابة التي ترفس سائقها ! :- إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها , فاذهب أنت وربك فقاتلا , إنا هاهنا قاعدون ! . . مما يصور تلك الطبيعة الخائفة المفككة الملتوية التي كانت تعالجها العقيدة والشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام , وأمر هذا الأمر الألهي الجليل أن يأخذها بقوة , وأن يأمر قومه بحمل تكاليفها الشاقة . .

وفي نهاية المشهد والتكليم يجيء بيان لعاقبة الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق , ويعرضون عن آيات الله وتوجيهاته , يتضمن تصويراً دقيقاً لطبيعة هذا الصنف من الناس , في نصاعة وجمال التصوير القرآني الفريد لأنماط الطباع ونماذج النفوس:

(سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق , وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها , وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً , وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟) . .

إن الله تعالى يعلن عن مشيئته في شأن أولئك الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق , وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها , وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً , وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً . . إنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها . . آياته في كتاب الكون المنظور , وآياته في كتبه المنزلة على رسله . . ذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته سبحانه وكانوا عنها غافلين .

وإن هذا النموذج من الناس ليرتسم من خلال الكلمات القرآنية , كأنما نراه بسماته وحركاته !

(الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) . .

وما يتكبر عبد من عبيد الله في أرضه بالحق أبداً . فالكبرياء صفة الله وحده . لا يقبل فيها شريكاً . وحيثما تكبر إنسان في الأرض كان ذلك تكبراً بغير الحق ! وشر التكبر ادعاء حق الربوبية في الأرض على عباد الله هذا الحق بالتشريع لهم من دون الله ; وتعبيدهم لهذا التشريع الباطل , ومن هذا التكبر تنشأ سائر ألوان التكبر . فهو أساس الشر كله ومنه ينبعث . ومن ثم تجيء بقية الملامح:

(وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً , وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً) . .

فهي جيلة تجنح عن سبيل الرشد حيثما رأتها , وتجنح الى سبيل الغي حيثما لاح لها , كأنما بالية في تركيبها

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (147)

لا تتخلف ! وهذه هي السمة التي يرسمها التعبير , ويطبع بها هذا النموذج المتكبر , الذي قضت مشيئة الله أن يجازيه على التكذيب بآيات الله والغفلة عنها بصرفه عن هذه الآيات أبداً !

وإن الانسان ليصادف هذا الصنف من الخلق بوصفه هذا وسمته وملامحه , فيرى كأنما يتجنب الرشد ويتبع الغي دون جهد منه , ودون تفكير ولا تدبير ! فهو يعمى عن طريق الرشد ويتجنبه , وينشرح لطريق الغي ويتبعه ! وهو في الوقت ذاته مصروف عن آيات الله لا يراها ولا يتدبرها ولا تلتقط أجهزته إيقاعاتها وإيقاعاتها ! وسبحان الله ! فمن خلال اللمسات السريعة في العبارة القرآنية العجبية ينتفض هذا النموذج من الخلق شاخصاً بارزاً حتى ليكاد القارئ يصيح لتوه: نعم . نعم . أعرف هذا الصنف من الخلق . . إنه فلان !!! وإنه للمعنيّ الموصوف بهذه الكلمات !!!

وما يظلم الله هذا الصنف من الخلق بهذا الجزاء المردي المؤدي الى الهلاك في الدنيا والآخرة . . إنما هو الجزاء الحق لمن يكذب بآيات الله ويغفل عنها , ويتكبر في الأرض بغير الحق , ويتجنب سبيل الرشد حيثما رآه , ويهرع الى سبيل الغي حيثما لاح له ! فإنما بعمله جوزي ; وبسلوكه أورد موارد الهلاك .
(ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) . .

(والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) . .

وحبوط الأعمال مأخوذ من قولهم: حبطت الناقة . . إذا رعت نباتاً ساماً , فانتفخ بطنها ثم نفقت . . وهو وصف ملحوظ فيه طبيعة الباطل الذي يصدر من المكذبين بآيات الله ولقاء الآخرة . فهو ينتفخ حتى يظنه الناس من عظمة وقوة ! ثم ينفق كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السام !

وإنه لجزاء كذلك حق أن تحبط وتهلك أعمال الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة . . ولكن كيف تحبط هذه الأعمال ?

من ناحية الاعتقاد . . نحن نؤمن بصدق وعيد الله لا محالة , أيّاً كانت الظواهر التي تخالف هذه العاقبة المحتومة . فحيثما كذب أحد بآيات الله ولقائه في الآخرة حبط عمله وبطل , وهلك في النهاية وذهب كان لم يكن . .

ومن ناحية النظر . . نحن نجد السبب واضحاً في حياة البشر . . إن الذي يكذب بآيات الله المبتوثة في صفحات هذا الكون المنشور , أو آياته المصاحبة للرسالات , أو التي يحملها الرسل ; ويكذب تبعاً لهذا بلقاء الله في اليوم الآخر . . إن هذا الكائن المسيح روح ضالة شاردة عن طبيعة هذا الكون المؤمن المسلم ونواميسه . . لا تربطه بهذا الكون رابطة . وهو منقطع عن دوافع الحركة الصادقة الموصولة بغاية الوجود واتجاهه . وكل عمل يصدر عن مثل هذا المسخ المقطوع هو عمل حابط ضائع , ولو بدا أنه قائم وناجح . لأنه لا ينبعث عن البواعث الأصلية العميقة في بنية هذا الوجود ; ولا يتجه الى الغاية الكبيرة التي يتجه اليها الكون كله . شأنه شأن الجدول الذي ينقطع عن النبع الأول ; فماله الى الجفاف والضياع في يوم قريب أو بعيد !

والذين لا يرون العلاقة الوثيقة بين تلك القيم الإيمانية وحركة التاريخ الإنساني ; والذين يغفلون عن قدر الله الذي يجري بعاقبة الذين يتنكرون لهذه القيم . . هؤلاء إنما هم الغافلون الذين أعلن الله - سبحانه - عن مشيئته في أمرهم , بصرفهم عن رؤية آياته , وتدبر سننه . . وقدر الله يتربص بهم وهم عنه غافلون . .

والذين يخدعهم ما يرونه في الأمد القصير المحدود , من فلاح بعض الذين يغفلون عن تلك القيم الإيمانية ونجاحهم ; إنما يخدعهم الانتفاخ الذي يصيب الدابة وقد رعت النبت السام ; فيحسبونه شحماً وسمنة وعافية

وَإِخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلِيهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوُا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148)
وصحة . . والهلاك يترصدها بعد الانتفاخ والحبوط !

والأمم التي خلت شاهد واقع . ولكن الذين سكنوا مساكنهم من بعدهم , لا يأخذون منهم عبرة , ولا يرون سنة الله التي تعمل ولا تتخلف ; وقدر الله الذي يجري ولا يتوقف . . والله من ورائهم محيط . .

الدرس الرابع: 148 - 149 بنو إسرائيل يعبدون العجل في غيبة موسى

وبينما كان موسى - عليه السلام - في حضرة ربه , في ذلك الموقف الفريد , الذي تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار ; وتدركه الأرواح وتجار فيه الأفكار . . كان قوم موسى من بعده يرتكسون وينتكسون , ويتخذون لهم عجلاً جسداً له خوار - لا حياة فيه - يعبدونه من دون الله !

وبفاجئنا السياق القرآني بنقلة بعيدة من المشهد التاسع الى المشهد العاشر . نقلة هائلة من الجو العلوي السامق المشرق بسبحاته وأشواقه وابتهالاته وكلماته الى الجو الهابط المتردي بانحرافاته وخرافات وارتكاساته وانتكاساته:

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار . ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ? اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين). .

إنها طبيعة إسرائيل التي ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوي عن الطريق ; والتي ما تكاد ترتفع عن مدى الرؤية الحسية في التصور والاعتقاد ; والتي يسهل انتكاسها كلما فتر عنها التوجيه والتسيد . .

ولقد راودوا نبيهم من قبل أن يجعل لهم إلهاً يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم ! فصددهم نبيهم عن ذلك الخاطر وردهم رداً شديداً . فلما خلوا الى أنفسهم , ورأوا عجلًا جسداً من الذهب - لا حياة فيه كما تفيد كلمة جسد - صنعه لهم السامري - رجل من السامرة كما يجيء تفصيل قصته في سورة طه - واستطاع أن يجعله بهيئة بحيث يخرج صوتاً كصوت خوار الثيران . . لما رأوا ذلك العجل الجسد طاروا إليه , وتهافتوا عليه حين قال لهم السامري: " هذا إلهكم وإله موسى " الذي خرج موسى لميقاته معه ; فنسي موسى مواعده معه - ربما لزيادة الليالي العشر الأخيرة في الميقات التي لم يكن القوم يعلمونها , فلما زاد عن الثلاثين ولم يرجع قال لهم السامري: لقد نسي موسى مواعده مع إلهه فهذا إلهه - ولم يتذكروا وصية نبيهم لهم من قبل بعبادة ربهم الذي لا تراه الأبصار - رب العالمين - ولم يتدبروا حقيقة هذا العجل الذي صنعه لهم واحد منهم ! . . وإنها لصورة زرية للبشرية تلك التي كان يمثلها القوم .

صورة يعجب منها القرآن الكريم ; وهو يعرضها على المشركين في مكة وهم يعبدون الأصنام !

(ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين !) . .

وهل أظلم ممن يعبد خلقاً من صنع أيدي البشر . والله خلقهم وما يصنعون !?

وكان فيهم هارون - عليه السلام - فلم يملك لهم رداً عن هذا الضلال السخيف . وكان فيهم بعض عقلائهم فلم يملكو زمام الجماهير الضالة المتدافعة على العجل الجسد - وبخاصة أنه من الذهب معبود إسرائيل الأصيل !

وأخيراً هدأت الهيجة , وانكشفت الحقيقة , وتبين السخف , ووضح الضلال , وجاءت نوبة الندم والإقرار:

(ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا , قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) . .

يقال: سقط في يده إذا عدم الحيلة في دفع ما هو بصدده من أمر . . ولما رأى بنو إسرائيل أنهم صاروا -

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149)

بهذه النكسة - الى موقف لا يملكون دفعه فقد وقع منهم وانتهى ! قالوا قولتهم هذه:

(لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) . .

وهذه القولة تدل على أنه كان فيهم - إلى ذلك الحين - بقية من استعداد صالح . فلم تكن قلوبهم قد قست كما قست من بعد - فهي كالحجارة أو أشد قسوة كما يصفهم من هو أعلم بهم ! - فلما أن تبين لهم ضلالهم ندموا وعرفوا أنه لا ينقذهم من عاقبة ما أتوا إلا أن تدركهم رحمة ربهم ومغفرته . . وهذه علامة طيبة على بقية من استعداد في الفطرة للصلاح . .

الدرس الخامس: 150 - 154 موسى وهارون وعقاب عابدي العجل

كل ذلك وموسى - عليه السلام - بين يدي ربه , في مناجاة وكلام , لا يدري ما أحدث القوم بعده . . إلا أن ينبئه ربه . . وهنا يرفع الستار عن المشهد الحادي عشر:

ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفاً . قال: بئسما خلفتموني من بعدي ! أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح , وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال: ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني . فلا تشمت بي الأعداء , ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال: رب اغفر لي ولأخي , وأدخلنا في رحمتك , وأنت أرحم الراحمين . .

لقد عاد موسى الى قومه غضبان أشد الغضب . يبدو انفعال الغضب في قوله وفعله . . يبدو في قوله لقومه:

(بئسما خلفتموني من بعدي ! أعجلتم أمر ربكم ?) . .

ويبدو في فعله إذ يأخذ برأس أخيه يجره إليه ويعنفه .

(وأخذ برأس أخيه يجره إليه !) . .

وحق لموسى عليه السلام أن يغضب فالمفاجأة قاسية . والنقلة بعيدة:

(بئسما خلفتموني من بعدي) . .

تركتكم على الهدى فخلفتموني بالضلال , وتركتكم على عبادة الله فخلفتموني بعبادة
عجل جسد له خوار !

(أعجلتم أمر ربكم ?) . .

أي استعجلتم قضاءه وعقابه ! أو ربما كان يعني: استعجلتم مواعده وميقاته !

(وألقي الألواح , وأخذ برأس أخيه يجره إليه) . .

وهي حركة تدل على شدة الانفعال . . فهذه الألواح هي التي كانت تحمل كلمات ربه .
وهو لا يلقها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه . وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه .
وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب !

فأما هارون فيستجيش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة , ليسكن من غضبه ,
وبكشف له عن طبيعة موقفه , وأنه لم يقصر في نصح القوم ومحاولة هدايتهم:

(قال: ابن أم , إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني !) . .

وهنا ندرك كيف كان القوم في هياجهم واندفاعهم الى العجل الذهب ; حتى لهموا
بهارون إذ حاول ردهم عن التردى والانتكاس:

ابن أم . . بهذا النداء الرقيق وبهذه الوشيجة الرحيمة .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بُئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ
وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَّفُونِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا يَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
لِي وَلاَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ
سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ
عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَّؤْا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ (153)

(إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني) . . بهذا البيان المصور لحقيقة موقفه .

(فلا تشمت بي الأعداء) . . وهذه أخرى يستجيش بها هارون وجدان الأخوة الناصرة
المعينة , حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون !

(ولا تجعلني مع القوم الظالمين). .

القوم الذين ضلوا وكفروا بربهم الحق , فأنا لم أضل ولم أكفر معهم , وأنا بريء منهم !

عندئذ تهدأ ثائرة موسى أمام هذه الوداعة وأمام هذا البيان . وعندئذ يتوجه الى ربه , يطلب المغفرة له ولأخيه , ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين:

(قال: رب اغفر لي ولأخي , وأدخلنا في رحمتك , وأنت أرحم الراحمين). .

وهنا يجيء الحكم الفاصل ممن يملكه سبحانه ! ويتصل كلام الله سبحانه بما يحكيه القرآن الكريم من كلام عبده موسى , على النسق الذي يتكرر في السياق القرآني:

(إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا . وكذلك نجزي المفترين . والذين عملوا السيئات , ثم تابوا من بعدها وآمنوا , إن ربك من بعدها لغفور رحيم). .

إنه حكم ووعد . . إن القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا . . ذلك مع قيام القاعدة الدائمة: إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته . . وإذن فقد علم الله أن الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا توبة موصولة ; وأنهم سيرتكبون ما يخرجهم من تلك القاعدة . . وهكذا كان . فقد ظل بنو إسرائيل يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة ; ويسامحهم الله المرة بعد المرة . حتى انتهوا الى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة:

(وكذلك نجزي المفترين). .

كل المفترين الى يوم الدين . . فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله , من بني إسرائيل , ومن غير بني إسرائيل . .

ووعد الله صادق لا محالة . وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة . وكان آخر ما كتب الله عليهم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . فإذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض ; ويستعلون بنفوذهم على الأممين - أو كما يقولون عنهم في التلمود: "الجويم" ! - وأنهم يملكون سلطان المال , وسلطان أجهزة الإعلام ; وأنهم يقيمون الأوضاع الحاكمة التي تنفذ لهم ما يريدون ; وأنهم يستذلون بعض عباد الله ويطردونهم من أرضهم وديارهم في وحشية ; والدول الضالة تساندهم وتؤيدهم . . إلى آخر ما نراه في هذا الزمان . . فليس هذا بناقض لوعيد الله لهم , ولا لما كتبه عليهم . . فهم بصفاتهم هذه وأفعالهم يختزنون النعمة في قلوب البشر ; وبهيتون الرصيد الذي يدمرهم من السخط والغضب . . إنما هم يستطيّلون على الناس في فلسطين مثلا لأن الناس لم يعد لهم دين ! ولم يعودوا مسلمين ! . . إنهم يتفرقون ويتجمعون تحت رايات قومية جنسية ; ولا يتجمعون تحت راية العقيدة الاسلامية ! وهم من ثم يخيون ويفشلون ; وتأكلهم إسرائيل ! غير أن هذه حال لن تدوم ! إنها فترة الغيوبة عن السلاح الوحيد , والمنهج الوحيد , والراية الوحيدة , التي غلبوا بها ألف عام , والتي بها يغلبون , وبغيرها يغلبون ! إنها فترة الغيوبة بحكم السموم التي بثتها اليهودية والصليبية في كيان الأمة "الاسلامية" ! والتي تحرسها بالأوضاع التي تقيمها في هذه الأرض "الاسلامية" . . ولكن هذا كله لن يدوم . . ستجيء الصحة من هذه الغيوبة . . وسيفيء أخلاف المسلمين

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْعَصْبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ
يَرْهَبُونَ (154)

إلى سلاح أسلافهم المسلمين . . ومن يدري فقد تصحو البشرية كلها يوماً على طغيان
اليهود ! لتحقق وعيد الله لهم , وتردهم إلى الذلة التي كتبها الله عليهم . . فإن لم تصح
البشرية فسيصحوا أخلاف المسلمين . . هذا عندنا يقين . .

الدرس السادس: 154 موسى يأخذ الألواح

وكانت هذه وقفة للتعقيب على مصير الذين اتخذوا العجل وافتروا على الله , تتوسط
المشهد ثم يمضي السياق يكمل المشهد:

(ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح , وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم
يرهبون) . .

والتعبير القرآني يشخص الغضب , فكأنما هو حي , وكأنما هو مسلط على موسى ,
يدفعه ويحركه . . حتى إذا (سكت) عنه , وتركه لشأنه ! عاد موسى إلى نفسه , فأخذ
الألواح التي كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه . . ثم يقرر السياق مرة
أخرى أن في هذه الألواح هدى , وأن فيها رحمة , لمن يخشون ربهم ويرهبونه ; فتفتح
قلوبهم للهدى , وينالون به الرحمة . . والهدى ذاته رحمة . فليس أشقى من القلب
الضال , الذي لا يجد النور . وليس أشقى من الروح الشارد الحائر الذي لا يجد الهدى ولا
يجد اليقين . . ورهبة الله وخشيته هي التي تفتح القلوب للهدى ; وتوقظها من الغفلة ,
وتهيئها للاستجابة والاستقامة . . إن الله خالق هذه القلوب هو الذي يقرر هذه الحقيقة .
ومن أعلم بالقلوب من رب القلوب ?

الدرس السابع: 155 - 157 موسى يستغفر لقومه بعد الرجفة

ويمضي السياق بالقصة , فإذا نحن أمام مشهد جديد . المشهد الثاني عشر . مشهد
موسى وسبعين من قومه مختارين للقاء ربه:

واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا . فلما أخذتهم الرجفة قال: رب لو شئت
أهلكتهم من قبل وإياي . أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ? إن هي إلا فتنتك تضل بها من
تشاء وتهدي من تشاء . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا , وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في
هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة , إنا هدنا إليك . قال: عذابي أصيب به من أشاء , ورحمتي
وسعت كل شيء , فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون .
الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ,
يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر , وبحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ,
ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا
النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون . .

وتختلف الروايات في سبب هذا الميقات . وربما كان لإعلان التوبة , وطلب المغفرة
لبنى إسرائيل مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة - وفي سورة البقرة أن التكفير الذي
فرض على بني إسرائيل هو: أن يقتلوا أنفسهم , فيقتل المطيع منهم من عصى ; وقد
فعلوا حتى أذن لهم الله بالكف عن ذلك ; وقبل كفارتهم - وهؤلاء السبعون كانوا من

شيوخهم ومن خيرتهم . أو كانوا هم خلاصتهم التي تمثلهم , فصيغة العبارة: (واختار موسى قومه سبعين رجلاً . . لميقاتنا). تجعلهم بدلاً من القوم جميعاً في الاختيار . .

ومع هذا فما الذي كان من هؤلاء المختارين ? لقد أخذتهم الرجفة فصعقوا . ذلك أنهم - كما ورد في السورة الأخرى طلبوا إلى موسى أن يروا الله جهرة , ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض في الألواح . . وهي شهادة

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَآيَاتِي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155)

بطبيعة بني إسرائيل , التي تشمل خيارهم وشرارهم , ولا يتفاوتون فيها إلا بمقدار . وأعجب شيء أن يقولوها وهم في مقام التوبة والاستغفار !

فأما موسى - عليه السلام - فقد توجه الى ربه , يتوسل اليه , ويطلب المغفرة والرحمة , ويعلن الخضوع والاعتراف بالقدرة:

(فلما أخذتهم الرجفة قال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) . .

فهو التسليم المطلق للقدرة المطلقة من قبل ومن بعد , يقدمه موسى بين يدي دعائه لربه أن يكشف عن القوم غضبه ; وأن يرد عنهم فتنته , وألا يهلكهم بفعله السفهاء منهم:

(أتهلكنا بما فعل السفهاء منا?) . .

وقد جاء الرجاء بصيغة الاستفهام . زيادة في طلب استبعاد الهلاك . . أي: رب إنه لمستبعد على رحمتك أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا .

(إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) . .

يعلن موسى - عليه السلام - إدراكه لطبيعة ما يقع ; ومعرفته أنها الفتنة والابتلاء ; فما هو بغافل عن مشيئة ربه وفعله كالغافلين ! . وهذا هو الشأن في كل فتنة: أن يهدي الله بها من يدركون طبيعتها وبأخذونها على أنها ابتلاء من ربهم وامتحان يجتازونه صاحين عارفين . وأن يضل بها من لا يدركون هذه الحقيقة ومن يمرون بها غافلين , ويخرجون منها ضالين . . وموسى - عليه السلام - يقرر هذا الأصل تمهيداً لطلب العون من الله على اجتياز الابتلاء:

(أنت ولينا) . .

فامنحنا عونك ومددك لاجتياز فتنتك , ونيل مغفرتك ورحمتك:

(فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) . .

(واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة , إنا هدنا إليك).

رجعنا إليك , والتجأنا إلى حماك , وطلبنا نصرتك .

وهكذا قدم موسى - عليه السلام - لطلب المغفرة والرحمة , بالتسليم لله والاعتراف بحكمة ابتلائه , وختمه بإعلان الرجعة إلى الله والالتجاء إلى رحابه . فكان دعاؤه نموذجاً لأدب العبد الصالح في حق الرب الكريم ; ونموذجاً لأدب الدعاء في البدء والختام .

ثم يجيبه الجواب:

(قال:عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء).. .

تقريباً لطلاقة المشيئة , التي تضع الناموس اختياراً , وتجربه اختياراً: وإن كانت لا تجر به إلا بالعدل والحق على سبيل الاختيار أيضاً , لأن العدل صفة من صفاته تعالى لا تتخلف في كل ما تجري به مشيئته , لأنه هكذا أراد . . فالعذاب يصيب به من يستحق عنده العذاب . . وبذلك تجري مشيئته . . أما رحمته فقد وسعت كل شيء ; وهي تنال من يستحقها عنده كذلك . . وبذلك تجري مشيئته , ولا تجري مشيئته - سبحانه - بالعذاب أو بالرحمة جزافاً أو مصادفة . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وبعد تقرير القاعدة يطلع الله نبيه موسى على طرف من الغيب المقبل , إذ يطلعه على نبا الملة الأخيرة التي

وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)

سيكتب الله لها رحمته التي وسعت كل شيء . . بهذا التعبير الذي يجعل رحمة الله أوسع من ذلك الكون الهائل الذي خلقه , والذي لا يدرك البشر مداه . . فيالها من رحمة لا يدرك مداها إلا الله !

(فسأكتبها للذين يتقون , ويؤتون الزكاة , والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ; يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر , ويحل لهم الطيبات , ويحرم عليهم الخبائث , ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون).

وإنه لنباً عظيم , يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي , على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى - عليهما السلام - منذ أمد بعيد . جاءهم الخبر اليقين ببعثه , وبصفاته , وبمنهج رسالته , وبخصائص ملته . فهو (النبي الأمي), وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر , وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث , وهو يضع عن من يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم , فيرفعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به . وأتباع هذا النبي يتقون ربهم , ويخرجون زكاة أموالهم , ويؤمنون بآيات الله . . وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين

يؤمنون بهذا النبي الأمي ; ويعظمونه ويوقرونه , وينصرونه ويؤيدونه , ويتبعون النور الهادي الذي معه (أولئك هم المفلحون) . .

وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل - على يد نبهم موسى عليه السلام - كشف الله سبحانه عن مستقبل دينه , وعن حامل رايته , وعن طريق أتباعه , وعن مستقبل رحمته . فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة , بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين .

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى عليه السلام - وهو والسبعون المختارون من قومه في ميقات ربه - يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في استقبالهم لهذا النبي الأمي وللدِين الذي جاء به . وفيه التخفيف عنهم والتيسير , إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين !

إنها الجريمة عن علم وعن بينة ! والجريمة التي لم يألوا فيها جهداً . . فقد سجل التاريخ أن بني إسرائيل كانوا هم الأم خلق وقف لهذا النبي وللدِين الذي جاء به . . اليهود أولاً والصليبيون أخيراً . . وأن الحرب التي شنوها على هذا النبي ودينه وأهل دينه كانت حرباً خبيثة ماكرة لئيمة قاسية ; وأنهم أصروا عليها ودأبوا ; وما يزالون يصرون ويدأبون !

والذي يراجع - فقط - ما حكاه القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين - وقد سبق منه في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ما سبق - يطلع على المدى الواسع المتناول الذي أداروا فيه المعركة مع هذا الدين في عناد لئيم !

والذي يراجع التاريخ بعد ذلك - منذ اليوم الذي استعلن فيه الإسلام بالمدينة , وقامت له دولة - إلى اللحظة الحاضرة , يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود !

ولقد استخدمت الصهيونية والصليبية في العصر الحديث من ألوان الحرب والكيد والمكر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية . . وهي في هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته ; وتحسب أنها تدخل معه في المعركة الأخيرة الفاصلة . . لذلك تستخدم جميع الأساليب التي جربتها في القرون الماضية كلها - بالإضافة إلى ما استحدثته منها - جملة واحدة !

ذلك في الوقت الذي يقوم ممن ينتسبون إلى الإسلام ناس يدعون في غرارة ساذجة إلى التعاون بين أهل

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)

الإسلام وأهل بقية الأديان للوقوف في وجه تيار المادية والإلحاد ! أهل بقية الأديان الذين يذبون من ينتسبون إلى الإسلام في كل مكان ; ويشنون عليهم حرباً تتسم بكل بشاعة الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في الأندلس - سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة في المستعمرات في آسيا وإفريقية أو عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويسندونها في البلاد [المستقلة !] لتحل محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية ! تنكر "الغيبية" لأنها "علمية" ! و "تطور" الأخلاق لتصبح هي أخلاق البهائم التي ينزو بعضها على بعض في

"حرية ! " , و "تطوّر" كذلك الفقه الإسلامي , وتقيم له مؤتمرات المستشرقين لتطويره . كما يحل الربا والاختلاط الجنسي وسائر المحرمات الإسلامية !!

إنها المعركة الوحشية الضارية يخوضها أهل الكتاب مع هذا الدين , الذي بشروا به ونبئيه منذ ذلك الأمد البعيد . ولكنهم تلقوه هذا التلقي اللئيم الخبيث العنيد !

الدرس الثامن: 158 التفات لتقرير عموم رسالة محمد [ص]

وقبل أن يمضي السياق إلى مشهد جديد من مشاهد القصة , يقف عند هذا البلاغ المبكر , يوجه الخطاب إلى النبي الأمي [ص] يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعاً , تصديقاً لوعده الله القديم:

(قل: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً , الذي له ملك السماوات والأرض , لا إله إلا هو يحيي ويميت . فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته , واتبعوه لعلكم تهتدون). .

إنها الرسالة الأخيرة , فهي الرسالة الشاملة , التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل . . ولقد كانت الرسائل قبلها رسائل محلية قومية محدودة بفترة من الزمان - ما بين عهدي رسولين - وكانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسائل خطوات محدودة , تأهلاً لها للرسالة الأخيرة . وكانت كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً في الشريعة يناسب تدرج البشرية . حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها , قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها , وجاءت للبشر جميعاً , لأنه ليست هنالك رسائل بعدها للأقوام والأجيال في كل مكان . وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً . ومن ثم حملها النبي الأمي الذي لم يدخل على فطرته الصافية - كما خرجت من يد الله - إلا تعليم الله . فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض ومن أفكار الناس ! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعاً:

(قل: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً). .

وهذه الآية التي يؤمر فيها رسول الله [ص] أن يواجه برسالته الناس جميعاً , هي آية مكية في سورة مكية . . وهي تجبه المزورين من أهل الكتاب , الذين يزعمون أن محمداً [ص] لم يكن يدور في خلدته وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها , وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشاً , ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب , ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها . . كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف ! وإن هي إلا فرية من ذيول الحرب التي شنوها قديماً على هذا الدين وأهله . وما يزالون ماضين فيها !

وليست البلية في أن يرصد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله . وأن يكون "المستشرقون" الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله . إنما البلية الكبرى أن كثيراً من السذج الأغرار ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين يتخذون من هؤلاء المزورين على نبيهم ودينهم , المحاربين لهم ولعقيدتهم , أساتذة لهم , يتلقون عنهم في هذا الدين نفسه , ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه , ثم يزعم هؤلاء السذج الأغرار لأنفسهم أنهم "مثقفون ! " . .

ونعود إلى السياق القرآني بعد تكليف الرسول [ص] أن يعلن رسالته للناس جميعاً .
ف نجد بقية التكليف هي تعريف الناس جميعاً بربهم الحق سبحانه:

(الذي له ملك السماوات والأرض , لا إله إلا هو . يحيي ويميت) . .

إنه [ص] رسول للناس جميعاً من ربهم الذي يملك هذا الوجود كله - وهم من هذا الوجود - والذي يتفرد بالألوهية وحده , فالكل له عبيد . والذي تتجلى قدرته وألوهيته في أنه الذي يحيي ويميت . .

والذي يملك الوجود كله , والذي له الألوهية على الخلائق وحده , والذي يملك الحياة والموت للناس جميعاً . هو الذي يستحق أن يدين الناس بدينه , الذي يبلغه إليهم رسوله . . فهو تعريف للناس بحقيقة ربهم , لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له , وطاعتهم لرسوله:

(فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته , واتبعوه لعلكم تهتدون) . .

وهذا النداء الأخير في هذا التعقيب يتضمن لفتات دقيقة ينبغي أن نقف أمامها لحظات:

إنه يتضمن ابتداء ذلك الأمر بالإيمان بالله ورسوله . . وهو ما تتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله , في صورة أخرى من صور هذا المضمون الذي لا يقوم بدونه إيمان ولا إسلام . . ذلك أن هذا الأمر بالإيمان بالله سبقه في الآية التعريف بصفاته تعالى: (الذي له ملك السماوات والأرض , لا إله إلا هو , يحيي ويميت) . . فالأمر بالإيمان هو أمر بالإيمان بالله الذي هذه صفاته الحق . كما سبقه التعريف برسالة النبي [ص] إلى الناس جميعاً .

ثم يتضمن ثانية أن النبي الأمي - صلوات الله وسلامه عليه - يؤمن بالله وكلماته . . ومع أن هذه بديهية , إلا أن هذه اللفتة لها مكانها ولها قيمتها . فالدعوة لا بد أن يسبقها إيمان الداعي بحقيقة ما يدعو إليه , ووضوحه في نفسه , ويقينه منه . لذلك يجيء وصف النبي المرسل إلى الناس جميعاً بأنه (الذي يؤمن بالله وكلماته) . . وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونصه . .

ثم يتضمن أخيراً لفتة إلى مقتضى هذا الإيمان الذي يدعوهم إليه . وهو اتباعه فيما يأمر به ويشرعه , واتباعه كذلك في سنته وعمله . وهو ما يقرره قول الله سبحانه: واتبعوه لعلكم تهتدون . . فليس هناك رجاء في أن يهتدي الناس بما يدعوهم إليه رسول الله [ص] إلا باتباعه فيه . ولا يكفي أن يؤمنوا به في قلوبهم ما لم يتبع الإيمان الاتباع العملي . . وهو الإسلام . .

إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته في كل مناسبة . . إنه ليس مجرد عقيدة تستكن في الضمير . . كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تؤدي وطقوس . . إنما هو الاتباع الكامل لرسول الله [ص] فيما يبلغه عن ربه , وفيما يشرعه ويسنه . . والرسول لم يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله فحسب . ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب . ولكنه أبلغهم شريعة الله في قوله وفعله . ولا رجاء في أن يهتدي الناس إلا إذا اتبعوه في هذا كله . . فهذا هو دين الله . . وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التي تشير إليها هذه اللفتة: (واتبعوه لعلكم تهتدون) بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله . .

ولو كان الأمر في هذا الدين أمر اعتقاد وكفى , لكان في قوله: (فآمنوا بالله ورسوله) الكفاية !

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) وَقَطَعْنَا لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ أَسْبَاطًا أَمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِشْرَبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)
الدرس التاسع: 159 عصيان بني إسرائيل وإشارة إلى نبع الماء من الحجر

ثم تمضي القصة في سياقها بعد الرجفة التي أخذت رجال بني إسرائيل . . ولا يذكر السياق هنا ماذا كان من أمرهم بعد دعوات موسى - عليه السلام - وابتهالاته . ولكننا نعرف من سياق القصة في سور أخرى أن الله أحياهم بعد الرجفة , فعادوا إلى قومهم مؤمنين . وقبل أن يمضي السياق هنا في حلقة جديدة , يقرر حقيقة عن قوم موسى . . أنهم لم يكونوا جميعاً ضالين:

(ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) . .

هكذا كانوا على عهد موسى ; وهكذا كانت منهم طائفة تهدي بالحق وتحكم بالعدل من بعد موسى . . ومن هؤلاء من استقبلوا رسالة النبي الأمي في آخر الزمان بالقبول والاستسلام , لما يعرفونه عنها في التوراة التي كانت بين أيديهم على مبعث رسول الله [ص] وفي أولهم الصحابي الجليل: عبدالله بن سلام رضي الله عنه . الذي كان يواجه يهود زمانه بما عندهم في التوراة عن النبي الأمي , وما عندهم كذلك من شرائع تصدقها شرائع الإسلام .

وبعد تقرير تلك الحقيقة تمضي القصة في أحداثها بعد الرجفة:

(وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ; وأوحينا إلى موسى إذ استسقاها قومه: أن اضرب بعصاك الحجر , فانجست منه اثنتا عشرة عيناً . قد علم كل أناس مشربهم . وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) . .

إنها رعاية الله ما زالت تظلل موسى وقومه - بعد أن كفروا فعبدوا العجل , ثم كفروا عن الخطيئة كما أمرهم الله , فتاب عليهم . وبعد أن طلبوا رؤية الله جهرة , فأخذتهم الرجفة , ثم استجاب الله لدعاء موسى فأحياهم . . تتجلى هذه الرعاية في تنظيمهم حسب فروعهم في اثنتي عشرة أمة - أي جماعة كبيرة - ترجع كل جماعة منها إلى حفيد من حفيدهم يعقوب - وهو إسرائيل - وقد كانوا محتفظين بأنسابهم على الطريقة القبلية:

(وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً) . .

وتبدو في تخصيص عين تشرب منها كل جماعة وتعيينها لهم , فلا يعتدي بعضهم على بعض .

(وأوحينا إلى موسى إذ استسقاها قومه: أن اضرب بعصاك الحجر , فانجست منه اثنتا عشرة عينا . قد علم كل أناس مشربهم . .)

وتبدو في تظليل الغمام لهم من شمس هذه الصحراء المحرقة ; وإنزال المن - وهو نوع من العسل البري - والسلوى , وهو طائر السماني ; وتيسيره لهم ضمانا لطعامهم بعد ضمان شرابهم:

(وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى). .

وتبدو في إباحة كل هذه الطيبات لهم , حيث لم يكن قد حرم عليهم بعد شيء بسبب عصيانهم:

(كلوا من طيبات ما رزقناكم). .

والرعاية واضحة في هذا كله ; ولكن هذه الجيلة ما تزال بعد عصية على الهدى والإستقامة كما يبدو من ختام هذه الآية التي تذكر كل هذه النعم وكل هذه الخوارق: من تفجير العيون لهم من الصخر بضربة من عصا موسى . ومن تظليل الغمام لهم في الصحراء الجافة . ومن تيسير الطعام الفاخر من المن والسلوى:

(وما ظلمونا , ولكن كانوا أنفسهم يظلمون). .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَفُولُوا حِطَّةً وَإِذْ خُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا تُعَفِّرُ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَرِيدَ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ
الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162) وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ
شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ
مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا بَشِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ (164) فَلَمَّا تَبَسُّوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ
ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَشِيرٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنَّا مَأْتُوا عَنْهُ فَلَمَّا كَانَتْ لَهُمْ
قِرْدَةٌ حَاسِيَةً (166) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ (167) وَقَطَعْنَا هُمُ فِي الْأَرْضِ أَمَّا
مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168)
فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ
يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)

وسيعرض السياق نماذج من ظلمهم لأنفسهم ; بالمعصية عن أمر الله والإلتواء عن طريقه . . وما يبلغون بهذا الإلتواء وتلك المعصية أن يظلموا الله - سبحانه - فإله غني عنهم وعن العالمين أجمعين . وما ينقص من ملكه أن يجتمعوا هم والعالمون على معصيته ; وما يزيد في ملكه أن يجتمعوا هم والعالمون على طاعته . إنما هم يؤذون أنفسهم ويظلمونها بالمعصية والإلتواء , في الدنيا وفي الآخرة سواء .

الدرس العاشر: 161 - 162 تبديل بني إسرائيل لأوامر الله

والآن فلننظر كيف تلقى بنو إسرائيل رعاية الله لهم ; وكيف سارت خطواتهم الملتوية على طول الطريق:

وإذ قيل لهم: اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا: حطة , وأدخلوا الباب سجداً , نغفر لكم خطيئاتكم , سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم , فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون . .

لقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ; وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل . ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم . . ثم ها هم أولاء تلتوي بهم طبيعتهم عن استقامة الطريق ! ها هم أولاء يعصون الأمر , ويبدلون القول ! ها هم أولاء يؤمرون بدخول قرية بعينها - أي مدينة كبيرة - لا يعين القرآن اسمها - لأنه لا يزيد في مغزى القصة شيئاً - وتباح لهم خيراتها جميعاً , على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها ; وعلى أن يدخلوا بابها سجداً , إعلان للخضوع لله في ساعة النصر والاستعلاء - وذلك كما دخل رسول الله [ص] مكة في عام الفتح ساجداً على ظهر دابته - وفي مقابل طاعة الأمر يعدهم الله أن يغفر لهم خطيئاتهم وأن يزيد للمحسنين في حسناتهم . . فإذا فريق منهم يبذلون صيغة الدعاء التي أمروا بها , ويبدلون الهيئة التي كلفوا أن يدخلوا عليها . . لماذا ? تلبية للانحراف الذي يلوي نفوسهم عن الاستقامة:

(فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم) . .

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذاباً . . السماء التي تنزل عليهم منها المن والسلوى وظللهم فيها الغمام ! . .

(فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون) . .

وهكذا كان ظلم فريق منهم - أي كفرهم - ظلماً لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله . .

ولا يفصل القرآن نوع العذاب الذي أصابهم في هذه المرة . لأن غرض القصة يتم بدون تعيينه . فالغرض هو بيان عاقبة المعصية عن أمر الله , وتحقيق النذر , ووقوع الجزاء العادل الذي لا يفلت منه العصاة .

الدرس الحادي عشر: 163 قصة أصحاب السبت

ومرة أخرى يقع القوم في المعصية والخطيئة . . وهم في هذه المرة لا يخالفون الأمر جهره ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها ! ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه , لأن الصبر على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة في تملك الارتفاع عن الأهواء والأطماع:

واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر , إذ يعدون في السبت , إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرراً ويوم لا يسبثون لا تأتيهم . كذلك نبأهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمة منهم: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ? قالوا: معذرة إلى ربكم , ولعلمهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء , وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين . وإذ تأذن ربك لبيعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب , إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم . .

وَإِذْ تَبَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171)

يعدل السياق هنا عن أسلوب الحكاية عن ماضي بني إسرائيل , إلى أسلوب المواجهة لذراريهم التي كانت تواجه رسول الله [ص] في المدينة . . والآيات من هنا إلى قوله تعالى: (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) آيات مدنية . نزلت في المدينة لمواجهة اليهود فيها ; وضمت إلى هذه السورة المكية في هذا الموضوع , تكملة للحديث عما ورد فيها من قصة بني إسرائيل مع نبيهم موسى . .

يأمر الله سبحانه رسوله [ص] أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة لهم في تاريخ أسلافهم . وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال ; ويذكرهم بعصيانهم القديم , وما جرّه على فريق منهم من المسخ في الدنيا ; وما جرّه عليهم جميعاً من كتابة الذل عليهم والغضب أبداً . . اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبي , فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

ولا يذكر اسم القرية التي كانت حاضرة البحر ; فهي معروفة للمخاطبين ! فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بني إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية . . وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيداً للعبادة ; ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش , فجعل لهم السبت . . ثم كان الابتلاء ليربيهم الله ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع ; وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع . . وكان ذلك ضرورياً لبني إسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذي عاشوا فيه طويلاً ; ولا بد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية , لتعتاد الصمود والثبات . فضلاً على أن هذا ضروري لكل من يحملون دعوة الله ; ويؤهلون لأمانة الخلافة في الأرض . . وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل آدم وحواء . . فلم يصمدا له واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد ومملك لا يبلى ! ثم ظل هو الاختبار الذي لا بد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف في الأرض . . إنما يختلف شكل الابتلاء , ولا تتغير فحواه !

ولم يصمد فريق من بني إسرائيل - في هذه المرة - للابتلاء الذي كتبه الله عليهم بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم . . لقد جعلت الحيتان في يوم السبت تتراءى لهم على الساحل , قريبة المآخذ , سهلة الصيد . فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التي قطعوها على أنفسهم ! فإذا مضى السبت , وجاءتهم أيام الحل . لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة , كما كانوا يجدونها يوم الحرم ! . . وهذا ما أمر رسول الله [ص] أن يذكرهم به ; ويذكرهم ماذا فعلوا وماذا لاقوا:

(واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر . إذ يعدون في السبت . إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبثون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون).

فأما كيف وقع لهم هذا , وكيف جعلت الأسماك تحاورهم هذه المحاورة , وتداورهم هذه المداورة . . فهي الخارقة التي تقع بإذن الله عندما يشاء الله . . والذين لا يعلمون ينكرون أن تجري مشيئة الله بغير ما يسمونه هم "قوانين الطبيعة" ! والأمر في التصور الإسلامي - وفي الواقع - ليس على هذا النحو . . إن الله سبحانه هو الذي خلق هذا الكون , وأودعه القوانين التي يسير عليها بمشيئته الطليقة . ولكن هذه المشيئة لم تعد

حبيسة هذه القوانين لا تملك أن تجري إلا بها . . . لقد ظلت طليقة بعد هذه القوانين كما كانت طليقة . . . وهذا ما يغفل عنه الذين لا يعلمون . . . وإذا كانت حكمة الله ورحمته بعباده المخاليق قد اقتضت ثبات هذه القوانين ; فإنه لم يكن معنى هذا تقيد هذه المشيئة وانحياصها داخل هذه القوانين . . . فحيثما اقتضت الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفاً لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر . . . ثم إن جريان هذه القوانين الثابتة في كل مرة تجريفها إنما يقع بقدر من الله خاص بهذه المرة . فهي لا تجري جرياناً آلياً لا تدخل لقدر الله فيه . . . وهذا مع ثباتها في طريقها ما لم يشأ الله أن تجري بغير ذلك . . . وعلى أساس أن كل ما يقع - سواء من جريان القوانين الثابتة أو جريان غيرها - إنما يقع بقدر من الله خاص , فإنه تستوي الخارقة والقانون الثابت في جريانه بهذا القدر . . . ولا آلية في نظام الكون في مرة واحدة - كما يظن الذين لا يعلمون ! - ولقد بدأوا يدركون هذا في ربع القرن الأخير !

على أية حال , لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرة البحر من بني إسرائيل . . . فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء , ففتهاوى عزائمهم , وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم , فيحتالون الحيل - على طريقة اليهود - للصيد في يوم السبت ! وما أكثر الحيل عندما يلتوي القلب , وتقل التقوى , ويصبح التعامل مع مجرد النصوص , ويراد التفلت من ظاهر النصوص ! . . . إن القانون لا تحرسه نصوصه , ولا يحميه حراسه . إنما تحرسه القلوب التقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته , فتحرس هي القانون وتحميه . وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه ! ما من قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية ! ولن تستطيع الدولة - كائناً ما كان الإرهاب فيها - أن تضع على رأس كل فرد حارساً يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانتته ; ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس , ومراقبتهم له في السر والعلن . . .

من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية . وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من الله . . . ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التي تقيمها الدول لحراسة القوانين وتنفيذها . وتعجز الملاحقة والمراقبة التي تتابع الأمور من سطوحها !

وهكذا راح فريق من سكان القرية التي كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت , الذي حرم عليهم الصيد فيه . . . وروي أنهم كانوا يقيمون الحواجز على السمك ويحطون عليه في يوم السبت ; حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه ; وقالوا: إنهم لم يصطادوه في السبت , فقد كان في الماء - وراء الحواجز - غير مصيد !

وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتيال على الله ! فيحذر الفريق العاصي مغبة احتياله ! وينكر عليه ما يزاوله من الاحتيال !

بينما مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر: ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة , وهم لا يرجعون عما هم أخذون فيه ? وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب ?

(وإذ قالت أمة منهم: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ?).

فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم , ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم . بعدما كتب الله عليهم الهلاك أو العذاب الشديد ; بما اقترفوه من انتهاك لحرمة الله .

(قالوا: معذرة إلى ربكم , ولعلمهم يتقون) .

فهو واجب لله نؤديه: واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر , والتخوف من انتهاك الحرمات , لنبلغ إلى الله عذرنا , ويعلم أن قد آدينا واجبنا . ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية فيشير فيها وجدان التقوى .

وهكذا انقسم سكان الحاضرة إلى ثلاث فرق . . أو ثلاث أمم . . فالأمة في التعريف الإسلامي هي مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد وتدين لقيادة واحدة , وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث , مجموعة الناس التي تسكن في إقليم واحد من الأرض وتحكمها دولة واحدة ! فهذا مفهوم لا يعرفه الإسلام , إنما هي من مصطلحات الجاهلية القديمة أو الحديثة !

وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم: أمة عاصية محتالة . وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة . وأمة تدع المنكر وأهله , وتقف موقف الإنكار السلبي ولا تدفعه بعمل إيجابي . . وهي طرائق متعددة من التصور والحركة , تجعل الفرق الثلاث أمماً ثلاثاً !

فلما لم يجد النصح , ولم تنفع العظة , وسدر السادرون في غيهم , حقت كلمة الله , وتحققت نذره . فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجوة من السوء . وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد الذي سيأتي بيانه . فأما الفرقة الثالثة - والأمة الثالثة - فقد سكت النص عنها . . ربما تهوينا لشأنها - وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب - إذ أنها قعدت عن الإنكار الإيجابي , ووقفت عند حدود الإنكار السلبي . فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب:

فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء , وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين . .

لقد كان العذاب البئيس - أي الشديد - الذي حل بالعصاة المحتالين , جزاء إمعانهم في المعصية - التي يعتبرها النص هي الكفر , الذي يعبر عنه بالظلم مرة وبالفسق مرة كما هو الغالب في التعبير القرآني عن الكفر والشرك بالظلم والفسق ; وهو تعبير يختلف عن المصطلح الفقهي المتأخر عن هذه الألفاظ إذ أن مدلولها القرآني ليس هو المدلول الذي جعل يشيع في التعبير الفقهي المتأخر - كان ذلك العذاب البئيس هو المسخ عن الصورة الآدمية إلى الصورة القردية ! لقد تنازلوا هم عن آدميتهم , حين تنازلوا عن أخص خصائصها - وهو الإرادة التي تسيطر على الرغبة - وانتكسوا إلى عالم "الحيوان" حين تخلوا عن خصائص "الإنسان" . فقبل لهم أن يكونوا حيث أرادوا لأنفسهم من الانتكاس والهوان !

أما كيف صاروا قردة ? وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قردة ? هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج عن جنسه ? أم تناسلوا وهم قردة ? . . إلى آخر هذه المسائل التي تتعدد فيها روايات التفسير . . فهذا كله مسكوت عنه في القرآن الكريم ; وليس وراءه عن رسول الله [ص] شيء . . فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه .

لقد جرت كلمة الله التي يجري بها الخلق والتكوين ابتداء ; كما يجري بها التحوير والتغيير . . كلمة "كن" .

(قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين).. .

فكانوا قردة مهينين . كما جرى القول الذي لا راد له ; ولا يعجز قائله عن شيء سبحانه !

ثم كانت اللعنة الأبدية على الجميع - إلا الذين يؤمنون بالنبي الأمي ويتبعونه - بما انتهى إليه أمرهم بعد فترة من المعصية التي لا تنتهي ; وصدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذي لا راد له ولا معقب عليه:

(وإذ تأذن ربك لبيعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إن ربك لسريع العقاب , وإنه لغفور رحيم).. .

فهو إذن الأبد الذي تحقق منذ صدوره ; فبعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب . والذي سيظل نافذاً في عمومهم , فبعث الله عليهم بين أونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب . وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا , جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة , الناكثة العاصية , التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية ; ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف . .

ولقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقفت , وأن يهود قد عزت واستطالت ! وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ . . ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة التالية , وما بعدها إلى يوم القيامة . لقد تأذن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة - كما أخبر الله نبيه في قرآنه - معقباً على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه في العذاب والرحمة:

(إن ربك لسريع العقاب , وإنه لغفور رحيم).. .

فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمته بالعذاب - كما أخذ القرية التي كانت حاضرة البحر - وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يثوب من بني إسرائيل , ممن يتبعون الرسول النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم , في التوراة والإنجيل . . فليس عذابه - سبحانه - عن نقمة ولا إحنة . إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه , ووراءه المغفرة والرحمة . .

الدرس الثاني عشر: 168 - 170 التمرد والمخالفة في الأجيال الإسرائيلية اللاحقة

ثم تمضي خطوات القصة مع خطوات التاريخ , من بعد موسى وخلفائه , مع الأجيال التالية في بني إسرائيل إلى الجيل الذي كان يواجه الرسول [ص] والجماعة المسلمة في المدينة:

وقطعناهم في الأرض أمماً . . منهم الصالحون ومنهم دون ذلك . . وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون . فحلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب , يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون: سيغفر لنا . وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق , ودرسوا ما فيه , والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ! والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة , إنا لا نضيع أجر المصلحين . .

وهذه بقية الآيات المدنية الواردة في هذا السياق تكملة لقصة بني إسرائيل من بعد موسى . . ذلك حين تفرق اليهود في الأرض ; جماعات مختلفة المذاهب والتصورات ,

مختلفة المشارب والمسالك . فكان منهم الصالحون وكان منهم من هم دون الصلاح . وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات . تارة بالنعماء وتارة بالبأساء لعلمهم يرجعون إلى ربهم , وثوبون إلى رشدهم , ويستقيمون على طريقهم:

(وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون). .

والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد , وتذكير دائم لهم , ووقاية من النسيان المؤدي إلى الاغترار والبوار . .

(فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى , ويقولون: سيغفر لنا . وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه). .

وصفة هذا الخلف الذي جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى: أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه . . ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم . . شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ . . وكلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه , ثم تأولوا وقالوا: (سيغفر لنا). . وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد !

ويسأل سؤال استنكار:

ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ? ودرسوا ما فيه ? .

ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله في الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص , وألا يخبروا عن الله إلا بالحق . . فما بالهم يقولون: (سيغفر لنا) ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا ? ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم , وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقاً ; ويقلعون عن المعصية فعلاً ; وليس هذا حالهم , فهم يعودون كلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا ! وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه ! بلى ! ولكن الدراسة لا تجدي ما لم تخلط القلوب . وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد . إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا , ويحرفوا الكلم عن مواضعه , ويجدوا المخارج للفتاوى المغرصة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا . . وهل أفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة ; ولا يأخذونه عقيدة يتقون الله ولا يرهبونه !

(والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ?).

نعم ! إنها الدار الآخرة ! إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة , وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا . . نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ; ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها . . وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض ? وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي ? وما الذي يهدىء فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع ? وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ? وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل , وبين الخير والشر , وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتناى ? والشر يتبجح والباطل يطغى ?

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى ; إلا اليقين في الآخرة , وأنها خير للذين يتقون , ويعفون , ويرفعون ,

ويشتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن , ويمضون في الطريق لا يتلفتون . . مطمئنين واثقين , ملء قلوبهم اليقين . .

وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذي يريد دعاة "الاشتراكية العلمية " أن يلغوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا ; ويحلوا محله تصوراً كافراً جاهلاً مطموساً يسمونه:"العلمية" . .

ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد الحياة , وتفسد النفوس ; وينطلق السعار المجنون الذي لا يكبحه إلا ذلك اليقين . . ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع والطغيان . وينتشر داء الإهمال وقلة المبالاة والخيانة في كل مجال . .

إن "العلمية " التي تناقض "الغيبية " جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر . جهالة يرجع عنها "العلم البشري" ذاته , ولا يبقى يرددها في القرن العشرين إلا الجهال ! جهالة تناقض فطرة "الإنسان" ومن ثم تفسد "الحياة " ذلك الإفساد الذي يهدد البشرية بالدمار ! ولكنه المخطط الصهيوني الرهيب الذي يريد أن يسلب البشرية كلها قوام حياتها وصلاتها , ليسهل تطويعها لملك صهيون في نهاية المطاف ! والذي تردده الببغاوات هنا وهناك , بينما الأوضاع التي أقامتها الصهيونية وكفلتها في أنحاء الأرض تمضي عن علم في تنفيذ المخطط الرهيب هنا وهناك !

ولأن قضية الآخرة , وقضية التقوى قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة , يحيل السياق القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى . . عرض الحياة الدنيا . . إلى العقل:

(والدار الآخرة خير للذين يتقون . . أفلا تعقلون ?) . .

ولو كان العقل هو الذي يحكم لا الهوى . . ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمى العلم هو الذي يقضي . . لكانت الدار الآخرة خيراً من عرض هذا الأدنى . ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً:

(والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة , إنا لا نضيع أجر المصلحين).

وهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا مافيه ; ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذي درسوه , ولا يعملون به , ولا يحكمونه في تصوراتهم وحركاتهم ; ولا في سلوكهم وحياتهم . . غير أن الآية تبقى - من وراء ذلك التعريض - مطلقة , تعطي مدلولها كاملاً , لكل جيل ولكل حالة .

إن الصيغة اللفظية:(يمسكون). . تصور مدلولاً يكاد يحس ويرى . . إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة . . الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه . . في غير تعنت ولا تنطع ولا تزمتم . . فالجد والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنطع والتزمتم شيء آخر . . إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسر ولكنها تنافي التميع ! ولا تنافي سعة الأفق ولكنها تنافي الاستهتار ! ولا تنافي مراعاة الواقع ولكنها تنافي أن يكون "الواقع" هو الحكم في شريعة الله ! فهو الذي يجب أن يظل محكوماً بشريعة الله !

والتمسك بالكتاب في جد وقوة وصرامة ; وإقامة الصلاة - أي شعائر العبادة - هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة . . والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقروناً إلى الشعائر

يعني مدلولاً معيناً . إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة , مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس . فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس , ولا تصلح بسواه . . والإشارة إلى الإصلاح في الآية:

(إنا لا نضيع أجر المصلحين) . .

يشير إلى هذه الحقيقة . . حقيقة أن الاستمسك الجاد بالكتاب عملاً , وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين .

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني . . ترك الاستمسك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس ; وترك العبادة التي تصلح القلوب فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص , كالذي كان يصنعه أهل الكتاب ; وكالذي يصنعه أهل كل كتاب , حين تفتقر القلوب عن العبادة فتفتقر عن تقوى الله . .

إنه منهج متكامل . يقيم الحكم على أساس الكتاب ; ويقيم القلب على أساس العبادة . . ومن ثم تتوافق القلوب مع الكتاب ; فتصلح القلوب , وتصلح الحياة .

إنه منهج الله , لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجاً آخر , إلا الذين كتبت عليهم الشقوة وحق عليهم العذاب !

الثالث عشر: 171 اشارة الى رفع الجبل فوق بني إسرائيل

وفي ختام حلقات القصة في هذه السورة يذكر كيف كان الله قد أخذ على بني إسرائيل الميثاق:

(وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة , وظنوا أنه واقع بهم . خذوا ما آتيناكم بقوة , واذكروا ما فيه لعلكم تتقون).

إنه ميثاق لا ينسى . . فقد أخذ في ظرف لا ينسى ! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة , وظنوا أنه واقع بهم ! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق ; فأعطوه في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس . ولقد أمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية , وأن يستمسكوا به في شدة وصرامة , وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا في ميثاقهم الوثيق . وأن يظلوا ذاكرين لما فيه , لعل قلوبهم تخشع وتتقي . وتظل موصولة بالله لا تنساه !

ولكن إسرائيل هي إسرائيل ! نقضت الميثاق , ونسيت الله , ولجت في المعصية , حتى استحققت غضب الله ولعنته . وحق عليها القول , بعدما اختارها الله على العالمين في زمانها , وأفاء عليها من عطاياه . فلم تشكر النعمة , ولم ترع العهد , ولم تذكر الميثاق . وما ربك بظلام للعبيد . .

الوحدة العاشرة: 172 - 198 الموضوع: تقرير حقائق إعتقادية حول الوجدانية وتفنيدها
شبهات الشرك مقدمة الوحدة هذا الدرس كله يدور حول قضية التوحيد والشرك . .
بعدما دار قصص السورة كله حول هذه القضية , متخذاً صورة التذكير من الرسل جميعاً بحقيقة التوحيد , والتحذير من عاقبة الشرك ; ثم تحقق النذر بعد التذكير والتحذير .

فالآن في هذا الدرس تعرض قضية التوحيد من زاوية جديدة , وزاوية عميقة . . تعرض من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر ; وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم , وذات تكوينهم ; وهم بعد في عالم الذر ! . . إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري . فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته , وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة . أما الرسائل فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى ; فيحتاجون إلى التذكير والتحذير . . إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى , فلا حجة لهم في نقض الميثاق - حتى لو لم يبعث إليهم بالرسول يذكرونهم ويحذرونهم - ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف ; وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاهم فقد تضل ; وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل !

ومن هذه الزاوية , التي تعرض منها قضية التوحيد في هذا الدرس , يتخذ السياق خطوطا شتى حول هذه القضية الكبرى .

منها خط قصصي عن حالة ترد بعض الروايات بأنها وقعت في تاريخ بني إسرائيل . . ولكن الأرجح أنها نموذج غير مقيد بزمان ولا مكان , إنما هو تصوير لحالة مكرورة في النفوس والتاريخ . كلما أوتي بعض الناس نصيباً من العلم كان خليقاً أن يقوده إلى الحق والهدى , فإذا هو ينسلخ مما أوتي من العلم , فلا ينتفع به شيئاً , ويسير في طريق الضلالة كمن لم يؤتوا من العلم شيئاً . بل يصير أنكد وأضل وأشقى بهذا العلم الذي لم تخالطه بشاشة الإيمان , الذي يحول هذا العلم إلى مشكاة هادية في ظلام الطريق !

ومنها خط قصصي آخر عن حالة تصويرية لخطوات انحراف الفطرة من التوحيد إلى الشرك . . ممثلة في زوجين من البشر , يرجوان الخير في الجنين القادم لهما ? وتتجه فطرتهم إلى الله ربهما , ويقطعان لله العهود لئن آتاها خلفا صالحا ليكون من الشاكرين . . ثم تزيج قلوبهما بعد أن يستجيب الله لهما , فإذا هما يجعلان لله شركاء فيما آتاها !

ومنها خط تصويري لتعطل أجهزة الاستقبال الفطرية في الكينونة البشرية , حتى تنتهي إلى الضلال الذي يهبط بالبشر عن مرتبة الأنعام , ويجعلهم وقوداً لجحيم عن جدارة واستحقاق . . فتكون لهم قلوب لا يفقهون بها , وتكون لهم أعين لا يبصرون بها , وتكون لهم آذان لا يسمعون بها . . ويكون وراء ذلك الضلال الذي لا رجعة منه ولا مآب !

ومنها خط إيحائي لاستجاشة هذه الأجهزة المعطلة , وإيقاظها للتدبير والتفكير , وتوجيهها إلى ملكوتالسموات والأرض وما خلق الله من شيء , ولمسها بالأجل المغيب الذي يكمن وراءه الموت , ودعوتها إلى النظر في حال هذا الرسول الكريم الذي يدعو إلى الهدى , فيرميه الضالون بالجنون !

ومنها خط جدلي حول آلهتهم المدعاة , وهي مجردة من خصائص الألوهية , بل من خصائص الحياة ! وينتهي هذا كله بتوجيه الرسول [ص] إلى تحديهم وتحدي آلهتهم , وإعلان مفاصلته ومفارقته لهم ولمعبوداتهم وعبادتهم , والالتجاء إلى الولي الذي لا ولي غيره: (الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) . .

ولقد كانت نهاية الدرس السابق في قصة بني إسرائيل هي مشهد الميثاق الذي أخذه الله عليهم في ظل الجبل المرفوع . فهذا الدرس الجديد يتابعه فيبدأ بقضية الميثاق

الأكبر الذي أخذه الله على فطرة البشر . في مشهد لا يدانيه في الجلال والروعة مشهد
الجبل المرفوع !

الدرس الأول: 172 عهد الله على المخلوقين قبل إيجادهم

(وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم - ذريتهم , وأشهدهم على أنفسهم: ألسنت
بريكم ? قالوا: بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا: إنما
أشرك آباؤنا من قبل . وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ? . . وكذلك
نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون) . .

إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها السياق القرآني في صورة مشهد - على طريقة
القرآن الغالبة - وإنه لمشهد فريد . . مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق ,
المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود , تؤخذ في قبضة الخالق
المربي , فيسألها: (ألسنت بريكم ?) . . فتعترف له - سبحانه - بالربوبية ; وتقر له -
سبحانه - بالعبودية ; وتشهد له - سبحانه - بالوحدانية ; وهي منثورة كالذر ; مجموعة
في قبضة الخالق العظيم !

إنه مشهد كوني رائع باهر , لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوراتها المأثورة ! وإنه لمشهد
عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته ! وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا
تحصى , وهي تجمع وتقبض . وهي تخاطب خطاب العقلاء - بما ركب فيها من الخصائص
المستكنة التي أودعها إياها الخالق المبدع - وهي تستجيب استجابة العقلاء , فتعترف
وتقر وتشهد ; ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب !

وإن الكيان البشري ليرتعش من أعماقه وهو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد .
وهو يتمثل الذر السايح . وفي كل خلية حياة . وفي كل خلية استعداد كامن . وفي كل
خلية كائن إنساني مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصورة المكنونة
له في ضمير الوجود المجهول , ويقطع على نفسه العهد والميثاق , قبل أن يبرز إلى
حيز الوجود المعلوم !

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد , لتلك الحقيقة الهائلة
العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية وفي أعماق الوجود . . عرض القرآن هذا
المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان , حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة
النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام ! ثم يهتدي البشر بعد هذه القرون إلى طرف من
هذه الحقائق وتلك الطبيعة . فإذا "العلم" يقرر أن الناسلات , وهي خلايا الوراثة التي
تحفظ سجل "الإنسان" وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب . . أن
هذه الناسلات

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ
قَالُوا بَلَى سَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172)

التي تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر , وتكمن فيها خصائصهم كلها , لا يزيد
حجمها على سنتيمتر مكعب , أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة ! . . كلمة لو
قيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال ! وصدق الله العظيم: (سنريهم
آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) . .

أخرج ابن جرير وغيره - بإسناده - عن ابن عباس قال: " مسح ربك ظهر آدم , فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . . . فأخذ موثيقهم , وأشهدهم على أنفسهم: (ألست بربكم ? قالوا: بلى) " . . . وروي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس . وقال ابن كثير: إن الموقوف أكثر وأثبت . .

فأما كيف كان هذا المشهد ? وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ? وكيف خاطبهم: (ألست بربكم) وكيف أجابوا: (بلى شهدنا) ? . . . فالجواب عليه: أن كفيات فعل الله - سبحانه - غيب كذاته . ولا يملك الإدراك البشري أن يدرك كفيات أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله . إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية . وكل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذي يحكيه قوله هذا كقوله تعالى: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان . . .) . (ثم استوى على العرش) . (يمحو الله ما يشاء ويثبت) . . (والسماوات مطويات بيمينه) . (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) . (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) . . إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله سبحانه , لا مناص من التسليم بوقوعه , دون محاولة إدراك كفيته . . إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية كما قلنا . والله ليس كمثله شيء . فلا سبيل إلى إدراك ذاته ولا إلى إدراك كفيات أفعاله . إذ أنه . لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أي شيء , ما دام أن ليس كمثله شيء . . وكل محاولة لتصور كفيات أفعاله على مثال كفيات أفعال خلقه , هي محاولة مضللة , لاختلاف ماهيته - سبحانه - عن ماهيات خلقه . وما يترتب على هذا من اختلاف كفيات أفعاله عن كفيات أفعال خلقه . . وكذلك جهل وضل كل من حاولوا - من الفلاسفة والمتكلمين - وصف كفيات أفعال الله , وخلطوا خلطاً شديداً !

على أن هناك تفسيراً لهذا النص بأن هذا العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة . . فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده . أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه , حتى تتحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها , ويميل بها عن فطرتها .

قال ابن كثير في التفسير: قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرتهم على التوحيد - كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن الأسود ابن سريع - وقد فسر الحسن الآية بذلك . قالوا: ولهذا قال: (وإذ أخذ ربك من بني آدم) ولم يقل: من آدم . . (من ظهورهم) . . ولم يقل من ظهره . . (ذرياتهم) أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل , وقرناً بعد قرن , كقوله تعالى: وهو الذي جعلكم خلفاء الأرض . . وقال: (ويجعلكم خلفاء الأرض) . . وقال: (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) . . ثم قال: (وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم ? قالوا: بلى !) أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له . . حالاً . . وقالوا: والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: (قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . . وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: (ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) . . أي حالهم شاهد عليهم بذلك , لا أنهم قائلون ذلك . وكذلك قوله تعالى: (وإنه على ذلك لشهيد) . . كما أن السؤال تارة يكون بالمقالات تارة يكون بالحال . كقوله: (وأناكم من كل ما سألتموه) . . قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراف . فلو كان قد وقع هذا , كما قال من قال , لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه . فإن قيل: إخبار الرسول [ص] به كاف في وجوده , فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة عليهم , فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد . ولهذا قال: (أن تقولوا) . . أي لئلا تقولوا (يوم القيامة إنا كنا عن هذا) . أي التوحيد . . (غافلين , أو تقولوا: إنما أشرك أبائنا) . . [الآية] .

أما الأحاديث التي أشار إليها في أول هذه الفقرة فهي: في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله [ص] . " كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية . " على هذه الملة " - فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه , كما تولد بهيمة جمعاء , هل تحسون فيها من جدعاء ? " .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله - [ص]: " يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء , فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم , وحرمت عليهم ما أحللت لهم " .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير - رحمه الله - حدثنا يونس بن عبد الأعلى , حدثنا ابن وهب , أخبرني السري بن يحيى , أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله [ص] أربع غزوات , قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة , فبلغ ذلك رسول الله [ص] فاشتد عليه , ثم قال: " ما بال أقوام يتناولون الذرية ? " . فقال رجل: يا رسول الله . أليسوا أبناء المشركين ? فقال: " إن خياركم أبناء المشركين ! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة , فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها , فابواها يهودانها وينصرانها " . . قال الحسن: لقد قال في كتابه: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم). . . الآية .

ونحن لا نستبعد أن يكون قول الله تعالى: وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم . . الآيات على وجه لا على سبيل الحال . لأنه في تصورنا يقع كما أخبر عنه الله سبحانه . وليس هناك ما يمنع أن يقع حين يشاؤه . . ولكننا كذلك لا نستبعد هذا التأويل الذي اختاره ابن كثير , وذكره الحسن البصري واستشهد له بالآية . . والله أعلم أي ذلك كان . .

وفي أي من الحاليين يخلص لنا أن هناك عهداً من الله على فطرة البشر أن توحده . وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة ; يخرج بها كل مولود إلى الوجود ; فلا يميل عنها إلا أن يفسد فطرته عامل خارجي عنها ! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال . وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود ملاسبات وظروف .

إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة "الإنسان" وحده ; ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله - وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله . موصولة به غير منقطعة عنه , محكومة بذات الناموس الذي يحكمه - بينما هي تتلقى كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبرة عن تأثيره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة . .

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)
(173)

إن ناموس التوحيد الذي يحكم هذا الوجود , واضح الأثر في شكل الكون , وتنسيقه , وتناسق أجزائه , وانتظام حركته , واطراد قوانينه , وتصرفه المطرد وفق هذه القوانين . . وأخيراً - حسب العلم القليل الذي وصل إليه البشر - وحدة الجوهر الذي تتألف منه ذراته , وهو الإشعاع الذي تنتهي إليه المواد جميعاً عند تحطيم ذراتها وإطلاق شحناتها . .

وبوماً بعد يوم يكشف البشر أطرافاً من ناموس الوحدة في طبيعة هذا الكون , وطبيعة قوانينه التي تحكم تصرفاته - في غير آلية حتمية ولكن بقدر من الله مطرد متجدد وفق مشيئة الله الطليقة - ولكننا نحن لا نعتمد على هذا الذي يكشفه علم البشر الظني - الذي لا يمكن أن يكون يقينياً بحكم وسائله البشرية - في تقرير هذا الناموس . إنما نحن نستأنس به مجرد استئناس . واعتمادنا الأول في تقرير أية حقيقة كونية مطلقة , على ما قرره لنا الخالق العليم بما خلق . والقرآن الكريم لا يدع مجالاً للشك في أن الناموس الذي يحكم هذا الكون هو ناموس الوحدة , الذي أنشأته المشيئة الواحدة للخالق الواحد سبحانه . كما أنه لا يدع مجالاً للشك في عبودية هذا الكون لربه , واعترافه بوحدانيته , وعبادته له بالكيفية التي يعلمها الله ولا نعرف عنها إلا ما يخبرنا به ; وما نراه من آثارها في انتظامه ودأبه واطراده .

هذا الناموس الذي يصرف الكون كله - بقدر الله المطرد المتجدد وفق مشيئة الله الطليقة - سار كذلك في كيان الإنسان - بوصفه من كائنات هذا الكون - مستقر في فطرته , لا يحتاج إلى وعي عقلي للإحساس به ; فهو مدرك بالفطرة , مستقر في صميمها , تستشعره بذاتها , وتتصرف وفقه , ما لم يطرأ عليها الخلل والفساد , فتتحرف عن إدراكها الذاتي له , وتدع للأهواء العارضة أن تسيرها , بدلاً من أن تسير وفق قانونها الداخلي القويم .

هذا الناموس - بذاته - هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها . ميثاق مودع في كيانها . مودع في كل خلية حية منذ نشأتها . وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات . وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد , ذي المشيئة الواحدة , المنشئة للناموس الواحد الذي يحكمها ويصرفها . فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها - سواء أكان بلسان الحال هذا أم بلسان المقال كما في بعض الآثار - لا سبيل إلى أن يقول أحد: إنه غفل عن كتاب الله الهادي إلى التوحيد , وعن رسالات الله التي دعت إلى هذا التوحيد . أو يقول: إنني خرجت إلى هذا الوجود , فوجدت آباءي قد أشركوا فلم يكن أمامي سبيل لمعرفة التوحيد إنما ضل آباءي فضلت فهم المسؤولون وحدهم وولست بالمسؤول ! ومن ثم جاء هذا التعقيب على تلك الشهادة:

أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل , وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ? .

ولكن الله - سبحانه - رحمة منه بعباده , لما يعلمه من أن في استعدادهم أن يضلوا إذا أضلوا , وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الإنحراف - كما قال رسول الله [ص] بفعل شياطين الجن والإنس ; الذين يعتمدون على ما في التكوين البشري من نقط الضعف . . . !

رحمة من الله بعباده قدر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا ; كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به ; حتى يرسل إليهم الرسل , ويفصل لهم الآيات , لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف ,

وَكَذَلِكَ نُقِصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) وَإِنَّا لَنُرْسِلُهُمْ تَبَاءً الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ (175)

واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات . ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقول تكفي وحدها للهدى دون رسل ولا رسالات ; ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله عباده بها . ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هي الرسالة:

(وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون). .

يرجعون إلى فطرتهم وعهددها مع الله ; وإلى ما أودعه الله كينونتهم من قوى البصيرة والإدراك . فالرجعة إلى هذه المكنونات كفيلة بانتفاض حقيقة التوحيد في القلوب ; ورددها إلى بارئها الوحيد , الذي فطرها على عقيدة التوحيد . ثم رحمها فأرسل إليها الرسل بالآيات للتذكير والتحذير .

الدرس الثاني: 175 - 178 قصة من انسلخ من آيات الله

وكمثل للانحراف عن سواء الفطرة , وينقض لعهد الله المأخوذ عليها , ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها . . ذلك الذي آناه الله آياته , فكانت في متناول نظره وفكره ; ولكنه انسلخ منها , وتعرى عنها ولصق بالأرض , واتبع الهوى ; فلم يستمسك بالميثاق الأول , ولا بالآيات الهادية ; فاستولى عليه الشيطان ; وأمسى مطروداً من حمى الله , لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار . .

ولكن البيان القرآني المعجز لا يصوغ المثل هذه الصياغة ! إنما يصوره في مشهد حي متحرك , عنيف الحركة , شاخص السمات , بارز الملامح , واضح الانفعالات ; يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعة , إلى جانب إيقاعات العبارة الموحية :

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها , فأتبعه الشيطان , فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها , ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه , فمثله كمثل الكلب . . إن تحمل عليه يلهث , أو تتركه يلهث . . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون !). .

إنه مشهد من المشاهد العجيبة , الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات . . إنسان يؤتبه الله آياته , ويخلع عليه من فضله , ويكسوه من علمه , ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع . . ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً . ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ; فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة , انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه . . أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان ? . . ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ; ويتجرد من الغطاء الواقى , والدرع الحامي ; وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ; ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم ; فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق , ولا يحميه منه حام ; فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه . . ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بأئس نكد . . إذا نحن بهذا المخلوق , لاصقاً بالأرض , ملوثاً بالطين . ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب , يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد . . كل هذه المشاهد المتحركة تتابع وتتوالى ; والخيال شاخص يتبعها

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178)
في انفعال وانبهار وتأثر . . فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها . . مشهد اللهاث الذي لا ينقطع . . سمع التعليق المرهوب الموحى , على المشهد كله:

(ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون).

ذلك مثلهم ! فلقد كانت آيات الهدى وموجيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم . ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخاً . ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان , هابطون عن مكان "الإنسان" إلى مكان الحيوان . . مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين . . وكان لهم من الإيمان جناح يرفون به إلى عليين ; وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم , فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين !

(ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون !).

وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً ؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى ؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى ؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا ؟ من يعربها من الغطاء الواقي والدرع الحامي , ويدعها عرضاً للشيطان يلزمها ويركبها , ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض , الحائر القلق , اللاهث لهاث الكلب أبداً !!!

وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد ; إلا هذا القرآن العجيب الفريد !!

وبعد . . فهل هو نبأ يتلى ؟ أم أنه مثل يضرب في صورة النبأ لأنه يقع كثيراً . فهو من هذا الجانب خبر يروى ؟

تذكر بعض الروايات أنه نبأ رجل كان صالحاً في فلسطين - قبل دخول بني إسرائيل - وتروي بالتفصيل الطويل قصة انحرافه وانهيائه ; على نحو لا يأمن الذي تمرس بالإسرائيليات الكثيرة المدسوسة في كتب التفاسير , أن يكون واحدة منها ; ولا يطمئن على الأقل لكل تفصيلاته التي ورد فيها ; ثم إن في هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب ما يدعو إلى زيادة الحذر . . فقد روي أن الرجل من بني إسرائيل [بلعام بن باعوراء] , وروي أنه كان من أهل فلسطين الجبارة . وروي أنه كان من العرب [أمية بن الصلت] . وروي أنه كان من المعاصرين لبعثة الرسول [ص] [أبو عامر الفاسق] وروي أنه كان معاصراً لموسى عليه السلام . وروي أنه كان بعده على عهد يوشع بن نون الذي حارب الجبارين بني إسرائيل بعد تيه الأربعين سنة على إثر رفض بني إسرائيل الدخول , وقولهم لموسى - عليه السلام - ما حكاه القرآن الكريم: فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . . كذلك روي في تفسير الآيات التي أعطيها أنه كان [اسم الله العظيم] الذي يدعو به فيجاب ; كما روي أنه كتاب منزل وأنه كان نبياً . . ثم اختلفت تفصيلات النبأ بعد ذلك اختلافات شتى . .

لذلك رأينا - على منهجنا في ظلال القرآن - ألا ندخل في شيء من هذا كله . بما أنه ليس في النص القرآني منه شيء . ولم يرد من المرفوع إلى رسول الله [ص] عنه شيء . وأن نأخذ من النبأ ما وراءه . فهو يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين

لهم فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها . . وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر ; ما أكثر الذين يعطون علم دين الله , ثم لا يهتدون به , إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه . واتباع الهوى به . . هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم - في وهمهم - عرض الحياة الدنيا .

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها . ويعلن غيرها . ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة , والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل ! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً !

لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله - سبحانه - من ادعاه فقد ادعى الألوهية . ومن ادعى الألوهية فقد كفر . ومن أقر له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضاً ! . . ومع ذلك . . مع علمه بهذه الحقيقة , التي يعلمها من الدين بالضرورة , فإنه يدعو للطواغيت الذين يدعون حق التشريع , ويدعون الألوهية بادعاء هذا الحق . . ممن حكم عليهم هو بالكفر ! ويسميهـم "المسلمين" ! ويسمي ما يزاولونه إسلاماً لا إسلام بعده ! . . ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً ; ثم يكتب في حله كذلك عاماً آخر . . ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس , ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه . .

فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقاً لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ? وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذي يحكيه الله سبحانه عن صاحب النبأ: (ولو شئنا لرفعناه بها , ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث !). . ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته . ولكنه - سبحانه - لم يشأ , لأن ذلك الذي علم الآيات أخلد إلى الأرض واتبع هواه , ولم يتبع الآيات . .

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله ; فلم ينتفع بهذا العلم ; ولم يستقم على طريق الإيمان . وانسلخ من نعمة الله . ليصبح تابعا ذليلاً للشيطان . ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان !

ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع ?

إنه - في حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهدته في القرآن - ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها . ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبداً . والذي لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه ; فهو منطلق فيه أبداً !

والحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة . . حتى إنه لتمر فترات كثيرة , وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله . فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله , ممن لا ينسلخون من آيات الله , ولا يخلدون إلى الأرض ; ولا يتبعون الهوى ; ولا يستذلهم الشيطان ; ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان ! . . فهو مثل لا ينقطع وروده ووجوده ; وما هو بمحصور في قصة وقعت , في جيل من الزمان !

وقد أمر الله رسوله [ص] أن يتلوه على قومه الذين كانت تنزل عليهم آيات الله , كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها . ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يتلى , ليحذر الذين يعلمون

من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة ; وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً ; وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو . فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة !

ولقد رأينا من هؤلاء - والعياذ بالله - في زماننا هذا من كان كأنما يحرص على ظلم نفسه ; أو كمن يعضبالنواجذ على مكان له في قعر جهنم يخشى أن ينزعه إياه أحد من المتسابقين معه في الحلبة ! فهو ما ينبي يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا في جهنم ! وما ينبي يلهث وراء هذا المطعم لهاثاً لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا !

اللهم اعصمنا , وثبت أقدامنا , وأفرغ علينا صبراً , وتوفنا مسلمين . .

ثم نقف أمام هذا النبأ والتعبير القرآني عنه وقفة أخرى . .

إنه مثل للعلم الذي لا يعصم صاحبه أن تثقل به شهواته ورغباته فيخلد إلى الأرض لا ينطلق من ثقلها وجاذبيتها ; وأن يتبع هواه فيتبعه الشيطان ويلزمه ويقوده من خطام هذا الهوى . .

ومن أجل أن العلم لا يعصم يجعل المنهج القرآني طريقه لتكوين النفوس المسلمة والحياة الإسلامية , ليس العلم وحده لمجرد المعرفة ; ولكن يجعل العلم عقيدة حارة دافعة متحركة لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وفي عالم الحياة أيضاً . .

إن المنهج القرآني لا يقدم العقيدة في صورة "نظرية" للدراسة . . فهذا مجرد علم لا ينشئ في عالم الضمير ولا في عالم الحياة شيئاً . . إنه علم بارد لا يعصم من الهوى , ولا يرفع من ثقله الشهوات شيئاً . ولا يدفع الشيطان بل ربما ذلل له الطريق وعبدها !

كذلك هو لا يقدم هذا الدين دراسات في "النظام الإسلامي" ولا في "الفقه الإسلامي" ولا في "الاقتصاد الإسلامي" ولا في "العلوم الكونية" ولا في "العلوم النفسية" ولا في أية صورة من صور الدراسة المعرفية !

إنما يقدم هذا الدين عقيدة دافعة دافعة محيية موقظة رافعة مستعلية ; تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العملي فور استقرارها في القلب والعقل ; وتحيي موات القلب فينبض ويتحرك ويتطلع ; وتوقظ أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة فترجع إلى عهد الله الأول ; وترفع الاهتمامات والغايات فلا تثقلها جاذبية الطين ولا تخلد إلى الأرض أبداً .

ويقدمه منهجاً للنظر والتدبر ; يتميز ويتفرد دون مناهج البشر في النظر , لأنه إنما جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم وأخطائها وانحرافها تحت لعب الأهواء , وثقله الأبدان , وإغواء الشيطان !

ويقدمه ميزانا للحق تنضبط به عقول الناس ومداركهم , وتقاس به وتوزن اتجاهاتهم وحركاتهم وتصوراتهم ; فما قبله منها هذا الميزان كان صحيحاً لتمضي فيه ; وما رفضه هذا الميزان كان خاطئاً يجب الإقلاع عنه .

ويقدمه منهجاً للحركة يقود البشرية خطوة خطوة في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة . وفق خطاه هو ووفق تقديراته . . وفي أثناء الحركة الواقعية يصوغ للناس نظام حياتهم , وأصول شريعتهم , وقواعد اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم . ثم يصوغ

الناس يعقولهم المنضبطة به تشريعاتهم القانونية الفقهية , وعلومهم الكونية والنفسية , وسائر ما تتطلبه حياتهم العملية الواقعية . . يصوغونها وفي نفوسهم حرارة العقيدة ودفعتها , وجدية الشريعة وواقعيتها ; واحتياجات الحياة الواقعية وتوجيهاتها .

هذا هو المنهج القرآني في صياغة النفوس المسلمة والحياة الإسلامية . . أما الدراسة النظرية لمجرد الدراسة , فهذا هو العلم الذي لا يعصم من ثقل الأرض ودفعة الهوى وإغواء الشيطان ; ولا يقدم للحياة البشرية خيرا !

ويقف السياق وقفة قصيرة للتعقيب على ذلك المثل الشاخص في ذلك المشهد , للذي أتاه الله آياته فانسلخ منها , بأن الهدى هدى الله . فمن هداه الله فهو المهتدي حقاً ; ومن أضله الله فهو الخاسر الذي لا يرج شيئاً:

(من يهد الله فهو المهتدي , ومن يضل فأولئك هم الخاسرون) . .

والله سبحانه يهدي من يجاهد ليهتدي , كما قال تعالى في السورة الأخرى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) . . وكما قال: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) . . وكما قال: (ونفس وما سواها , فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاهها , وقد خاب من دساها) . .

كذلك يضل الله من يبغي الضلال لنفسه ويعرض عن دلائل الهدى وموجيات الإيمان , ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها . وذلك كما جاء في الآية التالية في السياق: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس , لهم قلوب لا يفقهون بها , ولهم أعين لا يبصرون بها , ولهم أذان لا يسمعون بها , أولئك كالأنعام بل هم أضل , أولئك هم الغافلون) . . وكما قال تعالى: (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) . . وكما قال: (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم , ولا ليهديهم طريقاً , إلا طريق جهنم خالدين فيها . . .)

ومن مراجعة مجموعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال , والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية , والذي أثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً . .

إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني , هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال . . وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها . ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى . ومع إرسال الرسل بالبينات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل . . ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به , وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره .

كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى . وأن يجري قدر الله كذلك بالضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل وما أعطاه من أجهزه الرؤية والسمع في إدراك الآيات الماثورة في صفحات الكون , وفي رسالات الرسل , الموحية بالهدى .

وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها , ويقع ما يقدر الله لا بقوة سواه . وما كان الأمر ليكون هكذا إلا أن الله شاءه هكذا . وما كان شيء ليقع إلا أن

يوقعه قدر الله . فليس في هذا الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور , كما أنه ليس هناك قوة إلا قدر الله ينشئ الأحداث . . وفي إطار هذه الحقيقة الكبيرة يتحرك الإنسان بنفسه , ويقع له ما يقع من الهدى والضلال أيضاً . .

وهذا هو التصور الإسلامي الذي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة , حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل , وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر , على سبيل الاحتجاج والجدل !

وفي هذا النص الذي يواجهنا هنا:

(من يهد الله فهو المهتدي , ومن يضل فأولئك هم الخاسرون).

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ (179)

يقرر أن من يهديه الله - وفق سنته التي صورناها في الفقرة السابقة - فهو المهتدي حقاً , الواصل يقيناً , الذي يعرف الطريق , ويسير على الصراط , ويصل إلى الفلاح في الآخرة . . وأن الذي يضلّه الله - وفق سنته تلك - فهو الخاسر الذي خسر كل شيء ولم يربح شيئاً . . مهما ملك , ومهما أخذ ; فكل ذلك هباء أو هواء ! وإنه لكذلك إذا نظرنا إليه من زاوية أن هذا الضال قد خسر نفسه . وماذا يأخذ وماذا يكسب من خسر نفسه !?

الدرس الثالث: 179 صفات أهل جهنم من هم في الدنيا

ويؤيد ما ذهبنا إليه في فهم الآية السابقة وأخواتها نص الآية التالية:

ولقد ذرانا لجهنم كثيراً من الجن والإنس . لهم قلوب لا يفقهون بها , ولهم أعين لا يبصرون بها , ولهم آذان لا يسمعون بها . . أولئك كالأنعام , بل هم أضل . . أولئك هم الغافلون . .

إن هؤلاء الكثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم ! وهم مهياؤون لها ! فما بالهم كذلك ?

هنالك اعتباران:

الاعتبار الأول: أنه مكشوف لعلم الله الأزلي أن هؤلاء الخلق صائرون إلى جهنم . . وهذا لا يحتاج إلى بروز العمل الذي يستحقون به جهنم إلى عالم الواقع الفعلي لهم . فعلم الله سبحانه شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل في عالم العباد الحادث .

والاعتبار الثاني: أن هذا العلم الأزلي - الذي لا يتعلق بزمان ولا حركة في عالم العباد الحادث - ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذي تستحق به جهنم . إنما هم كما تنص الآية:

(لهم قلوب لا يفقهون بها , ولهم أعين لا يبصرون بها , ولهم آذان لا يسمعون بها) . .

فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا - ودلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسائل تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة - وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية . ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة . لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وهبها ولم يستخدموها . . لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون:

(أولئك كالأنعام , بل هم أضل , أولئك هم الغافلون) . .

والذين يغفلون عما حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة ; والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يد الله . . أولئك كالأنعام بل هم أضل . . فللأنعام استعدادات فطرية تهديها . أما الجن والإنس فقد زدوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة . فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا . إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ; ولا تلتقط أعينهم مشاهداتها ودلالاتها ; ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإبجاءاتها . . فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية . . ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! يجري بهم قدر الله إليها وفق مشيئته حين فطرهم باستعداداتهم تلك , وجعل قانون جزائهم هذا . فكانوا - كما هم في علم الله القديم - حصب جهنم منذ كانوا !

الدرس الرابع: 180 دعاء الله بأسمائه الحسنی

وبعد استعراض مشهد الميثاق الكوني بالتوحيد ; واستعراض مثل المنحرف عن هذا الميثاق وعن آيات الله بعد إذ أتاه الله إياها . . يعقب بالتوجيه الأمر بإهمال المنحرفين - الذين كانوا يتمثلون في المشركين الذين كانوا

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْرَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (180) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181)

يواجهون دعوة الإسلام بالشرك - الذين يلحدون في أسماء الله ويحرفونها , فيسمون بها الشركاء المزعومين:

(ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها , وذروا الذين يلحدون في أسمائه , سيجزون ما كانوا يعملون) . .

والإلحاد هو الإنحراف أو التحريف . . وقد حرف المشركون في الجزيرة أسماء الله الحسنی , فسموا بها ألتهم المدعاة . . حرفوا اسم (الله) فسموا به "اللات" . . واسم (العزیز) فسموا به "العزى" . . فالآية تقرر أن هذه الأسماء الحسنی لله وحده . وتأمراً أن يدعوه المؤمنون وحده بها , دون تحريف ولا ميل ; وأن يدعوا المحرفين المنحرفين ; فلا يحفلوهم ولا يأنسوا لهم فيه من الإلحاد . فأمرهم موكول إلى الله ; وهم ملاقون جزاءهم الذي ينتظرهم منه . . وباله من وعيد ! . .

وهذا الأمر بإهمال شأن الذين يلحدون في أسماء الله ; لا يقتصر على تلك المناسبة التاريخية , ولا على الإلحاد في أسماء الله بتحريفها اللفظي إلى الآلهة المدعاة . . إنما هو ينسحب على كل ألوان الإلحاد في شتى صورته . . ينسحب على الذين يلحدون - أي يحرفون أو ينحرفون - في تصورهم لحقيقة الألوهية على الإطلاق . كالذين يدعون له الولد . . وكالذين يدعون أن مشيئته - سبحانه - مقيدة بنواميس الطبيعة الكونية !

وكالذين يدعون له كصفات أعمال تشبه كصفات أعمال البشر - وهو سبحانه ليس كمثله شيء - وكذلك من يدعون أنه سبحانه إله في السماء , وفي تصريف نظام الكون , وفي حساب الناس في الآخرة . ولكنه ليس إلهاً في الأرض , ولا في حياة الناس , فليس له - في زعمهم - أن يشرع لحياة الناس ; إنما الناس هم الذين يشرعون لأنفسهم بقولهم وتجاربهم ومصالحهم - كما يرونها هم - فالناس - في هذا - هم آلهة أنفسهم . أو بعضهم آلهة بعض ! . . . وكله إلحاد في الله وصفاته وخصائص ألوهيته . . . والمسلمون مأمورون بالإعراض عن هذا كله وإهماله ; والملحدون موعدون جزاء الله لهم على ما كانوا يعملون !

الدرس الخامس: 181 - 183 ملامح الصالحين والمكذبين

ثم يمضي السياق يفصل صنوف الخلق . . . بعدما ذكر منهم من قبل أولئك الذين ذرأهم الله لجهنم (لهم قلوب لا يفقهون بها , ولهم أعين لا يبصرون بها , ولهم أذان لا يسمعون بها . . .) ومنهم هؤلاء الذين يلحدون في أسماء الله وبحرفونها . . . ثم إن منهم أمة يستمسكون بالحق , ويدعون الناس إليه , ويحكمون به ولا ينحرفون عنه . . . وأمة - على الضد - ينكروا الحق , ويكذبون بآيات الله ! فأما الأولون فيقرر وجودهم في الأرض وجوداً ثابتاً لا شك فيه ; وهم حراس على الحق حين ينحرف عنه المنحرفون , ويزيغ عنه الزائغون ; وحين يكذب الناس بالحق وينبذونه يبقون هم عليه صامدين . وأما الآخرون فيكشف عن مصير لهم مخيف , وكيد لله إزاءهم متين:

(وممن خلقنا أمة يهدون بالحق , وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملئ لهم إن كيدي متين) . . .

وما كانت البشرية لتستحق التكريم لو لم تكن فيها دائماً - وفي أحلك الظروف - تلك الجماعة - التي يسميها الله (أمة) بالمصطلح الإسلامي للأمة وهي: الجماعة التي تدين بعقيدة واحدة وتتجمع على أصرتها ; وتدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة - فهذه الأمة الثابتة على الحق ; العاملة به في كل حين , هي الحارسة لأمانة الله في الأرض , الشاهدة بعهده على الناس , التي تقوم بها حجة الله على الضالين المتنكرين لعهده في كل جيل .

ونقف لحظة أمام صفة هذه الأمة:

(يهدون بالحق , وبه يعدلون) . . .

إن صفة هذه الأمة - التي لا ينقطع وجودها من الأرض أياً كان عددها - أنهم (يهدون بالحق) . . . فهم دعاة إلى الحق , لا يسكتون عن الدعوة به , وإليه , ولا يتفوقون على أنفسهم ; ولا ينزرون بالحق الذي يعرفونه . ولكنهم يهدون به غيرهم . فلهم قيادة فيمن حولهم من الضالين عن هذا الحق , المتنكرين لذلك العهد ; ولهم عمل إيجابي لا يقتصر على معرفة الحق ; إنما يتجاوزها إلى الهداية به والدعوة إليه والقيادة باسمه .

(وبه يعدلون) . . . فيتجاوزون معرفة الحق والهداية به إلى تحقيق هذا الحق في حياة الناس والحكم به بينهم , تحقيقاً للعدل الذي لا يقوم إلا بالحكم بهذا الحق . . . فما جاء هذا الحق ليكون مجرد علم يعرف ويدرس . ولا مجرد وعظ يُهدى به ويعرّف ! إنما جاء هذا الحق ليحكم أمر الناس كله . يحكم تصوراتهم الاعتقادية فيصحبها وقيمها على وفقه . ويحكم شعائرهم التعبديّة فيجعلها ترجمة عنه في صلة العبد بربه . ويحكم حياتهم

الواقعية فيقيم نظامها وأوضاعها وفق منهجه ومبادئه ويقضي فيها بشريعته وقوانينه المستمدة من هذه الشريعة . وبحكم عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم وسلوكهم فيقيمها كلها على التصورات الصحيحة المستمدة منه . وبحكم مناهج تفكيرهم وعلومهم وثقافتهم كلها ويضبطها بموازينه . . . وبهذا كله يوجد هذا الحق في حياة الناس , ويقوم العدل الذي لا يقوم إلا بهذا الحق . . وهذا ما تزاوله تلك الأمة بعد التعريف بالحق والهداية به . .

إن طبيعة هذا الدين واضحة لا تحتمل التليس ! صلبة لا تقبل التميع ! والذين يلحدون في هذا الدين يجدون مشقة في تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة . . وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهوداً لا تكل , وحملات لا تنقطع , ويستخدمون في تحريفه عن وجهته وفي تميع طبيعته , كل الوسائل وكل الأجهزة , وكل التجارب . . هم يسحقون سحقاً وحشياً كل طلائع البعث والحيوية الصلبة الصامدة في كل مكان على وجه الأرض عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها في كل بقاع الأرض ! وهم يسلطون المحترفين من علماء هذا الدين عليه , يحرفون الكلم عن مواضعه , ويحلون ما حرم الله , ويميعون ما شرعه , ويباركون الفجور والفاحشة ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه ! وهم يزحلقون المخدوعين في الحضارات المادية , المأخوذون بنظرياتها وأوضاعها ليحاولوا زحلقة الإسلام في التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع , ورفع شعاراتها , أو الاقتباس من نظرياتها وشرائعها ومناهجها ! وهم يصورون الإسلام الذي يحكم الحياة حادثاً تاريخياً مضى ولا تمكن إعادته , ويشيدون بعظمة هذا الماضي ليخدروا مشاعر المسلمين , ثم ليقولوا لهم - في ظل هذا التخدير :- إن الإسلام اليوم يجب أن يعيش في نفوس أهله عقيدة وعبادة , لا شريعة ونظاماً , وحسبه وحسبهم ذلك المجد التاريخي القديم ! هذا والإ فإن على هذا الدين أن "يتطور" فيصبح محكوماً بواقع البشر , يبصم لهم على كل ما يقدمونه له من تصورات وقوانين . وهم يضعون للأوضاع التي يقيمونها في العالم - الذي كان إسلامياً - نظريات تأخذ شكل العقيدة والدين , لتحل محل ذلك الدين القديم ! وينزلون لها قرآناً يتلى ويدرس , ليحل محل ذلك القرآن القديم ! وهم يحاولون تغيير طبيعة المجتمعات - كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين - كوسيلة أخيرة , حتى لا يجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية به ; فيحولون المجتمعات إلى فئات غارق في وحل الجنس والفاحشة والفجور , مشغول بلقمة العيش لا يجدها إلا بالكد والعسر والجهد , كي لا يفيق , بعد اللقمة والجنس , ليستمع إلى هدى , أو يفيء إلى دين !

إنها المعركة الضارية مع هذا الدين والأمة التي تهدي به وتحاول أن تعدل به . . المعركة التي تستخدم فيها جميع الأسلحة بلا تحرج , وجميع الوسائل بلا حساب ; والتي تجند لها القوى والكفايات وأجهزة الإعلام

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183)

العالمية ; والتي تسخر لها الأجهزة والتشكيلات الدولية ; والتي تكفل من أجلها أوضاع ما كانت لتبقى يوماً واحداً لولا هذه الكفالة العالمية !

ولكن طبيعة هذا الدين الواضحة الصلبة ما تزال صامدة لهذه المعركة الضارية . والأمة المسلمة القائمة على هذا الحق - على قلة العدد وضعف العدة - ما تزال صامدة لعمليات السحق الوحشية . . والله غالب على أمره .

(والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون , وأملئ لهم إن كيدي متين) . .

وهذه هي القوة التي لا يحسبون حسابها وهم يشنون هذه المعركة الضارية ضد هذا الدين وضد الأمة المستمسكة به الملتقية عليه المتجمعة على أصرته . . هذه هي القوة التي يغفلها المكذبون بآيات الله . . إنهم لا يتصورون أبداً أنه استدراج الله لهم من حيث لا يعلمون . ولا يحسبون أنه إِملاء الله لهم إلى حين . . فهم لا يؤمنون بأن كيد الله متين ! . . إنهم يتولى بعضهم بعضاً ويرون قوة أوليائهم ظاهرة في الأرض فينسون القوة الكبرى ! . . إنها سنة الله مع المكذبين . . يرخى لهم العنان , ويملى لهم في العصيان والطغيان , استدراجاً لهم في طريق الهلكة , وإمعاناً في الكيد لهم والتدبير . ومن الذي يكيد ? إنه الجبار ذو القوة المتين ! ولكنهم غافلون ! والعاقبة للمتقين . الذين يهدون بالحق وبه يعدلون . .

الدرس السادس: 184 - 185 دعوة للتفكير للإيمان بالله والرسول

ولقد كان القرآن يواجه بذلك التهديد الرعب قوماً من المكذبين بآيات الله في مكة - والنص القرآني دائماً أبعد مدى من المناسبة الخاصة - وكان يتوعدهم على موقفهم من الجماعة المسلمة - التي يسميها أمة وفق المصطلح الإسلامي - بالإملاء لهم والاستدراج والكيد المتين . . ثم كان يدعوهم - بعد هذا التهديد - إلى استخدام قلوبهم وعيونهم وأذانهم . فلا يكونوا من ذرء جهنم ولا يكونوا من الغافلين . . كان يدعوهم إلى التدبر في أمر رسولهم الذي يدعوهم إلى الحق ويهديهم به ; وإلى النظر في ملكوت السماوات والأرض وآيات الله الميثوقة في هذا الملكوت ; وكان يوقظهم إلى مرور الوقت وما يؤذن به من اقتراب الأجل المجهول , وهم غافلون:

أو لم يتفكروا ? ما بصاحبهم من جنة , إن هو إلا نذير مبين . أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ? وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ? فبأي حديث بعده يؤمنون ? . .

إن القرآن يهزهم من غفوتهم , ويوقظهم من غفلتهم , ويستنقذ - من تحت الركاب - فطرتهم وعقولهم ومشاعرهم . . إنه يخاطب كينوتهم البشرية كلها , بكل ما فيها من أجهزة الاستقبال والاستجابة . . إنه لا يوجه إليهم جدلاً ذهنياً بارداً ; إنما هو يستنقذ كينوتهم كلها وينفضها من أعماقها:

أو لم يتفكروا ? ما بصاحبهم من جنة , إن هو إلا نذير مبين . .

لقد كانوا يقولون عن الرسول [ص] في حرب الدعاية التي يشنها ضده الملامن قريش يخدعون بها الجماهير: إن محمداً به جنة . وهو من ثم ينطق بهذا الكلام الغريب , غير المعهود في أساليب البشر العاديين !

ولقد كان الملامن قريش يعلمون أنهم كاذبون ! وقد تضافرت الروايات على أنهم كانوا يعرفون الحق في أمر رسول الله [ص] وأنهم ما كانوا يملكون أن يمنعوا أنفسهم عن الاستماع لهذا القرآن والتأثر به أعظم التأثير . . وقصة الأخنس بن شريق , وأبي سفيان بن حرب , وعمرو بن هشام - أبي جهل - في الاستماع لهذا القرآن خلسة , ليالي ثلاثاً , وما وجدوه في أنفسهم منه معروفة . . وكذلك قصة عتبة بن

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا تَذِيرٌ مُّبِينٌ (184)
ربيعة وسماعه سورة فصلت من النبي [ص] وهزته أمام إيقاعاتها المزلزلة . . ومثلها
قصة تأمرهم قبيل موسم الحج فيما يقولون للناس عن النبي [ص] وما معه من القرآن
; وانتهاء الوليد بن المغيرة إلى أن يقولوا للوفود: إنه سحر يؤثر . . كل هذه الروايات
تثبت أنهم ما كانوا جاهلين لحقيقة هذا الأمر ; إنما هم كانوا يستكبرون عنه ; وبخشونه
على سلطانهم الذي تهدده شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ; التي تسلب
البشر حق تعبيد البشر لغير الله . . وتهدد كل طاغوت بشري علي العموم !

من ثم كانوا يستغلون تفرد هذا القرآن العجيب وتميزه عن قول البشر المعهود ; كما
يستغلون الصورة التي كانت معهودة فيهم وفيمن قبلهم , عن الصلة بين التنبؤ والجنون
! والنطق بكلمات ورموز يؤولها المصاحبون لمن بهم جنة وفق ما يريدون ; ويزعمون
أنها تأتيهم من عالم غير منظور ! . . كانوا يستغلون هذه الروايسب في التمويه على
الجماهير بأن الذي يقوله محمد , إنما يقوله عن جنة به ; وأنه يأتي بالغريب العجيب من
القول , لأنه مجنون !

والقرآن يدعوهم إلى التفكير والتدبر في أمر صاحبهم الذي عرفوه من قبل وخبروه .
فلم يعرفوا عنه من قبل خلا عن السواء ; وشهدوا له بالأمانة والصدق , كما شهدوا له
بالحكمة ; وحكموه في الحجر الأسود وارتضوا حكمه واتقوا بهذا الحكم فتنة بينهم كادت
تثور . واستأمنوه على ودائعهم وظلت عنده حتى خرج مهاجراً فردها لهم عنه ابن عمه
علي كرم الله وجهه !

القرآن يدعوهم إلى التفكير والتدبر في أمر صاحبهم هذا المعروف لهم ماضيه كله ,
المكشوف لهم أمره كله . . أفهذا به جنة ? . . أفهذا قول مجنون وفعل مجنون ? . .
كلا:

(ما بصاحبهم من جنة . . إن هو إلا نذير مبين) . .

لا اختلاط في عقله ولا في قوله . إنما هو منذر مفصح مبين . لا يلتبس قوله بقول
المجانين , ولا تشبته حاله بحال المجانين .

ثم . . (أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ?) . .

وهي هزة أخرى أمام هذا الكون العجيب . . والنظر بالقلب المفتوح والعين المبصرة في
هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم , يكفي وحده لانتفاض الفطرة من تحت الركام ;
وتفتح الكينونة البشرية لإدراك الحق الكامن فيه , والإبداع الذي يشهد به , والإعجاز
الذي يدل على الباريء الواحد القدير . . والنظر إلى ما خلق الله من شيء - وكم في
ملكوت السماوات والأرض من شيء - يدهش القلب وبحير الفكر , ويلجئ العقل إلى
البحث عن مصدر هذا كله , وعن الإرادة التي أوجدت هذا الخلق على هذا النظام
المقصود المشهور .

لماذا كانت الخلائق على هذا النحو الذي كانت به ; ولم تكن على أي نحو آخر من
الإمكانيات التي لا حصر لها في الكينونة ? لماذا سارت في هذا الطريق ولم تسر في أي
طريق آخر من الطرق الممكنة الأخرى ? لماذا استقامت على طريقها هذا ومن الذي

يمسكها على نشأتها ؟ ما سر هذه الوحدة السارية في طبيعتها إن لم يكن هذا هو
الناموس الواحد ، الصادر عن الإرادة الواحدة ، التي يجري بها قدر مطرد مقصود ؟

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ
قَدْ أَفْتَرَبَ أَجْلُهُمْ قِيَاءً حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185) مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادِيٍّ لَهُ وَيَبْدُرُهُمْ
فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

إن الجسم الحي . لا بل الخلية الحية . لمعجزة لا ينقضي منها العجب . . وجودها .
تركيبها . تصرفها . عمليات التحول الدائمة التي تتم فيها كل لحظة مع محافظتها على
وجودها ; وتضمنها كذلك لوسيلة التجدد في أنسال منها ; ومعرفتها لوظيفتها ولامتداد
هذه الوظيفة في أنسالها ! . . فمن ذا الذي ينظر إلى هذه الخلية الواحدة ، ثم يطمئن
عقله - بل فطرته وضميره - إلى أن هذا الكون بلا إله ، أو أن هناك آلهة مع الله ؟

إن امتداد الحياة عن طريق الزوجية والنسل ليقوم شاهداً يهتف لكل قلب وكل عقل
بتدبير الخالق الواحد المدبر . . وإلا فمن ذا الذي يضمن للحياة وجود الذكر والأنثى دائماً
في نسلها بالمقادير التي يتم بها هذا التزاوج ؟ لماذا لا يأتي زمن على الحياة تنسل
ذكوراً فقط أو إناثاً فقط . . ولو حدث هذا لا نقطع النسل عند هذا الجيل . . فمن ذا
الذي يمسك بعجلة التوازن دائماً في الأجيال جميعاً ؟

إن التوازن ملحوظ في ملكوت السماوات والأرض جميعاً - لا في هذه الظاهرة الحيوية
وحدها - إنه ملحوظ في بناء الذرة كما هو ملحوظ في بناء المجرة ! وملحوظ في
التوازن بين الأحياء وبين الأشياء سواء . . ولو اختل هذا التوازن شعرة ما ظل هذا الكون
قائماً لحظة ! فمن الذي يمسك بعجلة التوازن الكبرى في السماوات والأرض جميعاً ؟

وعرب الجزيرة الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ما كانوا يدركون بعلومهم
مدى هذا التوازن والتناسق في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء . .
ولكن الفطرة الإنسانية بذاتها تلتقي مع هذا الكون في أعماقها ; وتتجاوز معه بلغة غير
منطوقة إلا في هذه الأعماق . وبكفي أن ينظر الإنسان بالقلب المفتوح والعين المبصرة
إلى هذا الكون حتى يتلقى إيقاعاته وإيقاعاته تلقياً موحياً هادياً .

ولقد اهتدى الإنسان بفطرته - وهو يتلقى إيقاعات هذا الوجود في حسه - إلى أن له إلهاً
. ولم تغب عن حسه قط هذه الحقيقة . إنما كان يخطيء في تحديد صفة الإله الحق ،
حتى تهديه الرسائل إلى الرؤية الصحيحة . . فأما الملحدون الجدد - أصحاب
"الاشتراكية العلمية" ! - فهم أمساخ شائهو الفطرة . بل إنهم إنما ينكرون الفطرة ،
ويعاندون ما يجدونه في أنفسهم من إلحاحها . . وعندما صعد أحدهم إلى الفضاء الجوي
، ورأى ذلك المشهد الباهر - مشهد الأرض كرة معلقة في الفضاء - هتفت فطرته: ما
الذي يمسكها هكذا في الفضاء ؟ ولكنه حين هبط إلى الأرض ، وتذكر إرهاب الدولة ،
قال: إنه لم يجد الله هناك ! وكنتم إلحاح فطرته وصراخها في أعماقه ، أمام شيء من
ملكوت السماوات والأرض !

إن الله الذي يخاطب الإنسان بهذا القرآن لهو الذي خلق هذا الإنسان ، والذي يعلم
فطرة هذا الإنسان !

وأخيراً يلمس قلوبهم بطائف الموت الذي قد يكون مخبأ لهم - من قريب - في عالم المجهول المغيب ; وهم عنه غافلون:

(وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلمهم).. .

فما يدرهم أن أجلمهم قريب ? وما يقيهم في غفلتهم سادرين ; وهم عن غيب الله محجوبون ? وهم في قبضته لا يفلتون ?

إن هذه اللمسة بالأجل المغيب - الذي قد يكون قد اقترب - لتهد القلب البشري هزة عميقة ! لعله أنيستيقظ ويتفتح ويرى . والله منزل هذا القرآن وخالق هذا الإنسان يعلم أن هذه اللمسة لا تبقى قلباً غافلاً . . ولكن بعض القلوب قد يعاند بعد ذلك ويكابر !

(فبأي حديث بعده يؤمنون ?)!

وما بعد هذا الحديث من حديث تهتز له القلوب أو تلين . .

إن هذه اللمسات التي تعددت في الآية الواحدة ; لتكشف لنا عن منهج هذا القرآن في خطاب الكينونة البشرية . . إنه لا يدع جانباً واحداً منها لا يخاطبه , ولا يدع وتراً منها واحداً لا يوقع عليه ; إنه لا يخاطب الذهن ولكنه لا يهمله ; ففي الطريق - وهو يهز الكيان البشري كله - يلمسه وبوقظه . إنه لا يسلك إليه طريق الجدال البارد , ولكنه يستحييه لينظر ويتفكر وحرارة الحياة تسري فيه وتيارها الدافق . . وهكذا ينبغي أن يتجه منهج الدعوة إلى الله دائماً . . فالإنسان هو الإنسان لم يتبدل خلقاً آخر . والقرآن هو القرآن كلام الله الباقي , وخطاب الله لهذا الإنسان الذي لا يتغير . . مهما تعلم ومهما "تطور" !

الدرس السابع: 186 سنة الله في الهدى والضلال

وهنا يقف السياق وقفة قصيرة للتعقيب . . يقرر فيها سنة الله الجارية بالهدى والضلال ; وفق ما أرادته مشيئته من هداية من يطلب الهدى ويجاهد فيه ; وإضلال من يصرف قلبه عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان . وذلك بمناسبة ما عرضه السياق قبل ذلك من حال أولئك القوم الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن ; على طريقة القرآن الكريم في عرض القاعدة العامة بمناسبة المثل الفريد ; ومن بيان السنة الثابتة بمناسبة الحادث العابر:

(من يضل الله فلا هادي له , وبذرهم في طغيانهم يعمهون).

إن الذين يضلون , إنما يضلون لأنهم غافلون عن النظر والتدبر . ومن يغفل عن النظر في آيات الله وتدبرها يضل الله ; ومن يضل الله لا يهديه أحد من بعده:

(من يضل الله فلا هادي له).. .

ومن يكتب الله عليه الضلال - وفق سنته تلك - يظل في طغيانه عن الحق وعماه عنه أبداً:

(وبذرهم في طغيانهم يعمهون).. .

وما في تركهم في عماهم من ظلم , فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم , وهم الذين عطلوا قلوبهم وجوارحهم , وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق وأسرار الوجود , وشهادة الأشياء - التي يوجههم إليها في الآية السابقة - وحيثما امتد البصر في هذا الكون وجد عجيبة , وحيثما فتحت العين وقعت على آية , وحيثما التفت الإنسان إلى نفسه أو إلى ما يحيط به , لمس الإعجاز في تكوينه وفيما حوله من شيء . فإذا عمه - أي عمي - عن هذا كله , ترك في عماه , وإذا طغى بعد هذا كله وتجاوز الحق ترك في طغيانه حتى يسلمه إلى البوار:

(ويذرهم في طغيانهم يعمهون).

الدرس الثامن: 187 - 188 علم الساعة والغيب بيد الله وحده

هؤلاء الغافلون عما حولهم , العمي عما يحيط بهم . . يسألون الرسول [ص] عن الساعة البعيدة المغيبة في المجهول . كالذي لا يرى ما تحت قدميه ويريد أن يرى ما في الأفق البعيد !

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها ? قل: إنما علمها عند ربي , لا يجليها لوقتها إلا هو , ثقلت في السماوات

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187)

والأرض , لا تأتاكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفي عنها ! قل: إنما علمها عند الله , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) .

لقد كانت عقيدة الآخرة , وما فيها من حساب وجزاء , تفاجيء المشركين في الجزيرة مفاجأة كاملة . . ومع أن هذه العقيدة أصيلة في دين إبراهيم - عليه السلام - وهو جد هؤلاء المشركين ; وفي دين إسماعيل أبيهم الكريم ; إلا أنه كان قد طال عليهم الأمد , وبعد ما بينهم وبين أصول الإسلام الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل . حتى لقد اندثرت عقيدة الآخرة تماماً من تصوراتهم ; فكانت أغرب شيء عليهم وأبعده عن تصورهم . حتى لقد كانوا يعجبون ويعجبون من رسول الله [ص] لأنه يحدثهم عن الحياة بعد الموت ; وعن البعث والنشور والحساب والجزاء ; كما حكى عنهم القرآن الكريم في السورة الأخرى: وقال الذين كفروا: هل ندلكم على رجل ينبئكم , إذا مزقتم كل ممزق , إنكم لفي خلق جديد ? أفترى على الله كذباً ? أم به جنة ? بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد . . [سبأ: 7 - 8] .

ولقد علم الله أن أمة من الأمم لا تملك أن تقود البشرية وتشهد عليها - كما هي وظيفة الأمة المسلمة - إلا أن تكون عقيدة الآخرة واضحة لها راسخة في ضميرها . . فتصور الحياة على أنها هذه الفترة المحدودة بحدود هذه الحياة الدنيا , وحدود هذه الأرض الصغيرة , لا يمكن أن ينشأ أمة هذه صفتها وهذه وظيفتها !

إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور , وسعة في النفس , وامتداد في الحياة ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها , لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة . . كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة ; ولفسحة مجال الحركة حتى لا تئسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة , عن المضي في التبشير بالخير , وفعل الخير والقيادة إلى الخير , على الرغم من النتائج القريبة , والتضحيات الأليمة . . وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة . .

والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس "الإنسان" , وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك "الحيوان" ! وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية , والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة !

لذلك كله كان التوكيد شديداً على عقيدة الآخرة في دين الله كله . . ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح . . حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلاً . . وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية , تلك القيادة الراشدة التي وعها التاريخ الإنساني !

ونحن في هذا الموضوع من سياق سورة الأعراف أمام صورة من صور الاستغراب والاستنكار الذي يواجهه المشركون عقيدة الآخرة , تبدو في سؤالهم عن الساعة سؤال الساخر المستنكر المستهتر:

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها ?)

إن الساعة غيب , من الغيب الذي استأثر الله بعلمه , فلم يطلع عليه أحداً من خلقه . . ولكن المشركين يسألون الرسول عنها . . إما سؤال المختبر الممتحن ! وإما سؤال المتعجب المستغرب ! وإما سؤال المستهين المستهتر ! (أيان مرساها ?) . . أي متى موعدها الذي إليه تستقر وترسو !

والرسول [ص] بشر لا يدعي علم الغيب , مأمور أن يكل الغيب إلى صاحبه , وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية , وأنه هو بشر لا يدعي شيئاً خارج بشريته ولا يتعدى حدودها , إنما يعلمه ربه ويوحى إليه ما يشاء:

(قل: إنما علمها عند ربي , لا يجليها لوقتها إلا هو).

فهو - سبحانه - مختص بعلمها , وهو لا يكشف عنها إلا في حينها , ولا يكشف غيره عنها .

ثم يلفتهم عن السؤال هكذا عن موعدها , إلى الاهتمام بطبيعتها وحقيقتها , وإلى الشعور بهولها وضخامتها . . ألا وإن أمرها لعظيم , ألا وإن عبئها لثقيل . ألا وإنها لثقل في السماوات والأرضين . وهي - بعد ذلك - لا تأتي إلا بغتة والغافلون عنها غافلون:

(ثقلت في السماوات والأرض , لا تأتيكم إلا بغتة) . .

فأولى أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها والاستعداد قبل أن تأتي بغتة ; فلا ينفع معها الحذر , ولا تجدي عندها الحيطة , ما لم يأخذوا حذرهم قبلها , وما لم يستعدوا لها , وفي الوقت

متسع وفي العمر بقية . وما يدري أحد متى تجيء , فأولى أن يبادر اللحظة ويسارع ,
وَألا يضع بعد ساعة , قد تفجؤه بعدها الساعة !

ثم يعجب من أمر هؤلاء الذين يسألون الرسول [ص] عن الساعة . . إنهم لا يدركون
طبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ; ولا يعرفون حقيقة الألوهية , وأدب الرسول في جانب
ربه العظيم .

(يسألونك كأنك حفي عنها !)

أي كأنك دائم السؤال عنها ! مكلف أن تكشف عن مواعدها ! ورسول الله [ص] لا
يسأل ربه علم ما يعلم هو أنه مختص بعلمه:

(قل:إنما علمها عند الله). .

قد اختص سبحانه به ; ولم يطلع عليه أحداً من خلقه .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون). .

وليس الأمر أمر الساعة وحده . إنما هو أمر الغيب كله فله وحده علم هذا الغيب . لا
يطلع على شيء منه إلا من شاء , بالقدر الذي يشاء , في الوقت الذي يشاء . . لذلك لا
يملك العباد لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . . فقد يفعلون الأمر يريدون به جلب الخير لأنفسهم
, ولكن عاقبته تكون هي الضر لهم . وقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضر عنهم ,
ولكن عاقبته المغيبة تجره عليهم ! وقد يفعلون الأمر يكرهونه فإذا عاقبته هي الخير ;
ويفعلون الأمر يحبونه فإذا عاقبته هي الضر: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ,
وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم). .

والشاعر الذي يقول:

(ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ! % ومن أين والغايات بعد المذاهب)

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْعَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ
الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا تَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)
إنما يمثل موقف البشرية أمام الغيب المجهول . ومهما يعلم الإنسان ومهما يتعلم , فإن
موقفه أمام باب الغيب الموصد , وأمام ستر الغيب المسدل , سيظل يذكره ببشريته
المحجوبة أمام عالم الغيب المحجوب .

والرسول [ص] وهو من هو ; وقربه من ربه هو قربه , مأمور أن يعلن للناس أنه أمام
غيب الله بشر من البشر , لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً , لأنه لا يطلع على الغيب , ولا
يعرف الغايات قبل المذاهب , ولا يرى مآل أفعاله ; ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله
بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيراً أقدم , وإن رآها سوءاً أحجم . إنما هو يعمل ,
والعاقبة تجيء كما قدر الله في غيبه الممكنون:

(قل:لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً - إلا ما شاء الله - ولو كنت أعلم الغيب لاستكترت من
الخير وما مسني السوء). .

وبهذا الإعلان تتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق , من الشرك في أية صورة من صورهِ . وتتفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها البشر في شيء منها . ولو كان هذا البشر محمداً رسول الله وحيبهِ ومصطفاه - عليه صلوات الله وسلامه - فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية , ويقف العلم البشري . وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله [ص] وتتحدد وظيفته :

(إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) . .

والرسول [ص] نذير وبشير للناس أجمعين . ولكن الذين (يؤمنون) هم الذين ينتفعون بما معه من النذارة والبشارة ; فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه ; وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذي جاء به . ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها , كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين . .

إن الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي إلا للقلب المفتوح لها , والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها , وإن هذا القرآن لا يفتح كنوزه , ولا يكشف أسرارهِ , ولا يعطي ثمارهِ , إلا لقوم يؤمنون . ولقد ورد عن بعض صحابة رسول الله [ص] : كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن . . وهذا الإيمان هو الذي كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التذوق , ويدركون معانيهِ وأهدافهِ ذلك الإدراك , ويصنعون به تلك الخوارق التي صنعوها في أقصر وقت من الزمان .

لقد كان ذلك الجيل المتفرد يجد من حلاوة القرآن , ومن نوره , ومن فرقانه , ما لا يجده إلا الذين يؤمنون إيمان ذلك الجيل . ولئن كان القرآن هو الذي أخذ بأرواحهم إلى الإيمان , لقد كان الإيمان هو الذي فتح لهم في القرآن ما لا يفتحه إلا الإيمان !

لقد عاشوا بهذا القرآن , وعاشوا له كذلك . . ومن ثم كانوا ذلك الجيل المتفرد الذي لم يتكرر - بهذه الكثرة وبهذا التوافي على ذلك المستوى - في التاريخ كله . . اللهم إلا في صورة أفراد على مدار التاريخ يسرون على أقدام ذلك الجيل السامق العجيب !

لقد خلصوا لهذا القرآن فترة طويلة من الزمان , فلم تشب نبعه الرائق شائبة من قول البشر , اللهم إلا قول رسول الله [ص] وهدية . . وقد كان من نبع القرآن ذاته كذلك . . ومن ثم كان ذلك الجيل المتفرد ما كان .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِئْهًا رَّوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلٌ حَمَلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189)

وما أجد الذين يحاولون أداء ما أداه ذلك الجيل أن ينهجوا نهجه , فيعيشوا بهذا القرآن ولهذا القرآن فترة طويلة من الزمان , لا يخالط عقولهم وقلوبهم غيره من كلام البشر ليكونوا كما كان !

الدرس التاسع: 189

ثم جولة جديدة في قضية التوحيد . تأخذ في أولها صورة القصة , لتصوير خطوات الإنحراف من التوحيد إلى الشرك في النفس . وكأنما هي قصة انحراف هؤلاء

المشركين عن دين أبيهم إبراهيم . . ثم تنتهي إلى مواجهتهم بالسخف الذي يزاولونه في عبادة الهتهم التي كانوا يشركون بها , وهي ظاهرة البطلان لأول نظرة ولأول تفكير . وتختتم بتوجيه الرسول [ص] إلى تحديدهم هم وهؤلاء الآلهة التي يعبدونها من دون الله , وأن يعلن التجاءه إلى الله وحده , وليه وناصره:

الدرس التاسع: 189 - 195 خطوات الإنحراف من التوحيد إلى الشرك في النفس

(هو الذي خلقكم من نفس واحدة , وجعل منها زوجها ليسكن إليها , فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به , فلما أثقلت دعوا الله ربهما: لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها . فتعالى الله عما يشركون ! أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ? ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون (?)

(وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم , سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم , فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ? أم لهم أيد يبطشون بها ? أم لهم أعين يبصرون بها ? أم لهم آذان يسمعون بها ? قل: ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) . .

إنها جولة مع الجاهلية في تصوراتها التي متى انحرفت عن العبودية لله الواحد لم تقف عند حد من السخف والضلال ; ولم ترجع إلى تدبر ولا تفكير ! وتصوير لخطوات الانحراف في مدارجه الأولى ; وكيف ينتهي إلى ذلك الضلال البعيد !

الدرس التاسع: 189- 195 تفيد اشراك الزوجين وغيرهما من المشركين

(هو الذي خلقكم من نفس واحدة , وجعل منها زوجها ليسكن إليها , فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به , فلما أثقلت دعوا الله ربهما: لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) . .

إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها . . أن يتوجهوا إلى الله ربهم , معترفين له بالربوبية الخالصة , عند الخوف وعند الطمع . . والمثل المضروب هنا للفطرة يبدأ من أصل الخليقة , وتركيب الزوجية وطبيعتها:

(هو الذي خلقكم من نفس واحدة , وجعل منها زوجها ليسكن إليها) . .

فهي نفس واحدة في طبيعة تكوينها , وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى . وإنما هذا الاختلاف ليسكن الزوج إلى زوجة ويستريح إليها . . وهذه هي نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان . ووظيفة الزوجية في تكوينه . وهي نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ أربعة عشر قرناً . يوم أن كانت الديانات المحرفة تعد المرأة أصل البلاء الإنساني , وتعتبرها لعنة ونجساً وفخاً للغواية تحذر منه تحذيراً شديداً , ويوم أن كانت الوثنيات - ولا تزال - تعدها من سقط المتاع أو على الأكثر خادماً أدنى مرتبة من الرجل ولا حساب له في ذاته على الإطلاق .

والأصل في التقاء الزوجين هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار . ليظلل السكنون والأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب , وينتج فيه المحصول البشري الثمين ,

ويؤهل فيه الجيل الناشئ لحمل تراث التمدن البشري والإضافة إليه . ولم يجعل هذا الالتقاء لمجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة . كما أنه لم يجعله شقاً ونزاعاً , وتعارضاً بين الاختصاصات والوظائف , أو تكراراً للاختصاصات والوظائف ; كما تخبط الجاهليات في القديم والحديث سواء !

وبعد ذلك تبدأ القصة . . تبدأ من المرحلة الأولى . .

فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به . .

والتعبير القرآني يُلطف ويدق ويشف عند تصوير العلاقة الأولية بين الزوجين . . (فلما تغشاها) . . تنسيقاً لصورة المباشرة مع جو السكن ; وترقيقاً لحاشية الفعل حتى يبدو امتزاج طائفتين لا التقاء جسدين . إحياء "للإنسان" بالصورة "الإنسانية" في المباشرة . وافتراقها عن الصورة الحيوانية الغليظة ! . . كذلك تصوير الحمل في أول أمره . . (خفيفاً) . . تمر به الأم بلا ثقله كأنها لا تحسه .

ثم تأتي المرحلة الثانية:

(فلما أثقلت دعوا الله ربهما: لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) . .

لقد تبين الحمل , وتعلقت به قلوب الزوجين , وجاء دور الطمع في أن يكون المولود سليماً صحيحاً صوبحاً . . إلى آخر ما يطمع الآباء والأمهات أن تكون عليه ذريتهم , وهي أجنة في ظلام البطون وظلام الغيوب . . وعند الطمع تستيقظ الفطرة , فتتوجه إلى الله , تعترف له بالربوبية وحده , وتطمع في فضله وحده , لإحساسها اللدني بمصدر القوة والنعمة والإفضال الوحيد في هذا الوجود . لذلك (دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) . .

(فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما . فتعالى الله عما يشركون !) . .

إن بعض الروايات في التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء . . إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين . فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمي ما في بطنها "عبد الحارث" . . والحارث اسم إبليس . ليولد صحيحاً ويعيش ; ففعلت وأغرت آدم معها ! وظاهر ما في هذه الرواية من طابع إسرائيلي . . ذلك أن التصور الإسرائيلي المسيحي - كما حرقوا ديانتهم - هو الذي يلقي عبء الغواية على حواء , وهو مخالف تماماً للتصور الإسلامي الصحيح .

ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات لتفسير هذا النص القرآني . . فهو يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية . . ولقد كان المشركون على عهد رسول الله [ص] وقبله , يندرون بعض أبنائهم للآلهة , أو لخدمة معابد الآلهة ! تقريباً وزلفى إلى الله ! ومع توجههم في أول الأمر لله , فإنهم بعد درجة من قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا يندرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر ! كما يجعل الناس اليوم نصيباً في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين . كأن يستبقوا شعر الغلام لا يخلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس . أو أن يستبقوه فلا ختان حتى يختن هناك . مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بالله الواحد . ثم

قَلَمًا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190)
يتبعون هذا الاعتراف بهذه الاتجاهات المشركة . والناس هم الناس !

(فتعالى الله عما يشركون !).

وتنزه عن الشرك الذي يعتقدون ويزاولون !

على أننا نرى في زماننا هذا صنوفاً وألواناً من الشرك ; ممن يزعمون أنهم يوحدون الله
وبسلمون له , ترسم لنا صورة من مدارج الشرك التي ترسمها هذه النصوص .

إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها "القوم" ويسمونها "الوطن" , ويسمونها
"الشعب" . . إلى آخر ما يسمون . وهي لا تعدو أن تكون أصناماً غير مجسدة كالأصنام
الساذجة التي كان يقيمها الوثنيون . ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله - سبحانه - في
خلقه , وينذر لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة ! ويضحون لها كالذبايح التي
كانت تقدم في المعابد على نطاق واسع !

إن الناس يعترفون بالله ربا . ولكنهم ينذون أوامره وشرائعه من ورائهم ظهرياً , بينما
يجعلون أوامر هذه الآلهة ومطالبها "مقدسة" . تخالف في سبيلها أوامر الله وشرائعه ,
بل تنبذ نبذاً . فكيف تكون الآلهة ? وكيف يكون الشرك ? وكيف يكون نصيب الشركاء
في الأبناء . . إن لم يكن هو هذا الذي تزاوله الجاهلية الحديثة !!

ولقد كانت الجاهلية القديمة أكثر أدياً مع الله . . لقد كانت تتخذ من دونه آلهة تقدم لها
هذه التقدّمات من الشرك في الأبناء والثمار والذبايح لتقرب الناس من الله زلفي !
فكان الله في حسنها هو الأعلى . فأما الجاهلية الحديثة فهي تجعل الآلهة الأخرى أعلى
من الله عندها . فتقدس ما تأمر به هذه الآلهة وتنبذ ما يأمر به الله نبذاً !

إننا نخدع أنفسنا حين نقف بالوثنية عند الشكل الساذج للأصنام والآلهة القديمة ,
والشعائر التي كان الناس يزاولونها في عبادتها واتخاذها شفعاء عند الله . . إن شكل
الأصنام والوثنية فقط هو الذي تغير . كما أن الشعائر هي التي تعقدت , واتخذت لها
عنوانات جديدة . . أما طبيعة الشرك وحقيقته فهي القائمة من وراء الأشكال والشعائر
المتغيرة . .

وهذا ما ينبغي ألا يخدعنا عن الحقيقة !

إن الله - سبحانه - يأمر بالعفة والحشمة والفضيلة . ولكن "الوطن" أو "الإنتاج" يأمر
بأن تخرج المرأة وتتبرج وتغري وتعمل مضيضة في الفنادق في صورة فتيات الجيشا في
اليابان الوثنية ! فمن الإله الذي تتبع أوامره ? أهو الله سبحانه ? أم إنها الآلهة المدعاة ?

إن الله - سبحانه - يأمر أن تكون رابطة التجمع هي العقيدة . . ولكن "القومية" أو
"الوطن" يأمر باستبعاد العقيدة من قاعدة التجمع ; وأن يكون الجنس أو القوم هو
القاعدة ! . . فمن هو الإله الذي تتبع أوامره ? أهو الله - سبحانه - أم هي الآلهة المدعاة
!?

إن الله - سبحانه - يأمر أن تكون شريعته هي الحاكمة . ولكن عبداً من العبيد - أو
مجموعة من "الشعب" - تقول: كلا ! إن العبيد هم الذين يشرعون وشريعتهم هي
الحاكمة . . فمن هو الإله الذي تتبع أوامره ? أهو الله سبحانه أم هي الآلهة المدعاة !?

إنها أمثلة لما يجري في الأرض كلها اليوم ; ولما تتعارف عليه البشرية الضالة . . أمثلة تكشف عن حقيقة الوثنية السائدة , وحقيقة الأصنام المعبودة , المقامة اليوم بدلاً من تلك الوثنية الصريحة , ومن تلك الأصنام المنظورة ! ويجب ألا نخدعنا الأشكال المتغيرة للوثنية والشرك عن حقيقتها الثابتة !!!

أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192)

ولقد كان القرآن يحاور أصحاب تلك الوثنية الساذجة ; وتلك الجاهلية الصريحة ; ويخاطب عقولهم البشرية لإيقاظها من تلك الغفلة التي لا تليق بالعقل البشري - أياً كانت طفولته - فيعقب على ذلك المثل الذي ضربه لهم , وصور فيه مدارج الشرك في النفس:

(أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ؟) . .

إن الذي يخلق هو الذي يستحق أن يعبد ! وآلهتهم المدعاة - كلها - لا تخلق شيئاً بل هي تخلق ! فكيف يشركون بها ؟ كيف يجعلون لها شركاً مع الله في نفوسهم وفي أولادهم ؟

وإن الذي يملك أن ينصر عباده بقوته وبحميهم هو الذي ينبغي أن يعبد . فالقوة والقهر والسلطان هي خصائص الألوهية وموجبات العبادة والعبودية . . وآلهتهم المدعاة - كلها - لا قوة لها ولا سلطان ; فهم لا يستطيعون نصرهم , ولا نصر أنفسهم ! فكيف يجعلون لها شركاً مع الله في نفوسهم وفي أولادهم ؟

ومع أن برهان الخلق والقدرة هذا كان يوجه إلى أصحاب تلك الجاهلية الساذجة , فهو ما يزال هو الذي يحاج به أصحاب الجاهلية الحاضرة ! إنهم يقيمون لهم أصناماً أخرى يعبدونها ويتبعون ما تأمر به ; ويجعلون لها شركاً في أنفسهم وأبنائهم وأموالهم . . فمن منها يخلق من السماوات والأرض شيئاً ؟ ومن منها يملك لهم أو لنفسه نصراً ؟

إن العقل البشري - لو خلي بينه وبين هذا الواقع - لا يقره , ولا يرضاه ! ولكنها الشهوات والأهواء والتضليل والخداع . . هي التي تجعل البشرية بعد أربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن تترد إلى هذه الجاهلية - في صورتها الجديدة - فتشرك ما لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون , ولا يملكون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون !

إن هذه البشرية لفي حاجة اليوم - كما كانت في حاجة بالأمس - إلى أن تخاطب بهذا القرآن مرة أخرى . في حاجة إلى من يقودها من الجاهلية إلى الإسلام ; ومن يخرجها من الظلمات إلى النور ; ومن ينقذ عقولها وقلوبها من هذه الوثنية الجديدة ; بل من هذا السخف الجديد الذي تلج فيه ; كما أنقذها هذا الدين أول مرة !

إن صيغة التعبير القرآنية توحى بأنه كان يعني كذلك تقريرهم على اتخاذ آلهة من البشر:

(أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ؟) . .

فهذه الواو والنون تشير إلى أن من بين هذه الآلهة على الأقل بشراً من "العقلاء" الذين يعبر عنهم بضمير "العاقل" ! . . وما علمنا أن العرب في وثنيتهم كانوا يشركون بالهة من البشر - بمعنى أنهم يعتقدون بالوهيتهم أو يقدمون الشعائر التعبدية لهم - إنما هم كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية والأحكام في النزاعات - أي الحاكمية الأرضية - وأن القرآن يعبر عن هذا بالشرك , ويسوي بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء . وهذا هو الاعتبار الإسلامي لهذا اللون من الشرك . فهو شرك كشرك الاعتقاد والشعائر لا فرق بينه وبينه , كما اعتبر الذين يتقبلون الشرائع والأحكام من الأحيار والرهبان مشركين . مع أنهم لم يكونوا يعتقدون بالوهيتهم ولم يكونوا يقدمون لهم الشعائر كذلك . فكله شرك وخروج عن التوحيد الذي يقوم عليه دين الله ; والذي تعبر عنه شهادة أن لا إله إلا الله . . مما يتفق تماماً مع ما قررناه من شرك الجاهلية الحديثة !

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194)

ولما كان الحديث عن قصة الانحراف في النفس - ذلك المتمثل في قصة الزوجين - هو حديث كل شرك ! والمقصود به هو تنبيه أولئك الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن أول مرة , إلى سخر ما هم عليه من الشرك , واتخاذ تلك الآلهة التي لا تخلق شيئاً بل هي تخلق , ولا تنصر عبادها بل لا تملك لأنفسها نصراً , سواء أكانت من البشر أم من غيرهم , فهي كلها لا تخلق ولا تنصر - لما كان هذا هو اتجاه السياق القرآني , فإنه ينتقل من القصة ومن أسلوب الحكاية في الفقرة السابقة , إلى مواجهة مشركي العرب وإلى أسلوب الخطاب انتقالاً مباشراً , كأنه امتداد للحديث السابق عليه عن تلك الآلهة !

وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم , سواء عليكم ادعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم . فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيدي يبطلشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ .

لقد كانت وثنية مشركي العرب وثنية ساذجة - كما أسلفنا - سخيفة في ميزان العقل البشري في أية مرحلة من مراحلها ! ومن ثم كان القرآن ينبه فيهم هذا العقل ; وهو يواجههم بسخافة ما يزاولونه من الشرك بمثل هذه الآلهة .

إن أصنامهم هذه الساذجة بهيئتها الظاهرة: ليس لها أرجل تمشي بها , وليس لها أيدي تبطلش بها . وليس لها أعين تبصر بها , وليس لها آذان تسمع بها . . هذه الجوارح التي تتوافر لهم هم . فكيف يعبدون ما هو دونهم من هذه الأحجار الهامدة ؟

فأما ما يرمزون إليه بهذه الأصنام من الملائكة حيناً , ومن الآباء والأجداد حيناً . . فهم عباد أمثالهم من خلق الله مثلهم . لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون , ولا يملكون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون !

والازدواج في عقائد مشركي العرب بين الأصنام الظاهرة , والرموز الباطنية هو - فيما نحسب - سبب مخاطبتهم هكذا عن هذه الآلهة: مرة بضمير العاقل ملحوظاً فيها ما وراء

الأصنام من الرمز , ومرة بالإشارة المباشرة إلى الأصنام ذاتها , وأنها فاقدة للحياة والحركة ! وهي في مجموعها ظاهرة البطلان في منطق العقل البشري ذاته , الذي يوقظه القرآن , ويرفعه عن هذه الغفلة المزرية !

الدرس العاشر: 195 - 198 الإعتصام بالله وتحدي الكفار

وفي نهاية هذه المحاجة يوجه الله سبحانه رسوله [ص]: [أن يتحداهم ويتحدى آلهم العاجزة - كلها - وأن يعلن عن عقيدته الناصعة في تولي الله - وحده - له:

(قل: ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب , وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا , وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) . .

إنها كلمة صاحب الدعوة , في وجه الجاهلية . . ولقد قالها رسول الله [ص] كما أمره ربه ; وتحدي بها المشركين في زمانه وآلهم المدعاة:

(قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) . .

لقد قذف في وجوههم ووجوه آلهم المدعاة بهذا التحدي . . وقال لهم: ألا يألوا جهداً في جمع كيدهم وكيد آلهم ; بلا إمهال ولا إنظار ! وقالها في لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذي يرتكن إليه , ويحتمي به من كيدهم جميعاً:

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ (195) إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198)

(إن وليي الله , الذي نزل الكتاب , وهو يتولى الصالحين) . .

فأعلن بها عمن إليه يرتكن . إنه يرتكن إلى الله . . الذي نزل الكتاب . . فدل بتنزيله على إرادته - سبحانه - في أن يواجه رسوله الناس بالحق الذي فيه ; كما قدر أن يعلي هذا الحق على باطل المبطلين . . وأن يحمي عباده الصالحين الذين يبلغونه ويحملونه ويشقون فيه .

وإنها لكلمة صاحب الدعوة إلى الله - بعد رسول الله [ص] - في كل مكان وفي كل زمان:

(قل: ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) . . (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) . .

إنه لا بد لصاحب الدعوة إلى الله أن يتجرد من أسناد الأرض ; وأن يستهين كذلك بأسناد الأرض . .

إنها في ذاتها واهية واهنة , مهما بدت قوية قادرة:(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له:إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له , وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب !). (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً , وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون !).

وصاحب الدعوة إلى الله يرتكن إلى الله . فما هذه الأولياء والأسناد الأخرى إذن ؟ وماذا تساوي في حسه ; حتى لو قدرت على أذاه؟! إنما تقدر على أذاه بإذن ربه الذي يتولاها . لا عجزاً من ربه عن حمايته من أذاها _ سبحانه وتعالى _ ولا تخلياً منه سبحانه عن نصره أوليائه . . ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب . واستدراجاً لعباده الطالحين للإعذار والإمهال والكيد المتين !

لقد كان أبو بكر - رضي الله عنه - يردد , والمشركون يتناولونه بالأذى ; ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه , حتى تركوه وما يعرف له فم من عين ! . . كان يردد طوال هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله [ص]:" رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! . . . " كان يعرف في قراره نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه ! لقد كان واثقاً أن ربه لا يعجز عن التدمير على أعدائه ; كما كان واثقاً أن ربه لا يتخلى عن أوليائه !

ولقد كان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول , وقد تناوله المشركون بالأذى - لأنه أسمعهم القرآن في ناديمهم إلى جوار الكعبة - حتى تركوه وهو يترنج لا يصلب قامته ! . . كان يقول بعد هذا الأذى المنكر الفاجر الذي ناله:"والله ما كانوا أهون عليّ منهم حينذاك ! " . . كان يعرف أنهم يحادون الله - سبحانه - وكان يستيقن أن الذي يحاد الله مغلوب هين على الله . فينبغي أن يكون مهيناً عند أولياء الله .

ولقد كان عبد الله بن مطعون - رضي الله عنه - يقول , وقد خرج من جوار عتبة بن ربيعة المشرك , لأنه لم يستسغ لنفسه أن يحتمي بجوار مشرك فكيف عنه الأذى , وإخوان له في الله يؤذون في سبيل الله . وقد تجمع عليه المشركون - بعد خروجه من جوار عتبة - فأذوه حتى خسروا عينه . . كان يقول لعتبة وهو يراه في هذه الحال فيدعوه أن يعود إلى جواره:"لأنا في جوار من هو أعز منك ! " . . وكان يرد على عتبة إذ قال له:"يا ابن أخي لقد كانت عينك في غنى عمّا أصابها ! " . . يقول:"لا والله . وللأخرى أحق لما يصلحها في سبيل الله ! " . . كان يعلم أن جوار ربه أعز من جوار العبيد . وكان يستيقن أن ربه لا يتخلى عنه , ولو تركه يؤذى في سبيله هذا الأذى لترتفع نفسه إلى هذا الأفق العجيب:"لا والله . وللأخرى أحق لما يصلحها في سبيل الله " . .

هذه نماذج من ذلك الجيل السامق الذي تربى بالقرآن في حجر محمد [ص] في ظلال ذلك التوجيه الرباني الكريم:

(قل:ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب , وهو يتولى الصالحين). .

ثم ماذا كان بعد هذا الأذى الذي احتملوه من كيد المشركين . وهذا الاعتصام بالله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ?

كان ما يعرفه التاريخ ! كانت الغلبة والعزة والتمكين لأولياء الله . وكانت الهزيمة والهوان والدثور للطواغيت الذين قتلهم الصالحون . وكانت التبعية ممن بقي منهم - ممن شرح الله صدره للإسلام - لهؤلاء السابقين , الذين احتملوا الأذى بثقة في الله لا تتزعزع , وبعزيمة في الله لا تلين !

إن صاحب الدعوة إلى الله - في كل زمان وفي كل مكان - لن يبلغ شيئاً إلا بمثل هذه الثقة , وإلا بمثل هذه العزيمة , وإلا بمثل ذلك اليقين:

(إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين).. .

لقد أمر رسول الله [ص] أن يتحدى المشركين . فتحداهم . وأمر أن يبين لهم عجز آلهتهم وسخف الشرك بها فبين لهم:

(والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون).. .

(وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا , وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون).. .

وإذا كان هذا التقرير ينطبق على آلهة الوثنية الساذجة في جاهلية العرب القديمة . . فإنه ينطبق كذلك على كل الآلهة المدعاة في الجاهلية الحديثة . .

إن هؤلاء المشركين الجدد يدعون من دون الله أولياء من أصحاب السلطان الظاهر في الأرض ! ولكن هؤلاء الأولياء لا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون . حين يجري قدر الله بما يشاء في أمر العباد في الموعد المرسوم .

وإذا كانت آلهة العرب الساذجة لا تسمع , وعيونها المصنوعة من الخرز أو الجواهر تنظر ولا تبصر ! فإن بعض الآلهة الجديدة كذلك لا تسمع ولا تبصر . . الوطن . والقوم . والإنتاج . والآلة . وحتمية التاريخ ! إلى آخر تلك الآلهة المدعاة في الجاهلية الحديثة ! والذي يبصر منها ويسمع - وهي الآلهة المدعاة من البشر , التي تعطى خصائص الألوهية فتشرع بأمرها وتحكم - هي كذلك لا تسمع ولا تبصر . . هي من الذين يقول الله فيهم: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس , لهم قلوب لا يفقهون بها , ولهم أعين لا يبصرون بها , ولهم أذان لا يسمعون بها . . أولئك كالأنعام بل هم أضل , أولئك هم الغافلون)!

إن صاحب الدعوة إلى الله , إنما يصادف حالة واحدة من الجاهليات المتعددة . . وإنما ينبغي أن يقول ما أمر الله سبحانه نبيه [ص] أن يقول:

(قل: ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون).. . فإنما هم هم . . في كل أرض وفي كل حين !!!

حُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ قَاسْتَعِدُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200)

الوحدة الحادية عشرة: 199 - 206 توجيهات ربانية للمؤمنين مقدمة الوحدة تجيء هذه التوجيهات الربانية في نهاية السورة , من الله سبحانه إلى أوليائه . . رسول الله [ص] والذين آمنوا معه . . وهم بعد في مكة ; وفي مواجهة تلك الجاهلية من حولهم في الجزيرة العربية وفي الأرض كافة . . هذه التوجيهات الربانية في مواجهة تلك الجاهلية الفاحشة , وفي مواجهة هذه البشرية الضالة , تدعو صاحب الدعوة [ص] إلى السماحة واليسر , والأمر بالواضح من الخير الذي تعرفه فطرة البشر في بساطتها , بغير تعقيد ولا تشديد . والإعراض عن الجاهلية فلا يؤاخذهم , ولا يجادلهم , ولا يحفلهم . . فإذا تجاوزوا الحد وأثاروا غضبه بالعناد والصد , ونفخ الشيطان في هذا الغضب , فليستعذ بالله ليهدأ ويطمئن ويصبر:(خذ العفو , وأمر بالعرف , وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) . .

ثم يعرفه بطبيعة أولئك الجاهلين ; والوسوسة التي وراءهم والتي تمدهم في الغي والضلال . ويذكر طرفاً من سلوكهم مع رسول الله [ص] وطلبهم الخوارق ; ليوجهه إلى ما يقول لهم , ليعرفهم بطبيعة الرسالة وحقيقة الرسول , وليصحح لهم تصوراتهم عنها وعنه وعن علاقته بربه الكريم:(وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا: لولا اجتبيتها ! قل: إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي . هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى ما أوحاه إليه ربه من القرآن , يجيء توجيه المؤمنين إلى أدب الاستماع لهذا القرآن ; وأدب ذكر الله ; مع التنبيه إلى مداومة هذا الذكر , وعدم الغفلة عنه . فإن الملائكة الذين لا يخطئون يذكرون ويسبحون ويسجدون , فما أولى البشر الخطئين أن لا يغفلوا عن الذكر والتسبيح والسجود:(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) . .

الدرس الأول: 199 - 201 دعوة إلى السماحة واليسر والإستغفار والتوبة

(خذ العفو , وأمر بالعرف , وأعرض عن الجاهلين , وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله , إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) . .

خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس في المعاشرة والصحة , ولا تطلب إليهم الكمال , ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق . واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم . . كل أولئك في المعاملات الشخصية لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية . فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح . ولكن في الأخذ والعطاء والصحة والجوار . وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة . فالإغضاء عن الضعف البشري , والعطف عليه , والسماحة معه , واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء . ورسول الله [ص] راع وهاد ومعلم ومرب . فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والإغضاء . . وكذلك كان [ص] . . لم يغضب لنفسه قط . فإذا كان في دين الله لم يقم لغضبه شيء ! . . وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله [ص] . فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضي سعة صدر , وسماحة طبع , ويسراً وتيسيراً في غير تهاون ولا تفريط في دين الله . .

(وأمر بالعرف). . وهو الخير المعروف الواضح الذي لا يحتاج إلى مناقشة وجدال ; والذي تلتقي عليه الفطر السليمة والنفوس المستقيمة . والنفس حين تعتاد هذا المعروف يسلس قيادها بعد ذلك , وتتطوع لألوان من الخير دون تكليف وما يصد النفس عن الخير شيء مثلما يصدها التعقيد والمشقة والشدة في أول معرفتها بالتكاليف ! ورياضة النفوس تقتضي أخذها في أول الطريق بالميسور المعروف من هذه التكاليف حتى يسلس قيادها وتعتاد هي بذاتها النهوض بما فوق ذلك في يسر وطواعية ولين . .

(وأعرض عن الجاهلين). . من الجهالة ضد الرشده , والجهالة ضد العلم . . وهما قريب من قريب . . والإعراض يكون بالترك والإهمال ; والتهوين من شأن ما يجهلون به من التصرفات والأقوال ; والمرور بها مر الكرام ; وعدم الدخول معهم في جدال لا ينتهي إلى شيء إلا الشدة والجذب , وإضاعة الوقت والجهد . . وقد ينتهي السكوت عنهم , والإعراض عن جهالتهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها , بدلاً من الفحش في الرد واللجاج في العناد . فإن لم يؤد إلى هذه النتيجة فيهم , فإنه يعزلهم عن الآخرين الذين في قلوبهم خير . إذ يرون صاحب الدعوة محتملاً معرضاً عن اللغو , ويرون هؤلاء الجاهلين يحمقون ويجهلون فيسقطون من عيونهم ويُعزلون !

وما أجدر صاحب الدعوة أن يتبع هذا التوجيه الرباني العليم بدخائل النفوس !

ولكن رسول الله [ص] بشر . وقد يثور غضبه على جهالة الجهال وسفاهة السفهاء وحمق الحمقى . . وإذا قدر عليها رسول الله [ص] فقد يعجز عنها من وراءه من أصحاب الدعوة . . وعند الغضب ينزع الشيطان في النفس , وهي تائرة هائجة مفقودة الزمام ! . . لذا يأمره ربه أن يستعيد بالله ; لينفث غضبه , ويأخذ على الشيطان طريقه:

(وإما ينزغناك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم). .

وهذا التعقيب: (إنه سميع عليم). . يقرر أن الله سبحانه سميع لجهل الجاهلين وسفاهتهم ; عليم بما تحمله نفسك من أذاهم . . وفي هذا ترضية وتسرية للنفس . . فحسبها أن الجليل العظيم يسمع ويعلم ! وماذا تنبغي نفس بعدما يسمع الله ويعلم ما تلقى من السفاهة والجهل وهي تدعو إليه الجاهلين !?

ثم يتخذ السياق القرآني طريقاً آخر للإيحاء إلى نفس صاحب الدعوة بالرضى والقبول , وذكر الله عند

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201)
وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْعَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَأْيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا
قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)

الغضب لأخذ الطريق على الشيطان ونزغه اللئيم:

(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون). .

وتكشف هذه الآية القصيرة عن إيحاءات عجيبة , وحقائق عميقة , يتضمنها التعبير القرآني المعجز الجميل . . إن اختتام الآية بقوله: (فإذا هم مبصرون) ليضيف معاني

كثيرة إلى صدر الآية . ليس لها ألفاظ تقابلها هناك . . إنه يفيد أن مس الشيطان يعمي ويطمس ويغلق البصيرة . ولكن تقوى الله ومراقبته وخشية غضبه وعقابه . . تلك الوشيحة التي تصل القلوب بالله وتوقظها من الغفلة عن هداه . . تذكر المتقين . فإذا تذكروا تفتحت بصائرهم ; وتكشفت الغشاوة عن عيونهم: (فإذا هم مبصرون). . إن مس الشيطان عمى , وإن تذكر الله إبصار . . إن مس الشيطان ظلمة , وإن الاتجاه إلى الله نور . . إن مس الشيطان تجلوه التقوى , فما للشيطان على المتقين من سلطان . .

الدرس الثاني: 202 - 203 رد على طلب الكفار تغيير الآيات والقرآن بصائر

ذلك شأن المتقين: (إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون). . جاء بيان هذا الشأن معترضاً بين أمر الله سبحانه بالإعراض عن الجاهلين ; وبيان ماذا ومن ذا وراء هؤلاء الجاهلين , يدفعهم إلى الجهل والحمق والسفه الذي يزاولون . . فلما انتهى التعقيب عاد السياق يحدث عن الجاهلين:

(وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا: لولا اجتبيتها . قل: إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي , هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون). .

وإخوانهم الذين يمدونهم في الغي هم شياطين الجن . . وقد يكونون هم شياطين الإنس أيضاً . . إنهم يزيدون لهم في الضلال , لا يكفون ولا يسأمون ولا يسكتون ! وهم من ثم يحمقون ويجهلون ! ويضلون فيما هم فيه سادرين .

ولقد كان المشركون لا يكفون عن طلب الخوارق من رسول الله [ص] والسياق هنا يحكي بعض أقوالهم الدالة على جهلهم بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول:

(وإذا لم تأتهم بآية قالوا: لولا اجتبيتها!). .

أي . . لولا ألححت على ربك حتى ينزلها ! . . أو هلا فعلتها أنت من نفسك ? ألسنت نبياً
!?

إنهم لم يكونوا يدركون طبيعة الرسول ووظيفته ; كذلك لم يكونوا يعرفون أدبه مع ربه ; وأنه يتلقى منه ما يعطيه ; ولا يقدم بين يدي ربه ولا يقترح عليه ; ولا يأتي كذلك الشيء من عند نفسه . . والله يأمره أن يبين لهم:

(قل: إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي). .

فلا أقترح , ولا أبتدع , ولا أملك إلا ما يوحيه إلي ربي . ولا آتي إلا ما يأمرني به . .

لقد كانت الصورة الزائفة للمتنبئين في الجاهليات تتراءى لهم , ولم يكن لهم فقه ولا معرفة بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول:

كذلك يؤمر رسول الله [ص] أن يبين لهم ما في هذا القرآن الذي جاءهم به , وحقيقته التي يغفلون عنها , وبطلبون الخوارق المادية , وأمامهم هذا الهدى الذي يغفلون عنه:

(هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون). .

إنه هذا القرآن . . بصائر تهدي , ورحمة تفيض . . لمن يؤمن به , ويغتتم هذا الخير العميم . .

إنه هذا القرآن الذي كان الجاهلون من العرب - في جاهليتهم - يعرضون عنه , ويطلبون خارقة من الخوارق المادية مثل التي جرت على أيدي الرسل من قبل , في طفولة البشرية , وفي الرسائل المحلية غير العالمية , والتي لا تصلح إلا لزمانها ومكانها , ولا تواجه إلا الذين يشاهدونها , فكيف بمن بعدهم من الأجيال , وكيف بمن وراءهم من الأقسام الذين لم يروا هذه الخارقة !

إنه هذا القرآن الذي لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه . . من أي جانب من الجوانب شاء الناس المعجزة في أي زمان وفي أي مكان . . لا يستثنى من ذلك من كان من الناس ومن يكون إلى آخر الزمان !

فهذا جانبه التعبيري . . ولعله كان بالقياس إلى العرب في جاهليتهم أظهر جوانبه - بالنسبة لما كانوا يحفلون به من الأداء البياني , ويتفاخرون به في أسواقهم ! - ها هو ذا كان وما يزال إلي اليوم معجزاً لا يتناول إليه أحد من البشر . تحداهم الله به وما يزال هذا التحدي قائماً . والذين يزاولون فن التعبير من البشر , ويدركون مدى الطاقة البشرية فيه , هم أعرف الناس بأن هذا الأداء القرآني معجز معجز . . سواء كانوا يؤمنون بهذا الدين عقيدة أو لا يؤمنون . . فالتحدي في هذا الجانب قائم على أسس موضوعية يستوي أمامها المؤمنون والجاحدون . . وكما كان كبراء قريش يجدون من هذا القرآن - في جاهليتهم - ما لا قبل لهم بدفعه عن أنفسهم - وهم جاحدون كارهون - كذلك يجد اليوم وغداً كل جاهلي جاحد كاره ما وجد الجاهليون الأولون !

ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد . . يبقى ذلك السلطان الذي له على الفطرة - متى خلي بينها وبينه لحظة ! - وحتى الذين رابت على قلوبهم الحجب , وثقل فوقها الركام , تنتفض قلوبهم أحياناً ; وتتململ قلوبهم أحياناً تحت وطأة هذا السلطان ; وهم يستمعون إلى هذا القرآن !

إن الذين يقولون كثيرون . . وقد يقولون كلاماً يحتوي مبادئ ومذاهب وأفكاراً واتجاهات . . ولكن هذا القرآن يتفرد في إيقاعاته على فطرة البشر وقلوبهم فيما يقول ! إنه قاهر غلاب بذلك السلطان الغلاب ! . . ولقد كان كبراء قريش يقولون لأتباعهم الذين يستخفونهم - ويقولون لأنفسهم في الحقيقة :- (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) . . لما كانوا يجدونه هم في نفوسهم من مس هذا القرآن وإيقاعه الذي لا يقاوم ! وما يزال كبراء اليوم يحاولون أن يصرفوا القلوب عن هذا القرآن بما ينزلونه لهم من مكاتيب ! غير أن هذا القرآن يظل - مع ذلك كله - غلاباً . . وما إن تعرض الآية منه أو الآيات في ثنايا قول البشر , حتى تتميز وتتفرد بإيقاعها , وتستولي على الحس الداخلي للسامعين , وتنحي ما عداها من قول البشر المحير الذي تعب فيه القائلون !

ثم يبقى وراء ذلك مادة هذا القرآن وموضوعه . . وما تتسع صفحات عابرة - في ظلال القرآن - للحديث عن مادة هذا القرآن وموضوعه . . فالقول لا ينتهي والمجال لا يحد !

وماذا الذي يمكن أن يقال في صفحات !?

منهج هذا القرآن العجيب , في مخاطبة الكينونة البشرية بحقائق الوجود . . وهو منهج يواجه هذه الكينونة بجملتها , لا يدع جانباً واحداً منها لا يخاطبه في السياق الواحد , ولا

يدع نافذة واحدة من نوافذها لا يدخل منها إليها ; ولا يدع خاطراً فيها لا يجاوبه , ولا يدع هاتفاً فيها لا يلبيه !

منهج هذا القرآن العجيب , وهو يتناول قضايا هذا الوجود , فيكشف منها ما تتلقاه فطرة الإنسان وقلبه وعقله بالتسليم المطلق , والتجاوب الحي , والرؤية الواضحة . وما يطابق كذلك حاجات هذه الفطرة , ويوقظ فيها طاقاتها المكنونة , ويوجهها الوجهة الصحيحة .

منهج هذا القرآن العجيب , وهو يأخذ بيد الفطرة الإنسانية خطوة خطوة , ومرحلة مرحلة ; ويصعد بها - في هينة ورفق , وفي حيوية كذلك وحرارة , وفي وضوح وعلى بصيرة - درجات السلم في المرتقى الصاعد , إلى القمة السامقة . . في المعرفة والرؤية , وفي الانفعال والاستجابة , وفي التكيف والاستقامة , وفي اليقين والثقة , وفي الراحة والطمأنينة . . إلى حقائق هذا الوجود الصغيرة والكبيرة . .

منهج هذا القرآن العجيب , وهو يلمس الفطرة الإنسانية , من حيث لا يحتسب أحد من البشر أن يكون هذا موضع لمسة ! أو أن يكون هذا وتر استجابة ! فإذا الفطرة تنتفض وتصوت وتستجيب . ذلك أن منزل هذا القرآن هو خالق هذا الإنسان الذي يعلم من خلق , وهو أقرب إليه من حبل الوريد !

ذلك المنهج ? . . أم المادة ذاتها التي يعرضها القرآن في هذا المنهج . . وهنا ذلك الانفساح الذي لا يبلغ منه القول شيئاً . . (قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربي , لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي , ولو جئنا بمثله مدداً) . . (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام , والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) . .

إن الذي يكتب هذه الكلمات , قضى - ولله الحمد والمنة - في الصحبة الواعية الدارسة لهذا الكتاب خمسة وعشرين عاماً . يجول في جنبات الحقائق الموضوعية لهذا الكتاب ; في شتى حقول المعرفة الإنسانية - ما طرقته معارف البشر وما لم تطرقه - ويقرأ في الوقت ذاته ما يحاوله البشر من بعض هذه الجوانب . . ويرى . . يرى ذلك الفيض الغامر المنفصح الواسع في هذا القرآن ; وإلى جانبه تلك البحيرات المنعزلة , وتلك النقر الصغيرة . . وتلك المستنقعات الآسنة أيضاً !

في النظرة الكلية في هذا الوجود , وطبيعته , وحيقيقته , وجوانبه , وأصله , ونشأته , وما وراءه من أسرار ; وما في كيانه من خبايا ومكنونات وما يضمه من أحياء وأشياء . . الموضوعات التي تطرق جوانب منها "فلسفة" البشر! . .

في النظرة الكلية إلى "الإنسان" ونفسه , وأصله , ونشأته , ومكنونات طاقاته , ومجالات نشاطه ; وطبيعة تركيبه , وانفعالاته , واستجاباته , وأحواله وأسراره . . الموضوعات التي تطرق جوانب منها علوم الحياة والنفس والتربية والاجتماع ! والعقائد والأديان . .

في النظرة إلى نظام الحياة الإنسانية ; وجوانب النشاط الواقعي فيها ; ومجالات الارتباط والاحتكاك , والحاجات المتجددة وتنظيم هذه الحاجات . . الموضوعات التي تطرق جوانب منها النظريات والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . .

وفي كل حقل من هذه الحقول يجد الدارس الواعي لهذا القرآن وفرة من النصوص والتوجيهات يحار في كثرتها ووفرتها ! فوق ما في هذه الوفرة من أصالة وصدق وعمق وإحاطة ونفاسة !

إنني لم أجد نفسي مرة واحدة - في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية - في حاجة إلى نص واحد من خارج هذا القرآن - فيما عدا قول رسول الله [ص] وهو من آثار هذه القرآن - بل إن أي قول آخر ليبدو هزيباً - حتى لو كان صحيحاً - إلى جانب ما يجده الباحث في هذا الكتاب العجيب . .

إنها الممارسة الفعلية التي تنطق بهذه التقريرات ; والصحية الطويلة في ظل حاجات الرؤية والبحث والنظر في هذه الموضوعات . . وما بي أن أثنى على هذا الكتاب . . ومن أنا ومن هؤلاء البشر جميعاً ليضيفوا إلى كتاب الله شيئاً بما يملكون من هذا الثناء !

لقد كان هذا الكتاب هو مصدر المعرفة والتربية والتوجيه والتكوين الوحيد لجيل من البشر فريد . . جيل لم يتكرر بعد في تاريخ البشرية - لا من قبل ولا من بعد - جيل الصحابة الكرام الذين أحدثوا في تاريخ البشرية ذلك الحدث الهائل العميق الممتد , الذي لم يدرس حق دراسته إلى الآن . .

لقد كان هذا المصدر هو الذي أنشأ - بمشيئة الله وقدره - هذه المعجزة المجسمة في عالم البشر . وهي المعجزة التي لا تطاولها جميع المعجزات والخوارق التي صحبت الرسائل جميعاً . . وهي معجزة واقعة مشهودة . . أن كان ذلك الجيل الفريد ظاهرة تاريخية فريدة . . .

ولقد كان المجتمع الذي تألف من ذلك الجيل أول مرة , والذي ظل امتداده أكثر من ألف عام , تحكمه الشريعة التي جاء بها هذا الكتاب , ويقوم على قاعدة من قيمه وموازينه , وتوجيهاته وإيحاءاته . . كان هذا المجتمع معجزة أخرى في تاريخ البشرية . حين تقارن إليه صور المجتمعات البشرية الأخرى , التي تفوقه في الإمكانيات المادية - بحكم نمو التجربة البشرية في عالم المادة - ولكنها لا تطاوله في "الحضارة الإنسانية" !

إن الناس اليوم - في الجاهلية الحديثة ! - يطلبون حاجات نفوسهم ومجتمعاتهم وحياتهم خارج هذا القرآن ! كما كان الناس في الجاهلية العربية يطلبون خوارق غير هذا القرآن ! . . فاما هؤلاء فقد كانت تحول جاهليتهم الساذجة , وجهالتهم العميقة - كما تحول أهواؤهم ومصالحهم الذاتية كذلك - دون رؤية الخارقة الكونية الهائلة في هذا الكتاب العجيب ! . . فاما أهل الجاهلية الحاضرة , فيحول بينهم وبين هذا القرآن غرور "العلم البشري" الذي فتحه الله عليهم في عالم المادة . وغرور التنظيمات والتشكيلات المعقدة بتعقيد الحياة البشرية اليوم ; ونموها ونضجها من ناحية التنظيم والتشكيل . وهو أمر طبيعي مع امتداد الحياة وتراكم التجارب , وتجدد الحاجات , وتعقدها كذلك ! كما يحول بينهم وبين هذا القرآن كيد أربعة عشر قرناً من الحقد اليهودي والصليبي ; الذي لم يكف لحظة واحدة عن حرب هذا الدين وكتابه القويم ; وعن محاولة إلهاء أهله عنه ; وإبعادهم عن توجيهه المباشر . بعدما علم اليهود والصليبيون من تجاربهم الطويلة: أن لا طاقة لهم بأهل هذا الدين , ما ظلوا عاكفين على هذا الكتاب , عكوف الجيل الأول , لا عكوف التغني بآياته وحياتهم كلها بعيدة عن توجيهاته ! . . هو كيد مطرد مصرّ لئيم خبيث . . ثمرته النهائية هذه الأوضاع التي يعيش فيها الناس الذين يسمون اليوم بالمسلمين - وما هم بالمسلمين ما لم يحكموا في حياتهم شريعة هذا الدين ! - وهذه المحاولات الأخرى في كل مكان للتعفية على آثار هذا الدين ; ولتدارس قرآن غير

قرآنه ; يرجع إليه في تنظيم الحياة كلها , ويرد إليه كل اختلاف , وكل نزاع في التشريع والتقنين لهذه الحياة ; كما كان المسلمون يرجعون إلى كتاب الله في هذه الشؤون !!!

إنه هذا القرآن الذي يجهله أهله اليوم . لأنهم لا يعرفونه إلا تراويل وترانيم وتعاويز وتهاويم ! بعدما صرفتهم عنه قرون من الكيد اللئيم , ومن الجهل المزري , ومن التعاليم المغرورة , ومن الفساد الشامل للفكر والقلب والواقع النكد الخبيث !

إنه هذا القرآن الذي كان الجاهليون القدامى يصرفون عنه الجماهير بطلب الخوارق المادية . والذي يصرف عنه الجاهليون المحدثون الجماهير بالقرآن الجديد الذي يفترونه , وبشتى وسائل الإعلام والتوجيه ! إنه هذا القرآن الذي يقول عنه العليم الخبير:

(هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . .

بصائر تكشف وتنير . وهدى يرشد ويهدي . ورحمة تغمر وتفيض . . (لقوم يؤمنون) فهم الذين يجدون هذا كله في هذا القرآن الكريم . .

الدرس الثالث: 204 الإستماع والإنصات للقرآن

ولأن هذا هو القرآن يحيى مباشرة في السياق هذا التوجيه للمؤمنين:

وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون . .

فتختتم به السورة التي بدأت بالإشارة إلى هذا القرآن: (كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به وذكرى للمؤمنين) . .

وتختلف الروايات المأثورة في موضع هذا الأمر بالاستماع والإنصات إذا قرئ القرآن . . بعضهم يرى أن موضع هذا الأمر هو الصلاة المكتوبة . حين يجهر الإمام بالقرآن ; فيجب أن يستمع المأموم وينصت , ولا يقرأ هو مع قراءة الإمام الجهرية . ولا ينازع الإمام القرآن ! وذلك كالذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن , وقال الترمذي عنه: هذا حديث حسن , وصححه أبو حاتم الرازي , من حديث الزهري عن أبي أكتمة الليثي عن أبي هريرة أن رسول الله [ص] انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: " هل قرأ أحد منكم معي أنفاً به " قال رجل: نعم يا رسول الله . قال: " إني أقول: ما لي أنازع القرآن " فأنتهى الناس عن القراءة مع رسول الله [ص] فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله [ص] وكالذي رواه ابن جرير في التفسير: حدثنا أبو كريب , حدثنا المحاربي , عن داود بن أبي هند , عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود , فسمع ناساً يقرأون مع الإمام . فلما انصرف قال: " أما أن لكم أن تفهموا ; أما أن لكم أن تعقلوا: (إذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) كما أمركم الله " !

وبعضهم يرى أن هذا كان توجيهاً للمسلمين أن لا يكونوا كالمشركين الذين كانوا يأتون رسول الله [ص] إذا صلى , فيقول بعضهم لبعض بمكة: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون). فأنزل الله عز وجل جواباً لهم: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) . . قال القرطبي هذا وقال نزل في الصلاة . روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر والزهري وعبيد الله بن عمير وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن المسيب . .

وروي ابن جرير سبباً للنزول قال: حدثنا أبو كريب , حدثنا أبو بكر بن عياش , عن عاصم عن المسيب

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)
ابن رافع . قال ابن مسعود: كان يسلم بعضنا على بعض في الصلاة , فجاء القرآن . (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون).

وقال القرطبي في التفسير: قال محمد بن كعب القرظي: كان رسول الله [ص] إذا قرأ القرآن في الصلاة أجابه من وراءه . إذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم . قالوا مثل قوله , حتى يقضي فاتحة الكتاب والسورة , فليث بذلك ما شاء الله أن يلبث فنزل: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون). وهذا يدل على أن المعنى بالإنصات ترك الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله [ص] .

وقال القرطبي كذلك: وقال قتادة في هذه الآية: كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسألهم: كم صليتم ? كم بقي ? فأنزل الله تعالى: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) . . وعن مجاهد أيضاً: كانوا يتكلمون في الصلاة بحاجتهم , فنزل قوله تعالى: (. . لعلكم ترحمون).

والذين يرون أنها خاصة بقراءة القرآن في الصلاة يستشهدون بما رواه ابن جرير: حدثنا حميد بن مسعدة , حدثنا بشر بن المفضل , حدثنا الجريري , عن طلحة بن عبيد الله بن كريب قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان والقاص يقص [يعني والقارئ يقرأ] فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود , [يعني قوله تعالى: (لعلكم ترحمون)] قال: فنظرا إلي ثم أقبلنا على حديثهما ; قال فأعدت , فنظرا إلي وأقبلنا على حديثهما ! قال فأعدت الثالثة , قال: فنظرا إلي فقالا: إنما ذلك في الصلاة: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا). قال ابن كثير وهو يروي هذا الخبر: وكذا قال سفيان الثوري عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير عن مجاهد في قوله: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) قال: في الصلاة , وكذا رواه غير واحد عن مجاهد . وقال عبد الرزاق , عن الثوري عن ليث عن مجاهد , قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم . .

وبعضهم يرى أنها في الصلاة وفي الخطبة كذلك في الجمع والعيدين , قاله سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار , ويزيد بن أسلم , والقاسم بن مخيمرة , ومسلم بن يسار وشهر بن حوشب وعبد الله ابن المبارك , ولكن القرطبي قال: " وهذا ضعيف , لأن القرآن فيها قليل , والإنصات يجب في جميعها . قاله ابن العربي والنقاش: والآية مكية ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة " .

وقال القرطبي في التفسير: قال النقاش: أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة . النحاس: وفي اللغة يجب أن يكون في كل شيء , إلا أن يدل دليل على اختصاص شيء .

ونحن لا نرى في أسباب النزول التي وردت ما يخص الآية بالصلاة المكتوبة وغير المكتوبة , ذلك أن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب . والأقرب أن يكون ذلك عاماً لا يخصه شيء , فالاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له - حيثما قرئ - هو الأليق بجلال هذا القول , وبجلال قائله سبحانه ! وإذا قال الله أفلا يستمع الناس وينصتون ?! ثم رجاء الرحمة لهم: (لعلكم ترحمون). . ما الذي يخصه بالصلاة ? وحيثما قرئ

القرآن , واستمعت له النفس وأنصت , كان ذلك أرجى لأن تعي وتتأثر وتستجيب ; فكان ذلك أرجى أن ترحم في الدنيا والآخرة جميعاً . .

إن الناس يخسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن . . وإن الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس - حين تستمع لها وتنصت - أعاجيب من الأنفعال والتأثر والاستجابة والتكيف والرؤية

وَإِذْ كُرِّمَتْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ
الْعَافِينَ (205)

والإدراك والطمأنينة والراحة , والنقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة . . مما لا يدركه إلا من ذاقه وعرفه !

وإن العكوف على هذا القرآن - في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة والترنم ! - لينشئ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى ; ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة ; ومن الحرارة والحيوية والانطلاق ! ومن الإيجابية والعزم والتصميم ; ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب !

وإن رؤية حقائق الوجود - من خلال التصوير القرآني - وحقائق الحياة , ورؤية الحياة البشرية وطبيعتها وحاجاتها من خلال التقريرات القرآنية , فهي رؤية باهرة واضحة دقيقة عميقة . تهدي إلى معالجتها وإلى مزاولتها بروح أخرى , غير ما توجه إليه سائر التصويرات والتقريرات البشرية . .

وهذا كله أرجى إلى الرحمة . . وهو يكون في الصلاة وفي غير الصلاة . وليس هناك ما يخص هذا التوجيه القرآني العام بالصلاة كما روى القرطبي عن النحاس .

الدرس الرابع: 205 - 206 الذكر والدعاء والصلاة والإستغفار

ثم تنتهي السورة بالتوجيه إلى ذكر الله عامة . . في الصلاة وفي غير الصلاة . .

(واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال , ولا تكن من العافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون). .

قال ابن كثير في التفسير: " يأمر الله تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً . كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب - وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء . وهذه الآية مكية - وقال ها هنا: بالغدو , وهو أول النهار , والآصال جمع أصيل - كما أن الإيمان جمع يمين - وأما قوله: تضرعاً وخيفة أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول , لا جهراً , ولهذا قال: (ودون الجهر من القول). وهكذا يستحب أن يكون الذكر , لا يكون نداءً وجهراً بليغاً . ولهذا لما سألوا رسول الله [ص] فقالوا: أقرب ربنا فنأجبه ; أم بعيد فنناديه ? فأنزل الله عز وجل: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان). . وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار , فقال لهم النبي [ص]: " يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم , فإنكم لا

تدعون أصم ولا غائباً , إن الذي تدعونه سميع قريب , أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته
.. "

ولم يقبل قول ابن جرير وقبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن المراد بها أمر السامع
للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة . . وقال: " فهذا الذي قاله لم يتابعا
عليه , بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال لئلا يكونوا من
الغافلين . ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون , فقال: (إن الذين
عند ربك لا يستكبرون عن عبادته). . الآية . وإنما ذكرهم بهذا ليقترى بهم في كثرة
طاعتهم وعبادتهم " . .

ونحن نرى فيما أورده ابن كثير من المناسبة والأحاديث النبوية مدى ما كان هذا القرآن
وكانت التربية النبوية تنقل إليه نفوس العرب من المعرفة بحقيقة ربهم , وحقيقة الوجود
من حولهم . وندرك من سؤالهم ومن الإجابة عليهم مدى النقلة التي نقلها لهم هذا الدين
, بهذا الكتاب الكريم , بالتوجيه النبوي القويم . . إنها نقلة بعيدة , تتجلى فيها نعمة الله
ورحمته لو كان الناس يعلمون ! . .

وبعد , فإن ذكر الله - كما توجه إليه هذه النصوص - ليس مجرد الذكر بالشفة واللسان .
ولكنه الذكر بالقلب والجنان . فذكر الله إن لم يرتعش له الوجدان , وإن لم يخفق له
القلب , وإن لم تعش به النفس . . إن لم يكن مصحوباً بالتضرع والتذلل والخشية
والخوف . . لن يكون ذكراً . . بل قد يكون سوء أدب في حق الله سبحانه . إنما هو
التوجه إلى الله بالتذلل والضراعة , وبالخشية والتقوى . . إنما هو استحضار جلال الله
وعظمته , واستحضار المخافة لغضبه وعقابه , واستحضار الرجاء فيه والالتجاء إليه . .
حتى يصفو الجوهر الروحي في الإنسان , ويتصل بمصدره اللدني الشفيف المنير . .

فإذا تحرك اللسان مع القلب ; وإذا نبست الشفاه مع الروح ; فليكن ذلك في صورة لا
تخدش الخشوع ولا تناقض الضراعة . ليكن ذلك في صوت خفيض , لا مكاء تصدية , ولا
صراخاً وضجة , ولا غناء وتطرية !

(واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول). . .

(بالغدو والآصال).

في مطالع النهار وفي أواخره . فيظل القلب موصولاً بالله طرفي النهار . وذكر الله لا
يقتصر على هذه الآونة , فذكر الله ينبغي أن يكون في القلب في كل أن ; ومراقبة الله
يجب أن تكون في القلب في كل لحظة . ولكن هذين الآئين إنما تطالع فيهما النفس
التغير الواضح في صفحة الكون . . من ليل إلى نهار . . ومن نهار إلى ليل . ويتصل
فيهما القلب بالوجود من حوله ; وهو يرى يد الله تقلب الليل والنهار ; وتغير الظواهر
والأحوال . . وإن الله - سبحانه - ليعلم أن القلب البشري يكون في هذين الآئين أقرب
ما يكون إلى التأثر والاستجابة . . ولقد كثر في القرآن التوجيه إلى ذكر الله سبحانه
وتسبيحه في الآونة التي كأنما يشارك الكون كله فيها في التأثير على القلب البشري
وترقيقه وإرهافه وتشويقه للاتصال بالله . . (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك
قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود). . (ومن آثار
الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى). . (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً . ومن الليل
فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً). .

ولا داعي للقول بأن هذا الأمر بالذكر في هذه الآونة قد كان قبل فرض الصلاة المكتوبة في أوقاتها المعلومة . مما يوحي بأن فرض الصلاة المكتوبة قد أغنى عن هذا الأمر في هذه الآونة . فهذا الذكر أشمل من الصلاة , وأوقاته ليست مقصورة على مواقيت الصلاة المكتوبة . كما أنه قد يكون في صور غير صورة الصلاة - المكتوبة وغير المكتوبة - في صورة الذكر بالقلب , أو بالقلب واللسان دون بقية حركات الصلاة . . بل إنه لأشمل من ذلك كذلك . إنه التذكر الدائم والاستحضار الدائم لجلال الله - سبحانه - ومراقبته في السر والعلن , وفي الصغيرة والكبيرة , وفي الحركة والسكنة , وفي العمل والنية . . وإنما ذكر البكرة والأصيل والليل . . لما في هذه الآونة من مؤثرات خاصة يعلم الله ما تصنع في القلب البشري , الذي يعلم خالقه فطرته وطبيعته تكوينه !

(ولا تكن من الغافلين) . .

الغافلين عن ذكر الله . . لا بالشفة واللسان , ولكن بالقلب والجنان . . الذكر الذي يخفق به القلب ; فلا يسلك صاحبه طريقاً يخجل أن يطلع عليه الله فيه ; ويتحرك حركة يخجل أن يراه الله عليها ; ولا يأتي صغيرة أو كبيرة إلا وحساب الله فيها . . فذلك هو الذكر الذي يرد به الأمر هنا ; وإلا فما هو ذكر لله , إذا كان لا يؤدي إلى الطاعة والعمل والسلوك والاتباع .

اذكر ربك ولا تغفل عن ذكره ; ولا يغفل قلبك عن مراقبته ; فالإنسان أحوج إلى أن يظل على اتصال بربه , ليتقوى على نزغات الشيطان:(وإما ينزغتك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله , إنه سميع عليم). ولقد

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)
كانت السورة من قبل معرضاً للمعركة بين الإنسان والشيطان في أوائلها , وظل سياقها يعرض موكب الإيمان وشياطين الجن والإنس تعترض طريقه , كما ذكر الشيطان في نيا الذي أتاه الله آياته فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . وكما ذكر في أواخرها نزغ الشيطان والاستعاذة منه بالله السميع العليم . . وهو سياق متصل , ينتهي بالتوجيه إلى ذكر الله تضرعاً وخيفة , والنهي عن الغفلة . . ويأتي هذا الأمر وهذا النهي في صدد توجيهه الله سبحانه لرسوله [ص] أن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين . . فإذا هو تكملة لمعالم الطريق , وتزويد لصاحب الدعوة بالزاد الذي يقوى به على مشاق الطريق . .

ثم يضرب الله مثلاً بالذين عنده من الملائكة المقربين:الذين لا ينزغ في أنفسهم شيطان , فليس له في تركيب طبيعتهم مكان ! ولا تستبد بهم نزوة , ولا تغلبهم شهوة . ومع هذا فهم دائبون على تسبيح الله وذكره , لا يستكبرون عن عبادته ولا يقصرون . وللإنسان أحوج منهم إلى الذكر والعبادة والتسبيح . وطريقه شاق ! وطبيعته قابلة لنزغ الشيطان ! وقابلة للغفلة المردية ! وجهده محدود . لولا هذا الزاد في الطريق الكؤود:

(إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته . ويسبحونه . وله يسجدون) . .

إن العبادة والذكر عنصر أساسي في منهج هذا الدين . . إنه ليس منهج معرفة نظرية . وجدل لاهوتي . إنه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشري . وللواقع البشري جذوره وركائزه في نفوس الناس وفي أوضاعهم سواء . وتغيير هذا الواقع الجاهلي إلى الواقع

الرباني الذي يريد الله للناس وفق منهجه مسألة شاقة عسيرة ; تحتاج إلى جهد طويل , وإلى صبر عميق . وطاقة صاحب الدعوة محدودة . ولا قبل له بمواجهة هذه المشقة دون زاد يستمد منه ربه . إنه ليس العلم وحده , وليست المعرفة وحدها . إنما هي العبادة لله والاستمداد منه . . هي الزاد , وهي السند , وهي العون ; في الطريق الشاق الطويل !

ومن ثم هذا التوجيه الأخير في السورة التي بدأت بقول الله سبحانه لرسوله الكريم , (كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به , وذكرى للمؤمنين). . والتي تضمن سياقها عرض موكب الإيمان , بقيادة الرهط الكريم من رسل الله الكرام ; وما يعترض طريقه من كيد الشيطان الرجيم ; ومن مكر شياطين الجن والإنس ; ومن معارضة المتجبرين في الأرض , وحرب الطواغيت المتسلطين على رقاب العباد .

إنه زاد الطريق . وعدة الموكب الكريم في هذا الطريق . .